

١٧/٤

عبد العزيز بن عبد الله
استاذ بكلية الآداب

تاريخ المغرب

العصر القديم والعصر الوسيط

نشر وتوزيع :

مكتبة المعارف

الرباط

مكتبة السلام

الدار البيضاء

مقدمة

الفكر العلمى فى كتابة التاريخ

ان ثلة من المؤرخين المغاربة والاجانب قد ساهموا فى جمع الوثائق التى تتسم باهمية كبرى وتحتوى على العناصر الضرورية لتكوين فكرة عن المعطيات الجوهرية فى تاريخنا الوطنى فالدراسة النقدية المقارنة لهذه النصوص كفيلا بالقاء أضواء كشافا عن تسلسل الاحداث ورسم الخطوط الرئيسية للاطار العام الذى تبلورت فيه هذه المعطيات .

وجدير بالباحث النقاد ان يتساءل عن القيمة العلمية لهذه النصوص وعن مدى تصويرها للحقائق التاريخية فاذا راجعنا مجموعة من النشرات والمصنفات فى هذا الحقل من مظاهر حضارتنا لاحتظنا ان معظم المؤلفين يتأرجحون بين مناهج فهناك فريق ينساق فى تيار عاطفى يضى على المآجريات لونا خاصا فلما يتناسق مع الواقع اولا يتوفر على الاداة الضرورية للحكم كانهام الوثائق او لضعف الروح النقدية وبذلك تنبثق اساطير مبهرجة تحف بها هالة براءة وهناك فريق اخر يحاول التحرى ويوفق احيانا ولكن بعثرة المراجع وهلهتها تعد من قيمة نتاجه وفريق ثالث وهو من المؤرخين الاجانب هدفه التنقيص من مقوماتنا بنقاد لعاطفة معكوسة تنكر ماحسن او تفلصه وتضخم ماساء .

فمقتضيات التحرى والاستقراء تستلزم اذن صهر جميع النصوص فى بوتقة عامة تسلط عليها انوار الكشف النقدى الموضوعى لاستخلاص صورة حقيقية او قريبة من الحقيقة .

وقد حاول مستشرقون مبرزون تحليل التيارات الكبرى لتاريخ العرب والمظاهر المختلفة لحضارتهم والتطورات التى طرأت فى مختلف المجالات من خلال العبقرية العربية فانسجمت أبحاثهم مع الخطة الرصينة التى نهجها كثير من مؤرخى العرب والاسلام حيث تركز مصادرهم على طريقة الاسناد القويمة المدعمة بوسائل التعديل والتجريح للرواة علاوة على النقد الصحيح الذى يستمد عناصره من قواعد فى البحث العلمى لا تختلف كثيرا ونظريات الغربيين أمثال

ديكارت وفولتير وهذه الطريقة هي اقوم المناهج لمراقبة الاندفاعات العاطفية فالموضوعية خاصة جوهرية لدى المؤرخ ومن البديهي ان الموضوعية ليس معناها النقل التقليدي ولا انعدام الحاسة النقدية وانما مؤداها الاستناد الى الواقع المجرد وتركيز التاويلات على مسلمات ومعطيات يعززها المنطق والنص فالعامل الشخصي يشكل عنصر انحراف كثيرا مايكون خفيا مهما تكن نزاهة المؤرخ واستقامته الفكرية .

فالاغضاء عن الحق اذا كان مقصودا - لا يقل جنابة عن محاولة التدليس والتضليل بتجريد فكرة أو واقعة من لبابها أو بافراغها في قالب مصطنع .

والاحكام الباتة التي تتغلغل في الفكر ولا تترك مجالا للتراجع تسيء الى تحريات المؤرخ لانها تقف حاجزا دون انبثاق الحق والانصياع للوازمه واذا كان هنالك حكم يشوه الحقيقة التاريخية فهو الاعتبار السياسية مثلا التي تفرض وجهة خاصة في التاويل ومن هذا القبيل كثير من المصنفات التي أعدها بعض المرتزفة استجابة لأمير أو رئيس في عصر من العصور فهذا النوع من للتاريخ الموجه الذي يؤدي الى اصفاء سمة غير طبيعية ولا منطقية على الماخرات يعتبر من النواخر العارمة التي تفت في الهيكل العلمى وتحول دون انبثاق الحقيقة التاريخية .

فاذا انضاف الى هذه الحواجز الاصطناعية عمل فكري مرتجل وتعميمات سطحية في الاحكام فان المؤدى المحتوم هو التناقض الصارخ .

فالضمير الحي للتبيل والفكر النزيه يثوران ضد اى مساس بالواقع التاريخي ولو كان مصدر هذا المساس هو الاعتشور او الاالاتجال غير الواعي وللمؤرخ التي يقدر رسالته لا يسعه أن ينحاز لفكرة دون أخرى انسياقا مع دواعي سلبية او سياسية او دينية فنحن عندما نقرأ للمؤرخ الفرنسى روتان بعوناً يشيد فيها بالعرب قصد التنقيص من البربر او الاتراك ويؤكد ان انهيار الاسلام بدأ يوم وقعت امبراطوريته بين ايد خشنة (ويقصد بذلك البربر والاتراك والماليك والاعلاج) فاننا نحس بوخز اليم هو نفس ما يشعر به الفكر الانساني الحر ازاء مظلمة من المظالم ذلك ان اسباب تفكك الرابطة الاسلامية كثيرة وأعمق مما يتصور كثير من الناس .

وقد قرأنا عكس ذلك للمؤرخ كوتبي الذي زعم ان للعضارة الاسلامية لم تتفتق الا في الوقت الذي اختفى فيه العرب من المسرح العسكرى والسياسى وكثير من المؤرخين الذين فلسفوا تاريخ المغرب اعتبروا الانتفاضات التي كانت تذكى المغرب دوريا مظهرا لحيوية طبيعية لدى أمة فتية أولها حكم للام المفتية - في عتفوان انبثاقها وطفرة تلقائية نحو بلورة الكيان والذاتية الوطنية هذا بينما رأى مؤرخون آخرون في تلك الانتفاضات «حملة دينية اقتصادية» تتدخل فيها العواطف القبلية والعصية السلالية وهكذا فاسهام البربر الجماعى في

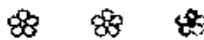
تحقيق توسع الاسلام وذيوع فكرته المثالية يرجع في نظر البعض الى طبيعة حربية أو رغبة في الاسلاب والغنائم لدى البربر بينما يرى فيه آخرون نتاجا لعوامل دينية فالمؤرخون الذين تذكيتهم عواطف خاصة ضد العرب يزعمون ان انتصار الحركات التوسعية الموحدية يستند لكون المغرب لم يكن قد اتسم في القرن الخامس بآثار تلك العدوى التي دكت اسس المغربين الاوسط والادنى كنتيجة لتسرب افواج العرب من بنى هلال وبنى سليم الى افريقيا الشمالية وقد رأى البعض في ثورة البربر ضد بعض الاسياد والقواد من العرب في القرنين الاول والثاني تهردا ضد المغير الاجنبي بينما اعتبرها آخرون بمثابة رد فعل طبيعي باسم الاسلام ضد فئة من الشرقيين الانتهازيين الذين داسوا مبادئ الديموقراطية الاسلامية وعاشوا على كاهل الشعب البئيس في رخاء ورغد ولهذا تقبل البربر نظرية الخوارج لأنها كانت تدعو الى المساواة باسم الاسلام .

ولو كان الامر يمس بعض الجزئيات من تاريخنا لما كان في ذلك كبير خطر ولكنه يتسرب الى الاعماق فيفتح المجال لاندساس اعتبارات هدامة مختلفة .

فتاريخ المغرب هو أكثر من سلسلة الحروب التي اصطلح فيها ادعاء الملك وهو أعمق من تلك الكليشيات الجوفاء التي تصور هذا العصر أو ذاك وهو أشمل من تلك الصور التي تترك الغموض الحال ك في كثير من مظاهر حضارتنا وتاريخنا هو أعظم من ان يفسح صدره للأساطير لان في مقوماته ما يغني لابرار مجالي نهضته التي سادقت الانبعاثات لدى كثير من الهم والشعوب وبالجملة ففي نصوص تاريخنا صورة واضحة عن الحقيقة المرة التي تقلب فيها الشعب المغربي خلال العصور وصورة لا تقل وضوحا عن عبقرتنا وأصالة حضارتنا وعن الاسباب الخارجية التي حالت دون استهوار تطورنا في الحقل الدولي منذ ظهور الحركة الاستعمارية الغربية .

هنالك حقائق تاريخية كامنة في هذه النصوص لا يستخرجها الا الفكر العلمى الموضوعى النقاد .

المؤلف



الفصل الاول

المغرب الجغرافي

لا يمكن التعرف الى تطورات المغرب التاريخية الا باستقراء المظاهر الجغرافية للجانب الغربي من افريقيا الشمالية ، فالمغرب الجغرافي قد تقلب في اطوار كيفت شكلته الطبيعية وتمخض هذا التلون الجيولوجي عن نوع من الاتجاه في الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

فمن الوجهة الجيولوجية تكونت اغلبية الصخور التي هي قوام باطن الارض المغربية في اعماق البحر لهذا يلاحظ أن تراكم طبقاتها تم على صورة افقية تقريبا ، الواحدة فوق الاخرى بحيث تعتبر الطبقات العليا احدث من الطبقات السفلى تبعا للعصور الجيولوجية الخمسة التي ينقسم اليها تاريخ تكوين الارض :

ولم تكن للمغرب دائما الشكلية التي له اليوم ، فقد غطت مياه البحار آمادا طوالا الاراضي المغربية كلا او بعضا بحيث كان البحر بين مد وجسرد ينسحب تارة ويعود طورا فيخلف رواسب جديدة ثم يتراجع تاركا الارضي فريسة لمياه الامطار والانهار والرياح تنخره نخرًا بعد هذه الاطوار المتعاقبة اتخذ المغرب هندامه الجيولوجي الحالي .

وكانت الجبال الشاهقة هنا وهناك ولكنها اندرست منذ ازمة سحيقة مثال ذلك ما لوحظ في جنوب المغرب من آثار الجبال التي غفت عليها المياه

والرياح قبل تراكم رواسب العصر الجيولوجى الاول الذى دهمت المغرب فى
اواخره موجة شديدة من الحرارة والجفاف جعلته اشبه بصحراء قاحلة مترامية .

وفى العصر الثانى غمرت المياه معظم المغرب ، فموقع الريف الحثاى مثلاً
كان اذ ذاك عبارة عن هوة سحيقة تتراكم فيها الرواسب وكانت مواقع الاطلس
مغمورة بالمياه الا انها اقل عمقاً من الريف وفى العصر الثالث حدثت زلازل
وتطورات هزت باطن الارض واسفرت عن ظهور الجبال الحالية وفى نفس الوقت
انشق وسط سلسلة جبال الريف المقوسة بين طنجة والجزيرة الخضراء -
مضيق جبل طارق .

وهناك تغير الطقس بسبب ماظهر على سطح الارض من وهاد وأغوار .

وفى العصر الرابع استكمل المغرب مظهره الجيولوجى العام وتغيرت
مستويات البحر وخطوط الشواطىء وبينما كانت الثلوج تكمل وهاد شمالى
اوربا وجبال الالب طرات على المغرب انقلابات فى الطقس بين الرطوبة والطرارة
والاعتدال والحرارة والجفاف ، عند ذلك نضبت البحيرات الكبرى التى كانت
تغمر فى اواخر العصر الجيولوجى الثالث ناحية الساييس بجنوب مكناس وفاس
ويطاح تدلة وناحية الرحامنة والحوز والملوية ومدخل الصحراء ثم فتحت الانهار
طرقها فى شعاب شاسعة خلال جبال وهاد تازكة على البطاح المتوامية ركعها
من الرواسب .

اما التراب النباتى فانه يعتبر احدث مظاهر التطور الجيولوجى ذلك ان
التراب هو الجزء السطحى للقشرة الارضية التى تغذى النبات ، وهو يحتوى
على عناصر مغذية تتراكم فى شكل افقى تفرز فيه النباتات جذورها والتراب
بيئة حية هى بوتقة للتفاعلات الكيماوية والعناصر التى يتكون منها التراب
لها ايضا علاقة وثيقة بالطقس الذى يعدل مجرى المياه ونشاط التفاعلات
الكيماوية : فاقرب من افىء الاندلس لاتبعد عن ميناء القصر الصغير او المجاز الا
ببضعة اميال وهى اقرب المسافات بين قارتى افريقيا واوربا لذلك كافى المغرب
اول دولة افريقية لتكثفها ان تقوم بدور الوسيط بين حضارات الشرق والغرب
لاسيما وان موانىء البحر الابيض المتوسط كانت المراكز الاولى للمبادلات
التجارية بين اوربا والشرق الادنى .

وعند ما تم الكشف عن طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح فى

القرن التاسع الهجري أصبح للمحيط الاطلنطي دور هام في الاتصالات العالمية وصارت الموانئ المغربية الواقعة بسواحله تلعب دور الوسيط مع المغرب رغم الحواجز الطبيعية التي تعرقل تطور الملاحة على طول هذه الشواطئ .

فهذا الوضع الخاص يفسر بعض المظاهر التي اتسمت بها التطورات السياسية والعلائق بين المغرب والدول الاوربية .

اما في البر فان ممر تازة كان هو المعبر الاناسي بين الجانبين الشرقي والمغربى للمغرب العربى علاوة على الممرات الجبلية التي كانت تصل بين الاطلس والهضاب الشرقية نحو تافيلالت وفيجيج . وبقدر ما كانت الحواجز البحرية جائلا بين المغرب الاوربي وبين التراب المغربى بقدر ما كانت السلسلة الاطلسية الشامخة حجر عثرة حالت دون تسرب كثير من الجيوش التي احتلت تونس والجزائر سواء في العصر الهيلينى او في عهد الاتراك . ومع ذلك وصلت حدود المغرب الشرقية الى ما وراء هذه الحواجز مما دل على ان التخوم كانت ارادية اكثر منها ترابية لان رغبة الواحات الشرقية واندفاعها التلقائى الى الانضواء تحت الراية المغربية هما اللذان اعطيا السمة التاريخية والقانونية لهذه الحدود السياسية التي تصل المغرب الاوسط بالصحراء المغربية كما تربط الشيارات المتوسطة بقلب افريقيا وهذا العامل هو الذى فسح ايضا المجال لتوغل الحضارة المغربية عبر الفيافى الى نهر السنغال .

فمقومات هذه الوحدة الطبيعية قد تعززت بعناصر جغرافية لم تنقص من قيمتها ولم تفت فى اعضادها تلك الفروق الملحوظة بين السهول والجبال والاقاليم الصحراوية فالنواحي الواقعة شمالى الاطلس وغربيه تشمل مجموعة من الهضاب والبطاح الثرية ذات الطقس المتوسطى والاطلنطى حيث تهطل الامطار وتتوافر المحاصيل وقد كانت هذه المناطق الممتدة من مراكش الى فاس الى القصر الكبير حيث توقف العدوان الاجنبى فى وادى المخازن - الاطار الطبيعى والمحور المركزى للدولة المغربية منذ الادارسة الى العصر الحديث ومنها كانت تنبثق الاشعاعات الحضارية لتتوغل داخل الاطلس والصحراء فالشبه ملحوظ (I) فى كل من المغرب وفرنسا فالعائلات المالكة التي توالت على المغرب من المرابطين والموحدين والمرينيين الى الشرفاء كانت تنحدر من تلك النواخل كلما

(I) على عكس ما يراه طيراس فى تاريخه (ج I ص 12) .

انهديا كيان هذا الاطار فتجعل منه بوثقة لصهر مقومات الدولة نفسها رغم انحداز مؤسستها من الشرق العربي ولم تتخلف عن الانسياق لهذا العامل .

فكلما توفرت وسائل الاتصال بين الاقاليم الصحراوية والاطلسية والسهلية تمخض الاحتكاك رغم الاصطدامات الشخصية العارضة عن انصهار متجدد لعناصر الوحدة المغربية .

ويشغل الاطلس مساحة شاسعة من التراب المغربي ويمتد تأثيره بصورة غير مباشرة الى ما وراء المنطقة الجبلية ومن الصعب حصر حدود هذه الجبال وقد اصطلح على تقسيمها الى ثلاث سلاسل :

I - الاطلس الاكبر الذي يمتد من ساحل المحيط الى الهضاب الواقعة جنوبي المغرب الشرقي .

2 - الاطلس الاوسط الذي ينفصل عن الاكبر في ناحية تساوت ويمتد الى تازا .

3 - الاطلس الاصغر الذي يرتبط بزيميله بواسطة جبل سارو البركاني وصخور هذا القسم من الاطلس عريقة في القدم من الوجهة الجيولوجية وهو اشبه بالنجود الصحراوية منه بجبال المتوسط .

وقد شبهت سلسلة الاطلس بسند شاهق لان الاتصال بين السهل المراكشي البالغ ارتفاعه تسعمائة متر والاطلس الكبير البالغة اعلى قننه 4200 متر (توبكال) هو اتصال مباشر لا تدرج فيه كما هي العادة وكذلك الاطلس الاوسط الذي يشرف على تادلة وجبال بني ملال .

وقد نخرت الانهار والسهول القليل المتوسطة الارتفاع حيث يكاد يستوي سطح الجبل وهذا بخلاف ما يلاحظ في الاطلس الكبير بناحية مراكش حيث تتشكل القنن بشكل دقيق حاد ولكن في الاحواض العليا لام الربيع ووادي بهت وابي رقراق تكثر السطوح المستوية الاديم التي تتخللها وهداث سحيقة تعلو جوانبها قنن حداد مثال ذلك بلاد زيان بغرب ام الربيع .

والمنظر في الاطلس ثقيل لارتفاع الجبال ولكن الاودية التي تحاذي هذه الجبال اما في شكل عمودي أو مواز تحدث شيئا من الانفراج وهنا تتوافر المراكز والمجتمعات البشرية بسبب وفرة الممرات الممتدة في عرض الجبال كمر رصيفة

في الاطلس الاوسط وزين بشرق الاطلس الكبير والممرات الثلاثة الشهيرة
بغرب الاطلس الكبير وهي ممر معاشو بمتوكة وتست بكندافة وتلوات بكلاوة
وفي هذه الممرات تتجه الطرق نحو مراكش .

ان الحياة في داخل الاطلس الكبير تتميز في القمم الشاهقة الخالية من
السكان - عنها في الاودية التي تتوافر فيها عوامل الثراء .

والسبب في قلة السكان في القمم العالية هو كثرة الثلوج في الشتاء
وتخلل ذلك بالزوابع العاصفة ثم الجفاف اللافت زد على ذلك ان صلابة الصخور
البركانية في غربي الاطلس الكبير وقابلية التحلل في المساحات الجيرية بشرقي
الاطلس يحولان دون تطور المراعى ومسارح السوائم ولا يستثنى من ذلك الا
الهضاب الحمراء في متوكة وكلاوة حيث تتمخض الرطوبة عن مرعى خصيب
يحصده اعشابه سكان النواحي المجاورة في اوائل الصيف ولكن الكلا في الجبال
ليس سوى مورد اضافى لذلك تتركز الحياة في الاودية على ان هنالك فرقا
بينما بين سقى الاطلس الكبير اللذين يفصلهما حوض تساوت فسكان الناحية
الغربية فلاحون ومزارعون لهم عناية بالاشجار بينما سكان الشرق ينتجعون
كلا الجبال في الصيف وهم في ذلك أشبه بسكان الاطلس المتوسط .

وكل هذه الاودية ميدان للحقول المتدرجة والزروع التي تنتشر بفضل
السقى ويتطلب حفر السواقي مجهودات جبارة يتغلب عليها السكان بما جيلوا
عليه من مثابرة وحيوية ولكن كثيرا ماتكون منابع هذه السواقي محصورة
وراء حاجز واه ينهار فيجرف سيله بالقرية الواقعة تحته وتنتج هذه الحقول
المتدرجة في المنحدرات القمح والشعير والخضر (البصل والبطاطس والملفت)
تتخللها ازهار متنوعة وينبت الخرطال احيانا بدون سقى ولكن الذرة هي محور
الاقتصاد ففي شهر اكتوبر تحصد السنابل وتترك الحقول للسوائم ترح فيها
وتكثر كذلك اشجار الفواكه كالبرتقال والكروم والزيتون والرمان واللوز
والجوز (في الاودية العالية) ويتنوع الانتاج خاصة في المنحدرات المقابلة
للصحراء واشد ما يدهشك في فصل الربيع خضرة الحقول والجنان في قلب
الوادي المتنافية مع المنحدرات الجرداء اما الدور فان فيها طباقا يصعد اليه بدرج
بسيطة لا تتعدى احيانا خشبية مشققة وتوجد في الطابق غالبا غرف كثيرة
ودهليز لحفظ الحبوب وتتلاحق هذه الدور في علو متدرج حتى يصير سقف
هذه عتبة لتلك وما اكثر هذه النماذج في شيشاوة ونفيس (كندافة) ووريكة

وتساوت ولكن علاوة على هذه الدور توجد قصبات محصنة يسكنها الشيوخ والقواد ونوع آخر يسمى تغرمت وهو عبارة عن عمارة مربعة يدخلها ساحة وبجوانبها باب ومنافذ ضيقة وبكل ركن برج للحراسة. وكثيرا ما يقطن عدة عائلات في (تغرمت) واحد وهذا النوع متوافر في حوض وادي العبيد وابت سخمان ونيقة حيث تتكون الدسكرة من مجموعة هذه الدور غير ان العائلات المتواضعة تقطن في دور وطيفة لا طبقة فيها ولا أبراج (تدارت) .

ويتوفر لدى اغنياء هذه الاودية عزائب في الجبل ينقلون اليها سوائمهم خلال فصل الصيف والعزيب عبارة عن ساحة محاطة بجدار من الحجارة تستعمل كحظيرة للقطعان ويبني الراعي في جانب منها نواله ولكن في بعض الاماكن يكون العزيب بمثابة دار حقيقية تمتد حولها المزروعات الصيفية .

ويلاحظ ان النواحي التي يوجد فيها الجير في الاطلس الكبير تغلب فيها تربية الماشية على الزراعة .

ويختلف الاطلس الاوسط عن الاطلس الاكبر وعن الريف معا فهو اقل ارتفاعا من الاول وقل تشققا من الثاني وهو يحتوي على اخصب المراعي المغربية ففي هضابه يكثر النبات نظرا لوفرة الامطار وطول مدة الثلوج وارتداد العواصف التي تحدد من جفاف الصيف وفي منحدراته اجسام تتوافر فيها مساح السوائم وقد جعلت كثرة الامطار وخصب الارض من بلاد زيان مراعي يتدفق الكأ من جوانبها ولكن المنحدرات المتجهة نحو الملوية قليلة الخصب وهي في ذلك متعارضة مع المنحدرات المتجهة صوب المحيط الاطلسي حيث الخضرة الدافقة وبرز نموذج للخصب هي ناحية ولماس كما ان ابرز مثال للاجذاب هي تمحاضيت ولكن في الصيف يكون الماء والعشب اقل في الهضاب الغربية منه في اودية القمم العليا .

ويكسو الثلج القنن التي يزيد علوها على الفم متر طوال شهرين (من تمم دجنبر الى نهاية يبرابر) بحيث يستحيل المرور والجولان في تلك النواحي ويتعذر على قطعان الماشية الغذاء وبالاخص الشياه التي تتضرر ضررا فاحشا ويقسو فصل الشتاء احيانا فيودي بحياة الكثير من الغنم حتى يضطر الناس الى اللجوء الى النواحي القليلة الارتفاع التي تحاذي الاطلس الاوسط .

وتختلف حياة هذه القبائل الجبلية بل وحتى امكنة استقرارها باختلاف

احوال الطقس فينوردوين مثلا يضطرون الى النزول من اعالي الجبال الى سهول ملولو وهذه الحركة قديمة لان الناس يهجرون النواحي القاحلة في الجنوب للشرق في النواحي المعطوبة التي تكثر فيها الرطوبة بالشمال الغربي .

فنحن نجد مثلا قبائل زيان ترتاد الجبال في الصيف انتجاعا للمرعى كما تنزل الى السهول في فصل الشتاء للزراعة الشتوية وتصعد في الصيف الى الجبال لفلح الذرة التي تحتاج الى الري وهكذا ترتحل قبائل وادي العبيد بماشيتها الى قمم الجبال واهم المدن في هذه النواحي خنيفرة . . . ويلاحظ ان البراكين قد لعبت دورا مهما حيث احوالت اودية الى سهول داخلية يجمع ترابها بين الحرارة والخصب وسهولة الري ويطفح بالزروع وبالاخص منها الذرة من ذلك صعيد وادي بهت وصعيد سبو وصعيد ام الربيع .

ولا اثر في هذه النواحي للتوابل التي تكثر خاصة بسهول المحيط الاطلسي والغالب على الناس ان لهم دارا بالقرب من حقولهم الزراعية وعدة خيام ينتقلون بها مع قطعاتهم الى حيث يطيب لهم المقام وحتى ذلك النوع الغالب من الدور متنوع حسب الجهات فهناك بعض « المداشر » تشبه دورها ما نجده في الاطلس الكبير (طبقة فوق القسم الارضى وسطح ودهليز مكشوف ودور متلاحقة متدرجة) ولكن ما اكثر الدور الواسعة الوطنية التي يوجد في سطحها التبسطة تقب هو عبارة عن مدخنة وتقلب القصور بالاخص في تاماغت ومرموشة وهي كناية عن دور محصنة انتقل استعمالها من الصحراء الى الملوية ولكن يوجد نوع من الدور ينفرده الاطلس الاوسط وهو البناء المحصن الشامل الذي ينفذ اليه من باب واحدة تفتح وسط ساحة داخلية اشبه بالنوع المسمى بتغرمت ولكنه وطىء بالنسبة اليه عارية اركانه الاربعة عن الابراج مسقف بالخشب الذي يغطي جدرانها المتجهة صوب ناحية المطر .

وقلما يسكن الناس في اوربا الجبال لانهم يفضلون السهول والبساتين حيث الخصب والثراء ورقة المناخ وسهولة المسالك بخلاف ما في المغرب مع استثناء المناطق العليا البالغة 10800 متر في الشمال و20400 متر في الجنوب فالواطن البشرية في هذه المنطقة قليلة رغم عدم وجود ثلوج دائمة غير ان الشتاء قارس البرد قاسي الثلوج والصيف جاف خانق ومع ذلك فهذه الجبال تلعب دورا مهما في حياة القبائل لان في سفوحها تتجمع المياه التي يتمخض عنها الثلج المذائب .

ولا توجد في الجبال مساحات تتيسر جوانبها للزراعة الكافية فقبائل الريف والاطلس تشتري قسطا من الحبوب التي تستهلكها من قبائل سينو والبطاح المجاورة ولكن الزراعات التي تحتاج الى الري كالذرة والفواكه تجدها في متوسط القمم ما يساعدها على التفتق والازدهار وفي العروض الشاهقة مسارح ومراع للقطعان وبذلك تمتاز الجبال بالزروع والاشجار والسوائم علاوة على توافر الغابات وانعدام الرطوبة .

وقد شاهد الانسان الذي عاش في اوائل العصر الجيولوجي الرابع ثلوجا مستديمة ونفثات بركانية قوية في قمم الاطلس المغربي وكانت الامطار اذ ذلك تنهمر بعنف فتطفح بمياهها وديان اضخم مسيلا من وديان اليوم والاوودية التي جفت جنباتها اليوم كانت مسريا لانهار كبرى لم تكن تستطيع الانصباب في البحر ويدل دروس هذه الوديان على ان ارض المغرب لحقها جفاف تدريجي .

وقد انتشرت في المغرب الشرقي وكذلك في اسبانيا والجزائر صناعة من ابرز مميزاتها دقة الآلات وصغر حجمها .

ولم يعرف المغرب على ما يلوح عصور النحاس والبرونز والحديد لان هذه المعادن دخلت اليه بواسطة مبادلات تجارية لا بواسطة غزوات استعمارية وكانت اسبانيا في عصور ما قبل التاريخ ميدانا انتقاليا بين افريقيا وفرنسا من حيث الطبيعة والمناخ وكان مضيق جبل طارق مفتوحا منذ اوائل العصر الجيولوجي الرابع حيث كانت وسائل المواصلات بين اوربا وافريقيا بدائية بسيطة وبذلك يكون المغرب قد لعب دورا هاما اذ ذلك في تنقل الشعوب والحضارات .

وقد خلف لنا هذا العصر اثارا تعرف في الاوساط الافريقية بالحجارات المكتوبة وهي كثيرة على الخصوص في الاطلس الصحراوي بين شلف وبشار .

ومعلوم ان في العصر الحجري ظهرت البوادر الفنية الاولى حيث بدأ الانسان ينقش على الحجر بل يصور على جدران المغاور والكهوف حيوانات باسلوب جرى ترتسم بعض ملامحه في طرائق رجال الفن الحديث وقد ترك العصر الجيولوجي الرابع في كثير من اقطار العالم دمي بدية شهد كثير من العلماء انها نماذج صنعها اصحابها خدمة للفن .

واول ما استعمل الانسان النحاس والبرونز في الشرق ومنه انتقل

الفلسفة وقد استشهد على كروية الارض بانتشار المواقع التي يوجد بها الثقل لان هذا النوع من الحيوان لا يوجد الا بطرفى المعمور وهما الهند واعلمة هرقلي (اى مضيق جبل طارق) .

وليس بغريب وجود هذه الانواع من الحيوانات بالمغرب لان افريقيا معروفة منذ فجر التاريخ بانها مهد الفيلة والضباع والضباع والنعام . وقد اشتهرت السلالة البشرية فى افريقيا بالمتانة والمناعة فى الصحة والهيكل الجسمانى الذى لم يكن يقهره على حد تعبير المؤرخ ساليو الا ثلاثة اشياء : الهرم والحرب والحيوانات الضارية . ومن افريقيا كان الرومانيون يجلبون الحيوانات لاستخدامها فى المسارح وقد انحصرت صادرات نوميدنيا (اى الجزائر وما جاورها شمالا) فى الضوايز والمرمر وكان المغرب اخصب عرين لهذه الحيوانات التى لم يظهر من بينها الجمل الا اواخر الحكم الرومانى .

وكان المغرب فى تاريخه القديم يعج بالحيوانات المفترسة فكان سكانه يضطرون الى مطاردة هذه الحيوانات لابعادها عن مراكز استيطانهم ثم صارتوا يضطادون هذه الوحوش اما لاستئصال شافتها واما لاستخدامها فى الالغاب وحتى فى الوقت الذى عرف المغاربة الفلاحة لم ينقطعوا عن تربية البهائم من بقر وغنم وافراس وما عزر فكان البعض يسكن منازل قارة والبعض الاخر ينتقل فى الصيف الى الجبال حيث يكثر العشب ويتوافر الكلاء ، ثم ينزل فى الشتاء الى السهول فرارا من تلوج القمم ولم تتطور الفلاحة فى الحقيقة الا فى عهد الزعيم البربرى الاكبر ماسينيسا فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وقد احتفظت القبائل البدوية بملكية الاراضى على شكل ملكية الجماعة اليوم وكانت بين السكان اشتراكية فلاحية اى ان الجماعة كانت توزع غلل العمل المشترك على الجميع او توزع الاراضى نفسها على العائلات وفى هذه العصور عرف المغاربة الملكية الفردية .

اما شكلية المسكن فان الكهوف والمغاور التى هى عبارة عن غرف منحوتة فى الصخور لم تكن تصلح للرحل الكثيرى التنقل بقطعانهم لذلك كانوا يأتون الى مساكن متحركة ينقلون اطرافها معهم على ظهر عربات تجرها البهائم ايضا كان القارون يسكنون (النويل) او الاكواخ المبنية من الطوب .

تم صلد الناس يقيمون ها يعرف (بالقصور) وهى معقل تستخدم حمايتها لرجال

مسلحين او ابراجا تبني على اطراف الجبال بمستودعات الذخيرة ومطامير القموح .

ومنذ عصر ما قبل التاريخ تجمع الافارقة في « مداشر » قوامها نوايل واكواخ مبنية في اماكن توفرت فيها بعض شروط الراحة بفضل نشاط العاملين اما المدن فلم يشرع في اقامتها الا في عهد الفنيقيين .

وكان المغاربة معروفين بمناعة البنية وقوة الجسم وطول التعمير لانهم كانوا نباتيين فكان الفلاح ياكل الكسكس والرعاة يكتفون بالالبان عن اللحوم ولم يكن الجميع يشربون سوى الماء القراح على أن طرائد الصيد والحلزون والعسل كانت من المأكولات المبتذلة عند البعض .

وكانت ثيابهم في الاول مخيطات تستر العورة ثم جلود الحيوان الواقية من البرد ثم الجبة الصوفية ثم اكسية اشبه بالبرانس وكانت على رؤوس معظمهم اكاليل من الريش .

اما سلاحهم فكان اولا الحجارة في العهد الحجري - الذي امتد طويلا في افريقيا حيث لم يعرف الناس منذ الاول معادن الحديد والبرونز والنحاس - ثم الحراب فالقوس فالخناجر وكانت درقات الدفاع مصنوعة من جلد الفيلة للذي كان ماء المطر يفسده .

وكان رجل عصر ما قبل التاريخ يصنع آلات واسلحة وكان ينقش اولا بالاطراف ثم رؤوس الحجارة ثم اطراف العظام الحادة ثم اسنان اشبه باسنان المناشير وعلاوة على صنع انواع الجواهر كان يرسم على الحجارة صورا تمثل بعض مواقف حياته اليومية ولا تزال هذه الحجارة المكتوبة ماثلة للعيان الى اليوم وقد كان بعضها مكتوبا باللغة الحميرية .

وكانوا يتحلون - رجالا ونساء - بالاسورة والعقود ويتميز بالذكر باقراط الآذان والنساء بالخلاخل وكانت الالوان كلها خزفية والمرأة فنانة تتولى نقش هذه الالوان بنفسها كما تتولى نسج الزرابي والفن البربري يستمد من الاشكال الهندسية لا من صور الطبيعة فقلما يستعمل الاقواس والحنايا وانما هي خطوط وتعاريح هندسية ويرجع هذا الفن الهندسي لعهود غابرة ولعله يخفى في مظهره البسيط صورا شتى تتمثل فيها مراحل التطور وقد وصف اندري

جولييان اصحاب هذا الفن بالحيوية الدافقة لانهم صمدوا باصالتهم الفنية فى وجه التأثيرات الاسبانية .

اما الموتى فانهم كانوا يدفنون فى عصر ما قبل التاريخ فى مغاور طبيعية ثم صاروا يوضعون فى كهوف مربعة او مستطيلة تنحت فى حجارة الجبال وكانت هذه الكهوف اشبه بمساكن تحشر فيها جثث متعددة بعد ثنيها وكسر عظامها ولكن ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد صار بعض المغاربة يحذون على مايلوح حذو القرطاجنيين واليونانيين فى احراق موتاهم ومنذ القرن الثالث وعادة صبغ الموتى بالاصباغ المختلفة موجودة وكانت حليهم واثانهم تدفن معهم .

وتدل وفرة الاثاث والاسلحة فيما قبل التاريخ على ان المغاربة كانت لهم حياة اجتماعية منذ اعرق الاعصار ولم يكن نظام الانتساب الابوى يختلف عنه اليوم وكذلك عادة تعدد الزوجات اما ما اشاعه بعض المؤرخين من شيوعية المرأة بين كثير من الرجال فى بعض القبائل الشرقية فقد فنده اندرى جولييان فى تاريخه لافريقيا الشمالية .

وكان حق الاشراف على العائلة يتمتع به قيادوما لا الابن الاكبر خلافا لما كان عليه الامر فى كثير من اقطار اوربا وهذه العادة معروفة عند الوندال وكذلك فى نظام وراثه العرش البيلىكى فى تونس الى عهد الاستقلال .

وفوق نظام العائلة يوجد نظام « المدشر » الذى يقيمه الفلاحون القارون للتحصن ضد القوم الرحل وكانت هذه « المداشر » عبارة عن جمهوريات صغيرة لها مجلس اشبه بمجلس الجماعة اليوم فى الحياة العرفية ولم تكن القبيلة تختار لنفسها رئيسا الا عند ماتشبه حرب فاذا ما صادف هذا الرئيس التوفيق سعى فى تملك السلطة هو وبنوه وكانت هذه القبائل تنهار او تنقلص او تتسع حسب مصاير الحروب فكان القائد القومى يشرف بعض الاحيان على قبائل مختلفة .

وكانت اعراف وعادات وانظمة اشبه بهذه سائدة فى باقى شواطئ المتوسط غير ان كثيرا من شعوب المتوسط انفعلوا للتأثيرات الخارجية بينما ظل المغاربة على نظامهم القديم قرونا متطاولة فكان احتلال الاجانب للمغرب يمر غالبا دون ان يترك اثرا ادبيا فى نفوس القبائل المغربية وقد خلقت الحضارة القرطاجنية بعض التأثيرات ولكن الفتح الاسلامى هو الذى استطاع وحده بفضل عوامله الروحية سبر الاغوار وقلب جوهر الاوضاع وطبع عناصر هذا الشعب التى كانت متفرقة بطابع الوحدة الدينية واللغوية .

قصة الانسان الاول

منذ مئات آلاف السنين اشتدت الحرارة وغزر المطر فانتشرت المياه وكثفت الغابات وبحث الانسان عن مخبأ أمين في الاحراش فرارا من الوحوش وانتجاعا للثمار ثم مرت الانسانية بأربع مراحل اعتدل الجو في اولها فخف المطر وجفت الاراضي وتضائل النبات فلجأ الانسان الى الشواطئ بحثا عن الصيد وبعد آلاف من السنين انخفضت الحرارة تدريجيا واشتد البرد في اقطار الشمال وتراكمت الثلوج في الشتاء فاستحالت الى امطار وسيول في الصيف وعاش الانسان في الكهوف حيث فتقت الحاجة والفراغ حاسته الفنية فنقش ورسم على الصخور وقد بدأ يربي الحيوانات ويعيش برعيتها وحصد ثمار النباتات البرية عند ما لطف الجو جنوبي الاقطار الشمالية الشديدة البرودة حيث قلت الامطار وتقلصت الغابات وغطت الارض الاعشاب والحشائش غير ان الجو ما لبث ان تغير من جديد بعد عصور طويلة فعم الدف، اقاليم الشمال وجف الطقس في الجنوب كما اشتدت الحرارة واندرست الحشائش وامتدت الصحراء القاحلة فاتجه الناس الى الانهار يزرعون وفي غضون هذه الفترات انتقل الانسان من صيد الحيوانات والاسماك والطيور باسلحة مبتكرة واكل لحومها نيئة الى استخدام النار في انضاجها ثم ربي النواجن فاستفاد من بياضها وتساوق ذلك مع حياته في اودية الانهار حيث تعلم الزراعة وطور ادواتها وكشف اساليب الري فتوافرت لديه المحاصيل وصار يفكر في ادخار الفائض لضمان العيش طوال العام ثم تفنن في الطهي وصنع الاوعية الخزفية ثم المعدنية كما تطورت اسلحته من الخشب الى العظام والصدف ثم الاحجار ومنها الصيوان واستعمل المصائد المختلفة (الشبكة - الانشودة - الخطاف) .

وقد زرع الانسان الموز لأول مرة منذ سبعة آلاف سنة وكان القمح اول ما عرف من حبوب ثم تلاه الشعير فالعدس والكتان والبصل والبطاطس والبطاطة والارز وكان وادي النيل اسبق الى هذه الكشوف من دجلة والفرات

كما كان نساؤه اول من استعمل الياق النبات (كالموز والنخيل والتوت والارز والكتان والخيش « الجوت ») في صناعة النسيج للاستعاضة عن فرو الحيوان ثم غزل الصوف والوبر فالقطن (المسمى شجر العموف) بعد مدة طويلة اما الحرير فان الصين كانت في طليعة الشعوب التي استخرجته من دودة القز واحتفظت بسرّه زمنا طويلا الى ان اذاعه جيرانهم الكوريون في أنحاء العالم .

اما النار التي استعاد منها الانسان للطهي والتدفئة والصيد فقد استعملت منذ اربعين ألف سنة وتمكن المصريون بفضلها من الكشف عن النحاس والازميل والثقاب النحاسي اللذين كان لهما اكبر الآثار في تقدم التصنيع بالاضافة الى المنشار ثم تمكن الانسان من مزج النحاس والقصدير فصنع البرونز غير ان الحديد لم يستخرج من باطن الارض الا منذ اربعة آلاف سنة بينما عرف الانسان الحديد قبل ذلك عند ما كان ينزل خلال الصواعق في شكل شهب نارية .

وقد استعمل الانسان الاكياس الجلدية والسلال لحمل الاثقال ثم العصى لتحمل على الاكتاف وتوضع عليها الاثقال ثم ابتكر النعال وبعد اشتداد البرد صنع احذية الثلج وصار يجر اثقاله فوق الجليد على جلود الحيوانات ثم على زحافات ثم على ظهر الحيوانات ومصر اول من استعمل المرافعة لحمل الاثقال كما ان سكان الراقدين كانوا اول من استعمل العجل من قرصين متساويين مقطوعين من جذع شجرة وموصولين بصخور وبذلك انتشرت العربة ورسفت الطرق وكثرت الهجرة .

وقد استعمل الانسان جلوع النخل للانتقال على الماء ثم صنع اطوافا من جلوع الاشجار وانصان الشجر وجلود الحيوانات المملوءة بالهواء وصنعت مصر اطوافا من الياق البرد من استعمله قوارب في النيل ثم زوارق مخفوفة بالنار من جلوع الشجر المستطيلة تسير بالمجاديف ومنذ 6000 عام بنى الصانع المصري قوارب كبيرة بلغ طولها 25 مترا وطلاها بالقار حتى لا يتسرب اليها الماء وبعد ألف عام صنعت مصر سفنا من ارز الشام بصواربها واشترعتها فامتدت الملاحة الى البحر المتوسط والاحمر وحملت هذه السفن التجارية قمح وشعير مصر لمقايضته مع مصنوعات البلاد المتوسطية كالوانى الفخارية والالات النحاسية ثم استعمل المصريون السفن البحرية لنقل الافراس

والسهام . وقد ظهرت صناعة السفن في بلاد الرافدين بعد ظهورها في مصر
بخمسة قرون ثم انتقلت بعد الف عام الى اقطار المتوسط .

ومنذ سبعة الاف سنة رسمت قبائل النيل علامات على الاواني وبدأت
تستعمل الارقام الحسابية في صورة خطوط تمثل الاصابع وبعد خمسة عشر
قرنا استبدلت النقوش بصور هيروغليفية كتبت على ورق البردى والعظم والعاج
ثم تحولت هذه الصور الى حروف هجائية اقتبسها التجار الفينيقيون بعد خمسة
وعشرين قرنا . ومن فينيقيا انتشرت في اقطار البحر المتوسط وقد اخترع
الصينيون الورق بعد الميلاد بنيف ومائة عام ثم ادخله العرب في عصر المعتصم
العباسي الى سامرا ثم الشام ومصر ثم اوربا في القرن الرابع عشر الميلادي .



السلالة البربرية والمغرب العربي

اتفق النسابون على ان القبائل البربرية ترجع الى ارومتين مهمتين وهما برنس ومادغيس (الملقب بالابتر) بحيث لا يوجد من بين البرابرة من يخرج عن هذين الاصلين فهم اما برانس كالمصامدة وصنهاجة وكتامة او بتر كنفوسة وضريسة وقد ذكر بعض المؤرخين ان البرانس من ولد مازيغ ابن كنعان ابن حام والابتر من ذرية بر بن قيس بن عيلان بن مضر من ذرية سام .

وحكى ابن ابي زرع والبكري ان بر المذكور وامه يريغ بنت مجدول البربري وان قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب في المساكن والاسواق والمراعى وتشاركهم في المياه والمسارح وتصاهرهم فازداد العنصران بذلك امتزاجا وتداخلا منذ أقدم العصور فالابتر عرب مضيون والبرانس أغلبيتهم من عرب اليمن . وقد انتقد ابن حزم كون صنهاجة وكتامة من حمير وتبعه في نظرياته صاحبنا نشر المثاني والبدور الضاوية ولكن جمهور المؤرخين والنسابين صرحوا بنسبتهم الى عرب اليمن كالمسعودي والجرجاني والطبري وابن الكلبي وانسبيلي واعترف ابن خلدون بان هذا هو المشهور عند نسابة العرب .

وقد نص كثير ممن درس تاريخ البربر انهم قدموا من آسيا فمروا بمصر ثم بليبيا ودخلوا الى المغرب حيث وجدهم فجزر التاريخ فكانوا بذلك اول من استوطن هذه الديار بعد العصر الحجري .

والمغرب فى عرف المؤرخين هو مجموع الاقطار الافريقية الممتدة غربى
هصر بما فيها برقة وطرابلس ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول لانه يستند
الى حقائق انسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار
الجغرافى ، كما لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والتراب .

ان جزيرة العرب محاطة بالبحر فى اهم جهاتها (شمالا وغربا وشرقا)
وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها فى الفيافى الافريقية نظرا للمقومات
الجوهرية التى يرتكز عليها المجموع .

نعم ان هذه الصحراء التى هى اعظم صحراء فى العالم كانت فى الماضى
اكثر عمراننا منها اليوم كما كانت مسرحا لتطورات عميقة تجعلها من صميم
المغرب العربى .

ولقد اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التى كان المغرب
يسترجع بها وحدته السياسية فى ظرف سنوات معدودة بحيث تمتد المملكة
بمجرد انبثاقها فى مركز من المراكز الى اقصى التخوم مثال ذلك ان بعض امراء
نوميديا (الجزائر الحالية) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة الى راشكون
(تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القيروان الى فاس وابن تاشفين من
الصحراء الى قلب الجزائر وعبد المومن الى طرابلس وابى الحسن المريني الى
حدود برقة . (I)

الا ان معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة
ذاعمين ان من خواص المغرب وكذلك الشرق انعدام نقطة مركزية تلتف حولها
الامة على نسق ما جرى مثلا فى اوربا حيث انبثقت لواء مركزية كدولة بروسيا
وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة ثم ترعرعت تدريجيا الى ان تكونت
منها الدول الالمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية ، ولعلنا فى غير حاجة
الى التذليل على ان عناصر الوحدة التى تتوفر جوهريا فى المغرب العربى وتكاد
تندم لاحتها بين الشعوب الاوربية هى القوام الحقيقى لتلك الظاهرة التى لم
تتحقق قط لفاتح اجنبى غير العرب .

ويقول اولئك المؤرخون ايضا بان الفكر الشرقى ومنه الفكر المبرى
يتصور ان تاريخ الشعوب يتسلسل خارج الاطار الجغرافى بمعنى ان الوطنية

(I) المستند لابى مرزوق - هسبريس ج 5 عام 1925 .

العربية او البربرية لا تركز في نظره على التراب ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاليتها الخاصة وان الجهاز القبلي الذي هو نواة الدولة يفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الاقليمي لانه جهاز جنسي قبل كل شيء ، ولعل هذا الوهم المستتب في اذهان بعض الاوربيين راجع الى عدة عوامل منها ان الاسلام في عهده الاول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة لانه كان يهدف الى نشر فكرة لاتحدها تخوم مصطنعة ومعناها كذلك ان جوهر القبيلة سلالي ككل قبائل العالم ولكن الشيء الذي اغفله هؤلاء المؤرخون هو ان في المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل اخرى واعطت بذلك الاسبقية للاطار الجغرافي وقد يكون الوازع في هذه الحال اما امكانيات اقتصادية اوفر واما عواطف خاصة من نوع الحنين الى مسقط الرأس ومرتع الصبا . وعلى كل فان نظرية الغربيين في هذا الموضوع تنطوي على شيء غير قليل من الافتعال .

وقد شعر سوردون في كتابه «مؤسسات واعراف البربر في المغرب» (ص 348) بما في ذلك من التناقض فصار يتلعثم في الدفاع عن هذه الفكرة التي روجها اول الامر بعض المستشرقين والتي تريد ان توفق بين تعلق البربر بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن .

على انه يمكن ان نرى في هذه الهجرة نفسها دليلا جديدا على ان العقلية البربرية لا تفرق بين اجزاء هذا الوطن الاكبر الذي هو مجموع المغرب وانه متى اعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش في ناحية انتقلت الى اخرى ضمن الاطار الجغرافي العام بل هنالك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل الى الانتقال الى اجزاء اخرى وكيف لا وهي تشعر هنا وهناك بنفس المناخ ونفس الطبيعة ونفس الذهنية والعواطف على ان البحث عن الحيز الحيوي ولو بالانفصال عن المقر الاصلي غير مستبعد حتى في اوربا التي هاجر رجالها الى امريكا حيث كونوا لانفسهم موطننا جديدا وفي ذلك ما يحدهو الاوربيين حسب م . كوتبي الى تغيير نظرهم في ضرورة القوام الترابي للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص 93) .

ومع ذلك فان هذه الظاهرة او تلك لم تكن حادية لنفى الاطار الجغرافي كبوتقة لانصهار مقومات الوطن لاسيما وان بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لايتطلبون في تكوين الامة صوي وحدة التاريخ والعواطف .

فلنستعرض الآن قبائل زناتة والدور الذي قامت به العوائل السلالية
في تكوين المغرب العربي .

فقد قرأ ابن خلدون - واقره على ذلك مؤرخون غربيون أمثال كوتيسى
وكزيل - ان زناتة الذين خصص لهم سفرا خاصا في تاريخه منتشرين في المغرب
من غدامس الى سوس الاقصى بل يكونون معظم سكان « مداشر » الصحراء وانت
تجدهم اليوم في كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك في مزاب وورغلة
وقد لاحظ ابن خلدون وجود زناتة كذلك في ناحية طرابلس ووسط سهول
افريقية وجبال الاوراس بالجزائر وما زال الى الآن في جبل نفوسة انطرابلسية
« بزبرة لهم هنلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية » ويشعرون الى الآن
بقربانهم مع المزابيين » (كوتيسى ص 195) ويؤكد ابن خلدون ايضا ان معظم
الزناتيين يقطنون المغرب الاوسط (اى الجزائر) وينصب الوادى الزناتى الى
اليوم شمال الاوراس في حدود سهول قسنطينة والتل وقد تغلغت اللغة العربية
في المواطن الزناتية واعترف بذلك بعض المستعربين المعاصرين .

ومن زناتة كذلك بنويفرن الذين اسسوا ممالك في اغمات وشالة وتادلة
حيث ظلوا قابضين على زمام الحكم الى عهد المرابطين في حين اقام بنو عمهم
المغراويون ممالك في فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى في طرابلس .

واذا تتبعنا مواطن زناتة وجدناهم استوطنوا في المغرب الاقصى حيث
تسربوا من وجدة وفاس وممرتازة الى سهول المحيط الاطلسى المتسمة كلها
بالطابع العربى .

وهكذا نرى ان زناتة التى انتشرت في مجموع افريقيا الشمالية تمثل
احدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب .

ولا يخفى ان نصف البربر البتر من نفوسة ولواتة اى من اصل طرابلسى
ولواتة بالخصوص قبيلة اصلها من برقة يقال انها من ارومة قبطية « وقد لعبت
دورا هاما في بداية تاريخ المغرب العربى » كما يقول كوتيسى وقد غمر الدواتيون
الواردون من الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضوا قويا للدولة الحفصية
في تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة واحواز تلمسان
وفي عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيلالت مطغريين
وانبث المطغريون كذلك في واحات النخيل بين توات وفجيج وقد اكاد كوتيسى

ان فجيح هذه كانت فى القرن الرابع عشر الميلادى هى البقعة الوحيدة التى احتفظت فيها عائلة مطغرية بالسلطة السياسية (206) .

وينتسب المطغريون لبني فاتن الذين توجد لهم فروع اخرى فى افريقية وباقى نواحي المغرب لاسيما اقاليم المغرب الاوسط المحاذية للصحراء وهم الذين اسسوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعد سقوط هذه المملكة الى جنوب القطر التونسى حيث اسسوا جزيرة جربة ومن بين هذه الفروع قبائل مغيلة التى تقطن بالمغرب الاوسط من مصب شليف الى مدينة مزونة والمغرب الاقصى بين فاس وصفرو ومكناس وكذلك مديونة فى مقاطعة تلمسان وممر تازة شمالى فاس ومن اهم قبائل بني فاتن كومية التى انتقل قسط منها مع عبد المومن الكومى الى المغرب وفى هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقد اكد اللغوى الخبير ويليام مارسى ان لهجة ندرومة عربية قديمة ربما دخلت اليها فى العهد الموحدى .

وتقطن فى نفس المقاطعات مكناسة التى اسست كرسيف ورباط تازة واقامت مملكتين احدهما فى التنول (ناحية تازة) والاخرى فى سجلماسة ودائرتها ويتجلى من هذا العرض ان البتر او زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجاد والوهاد من طرابلس الى تازة واصلين بحبل وثيق اقطار المغرب وصحراءه .

ذلك هو بعض الدور الذى قام به البتر فماذا كان دور البرانس ؟

ان قبائل البرانس التى اتسمت باهمية كبرى فى توجيه تاريخ المغرب العربى هى كتامة وصنهاجة ومصمودة .

فموقع كتامة الجغرافى هو الاطار الذى تركزت فيه الدولة الفاطمية والذى كان تابعا لبني الاغلب امراء افريقية وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم وبعد انهزام ابى يزيد « ابوحمارة » الذى كاد يضعضع اركان الدولة الفاطمية الفتية رجع المنصور الفاطمى الى القيروان حيث اسس المنصورية فى ارباضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة فى كل ذلك دورا اساسيا حيث كانت السند الاقوى للفاطميين ومنذ ذلك العهد صار الحكم فى المغرب العربى الى البربر المسلمين طوال عدة قرون .

والمقاطعة القبائلية فى الجزائر هى الموقع الاصلى لقبيلة كتامة التى مازال سكان شرقيها يتكلمون لهجة عربية ومعلوم ان اللغة العربية دخلت مبكرا الى

تونس وسهول عنابة حيث خلفت مباشرة اللغة البونيقية التي يجمعها معها مصدر واحد في حين انها لم تدخل الجزائر - في نظر ابن خلدون - الا في القرن الثامن وربما كان لكتامة اثر في تعريف الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الاوسط وهذا الدور الذي قامت به كتامة في تاريخ المغرب العربي بل وفي تاريخ الشرق الاسلامي لم يمتد اكثر من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل في الاعماق حيث ادى الى تأسيس الخلافة الفاطمية . وانتقال الكتاميين انفسهم الى الكنانة اما صنهاجة فانها قبيلة ترعرت وامتدت فروعها في اقاليم شاسعة من المغرب العربي وهي تقطن ناحية «القبائل» من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنها الزوج في بلاد السنغال) وشرقي الاطلس بين مر تازة والصحراء وهم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة الا مقرونة بكتامة وينتسب كلاهما الى حمير - على ما يقال - واذا كان اسم صنهاجة قد اندثر في « قبائل الجزائر فان البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية الا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بلنيدة والمدينة (كوتبي ص 335) .

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الاوسط وافريقيا ليسوا من القبائل الرحالة مثل بنى عميم المرابطين وقد خلف الفاطميين في المغرب امير صنهاجي هو بلقين بن زيري بن مناد الذي اسس مدينة اشير عام 324 ثم بعدها جزائر بنى مزغانة ومليانة والمدينة وقد اسس حماد بن بلقين (عام 397 هـ) القلعة المعروفة بقلعة بنى حماد وهي العاصمة الثانية لبنى زيري الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة ارباع قرن الى بجاية وهي العاصمة الثالثة والاخيرة لصنهاجة وقد اكد كوتبي ان المملكة الصنهاجية خضعت لتاثيرات الشرق حيث ابرز بيلبي في حفريات الطابع الشرقي الذي تتسم به الهندسة المعمارية (الطابع العراقي في اروقة قلعة بنى حماد والطابع الفارسي في زخرفة الاواني) اما المصامدة فهم سكان الاطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحيدين ومنهم ايضا غمارة سكان الريف .

وقد اتضح الآن ان مجموع الجبال المغربية « والقبائل الجزائرية » كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة اوربا وهي قبيلة كسيلة الشهير التي كانت غربي الاوراس حسب «مسكاري» ويقطن عقبها اليوم في سهول وادي العبيد ووادي العرب ويظهر من كلام ابن خلدون انهم كانوا منتشرين في التل الوهراني وناحية تلمسان وحتى مر تازة ، وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بن نافع وانهمزام

كسيلة الى المغرب الاقصى حيث نزلوا مدينة ويلي المعروفة ايضا بقصر فرعون
وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الاقصى الجغرافية والتاريخية حيث ان
شكليات الاراضي نفسها اقترنت رابطة طبيعية بين اقليم الاوراس والمالية الذين
كان امراء نوميديا (اى الجزائر) مثل سيفاكس وماسينيسا وجوكورطنا
متأرجحين بينهما .

ولكن اين الصحراء من كل هذا ؟ الى اية شعبة ينتسب البربر الذين
يتغلغلون في اعماق الصحراء المتاخمة للسودان ؟ انهم بربر اشهرهم التوارك
او الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من لمطة ولتونة الا ان علماء النسب
يرون في هؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتونيون الذين اسسوا
الدولة المرابطية وهم من قرابة صنهاجة الاطلس وصنهاجة الجزائر ، فهم اذن
برانس وهنالك فريق آخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوار
الذين جاءوا من برقة ولعبوا دورا هاما في تونس والاوراس الجزائرية فهم اذن
نشر من بنى عمومة البرانس .

هذا ولم اميز بين العرب والبربر وقد فعلت ذلك عن قصد لان عدا الميز
يكاد يكون غير موجود سواء اعتبرنا الارومة العربية للبربر تبعا لرأى كثير
من علماء النسب ام اعتبرنا الوحدة الطارئة اثر التوالد والامتزاج بين الجنسين
او مظاهر الوحدة الاجتماعية والفكرية وغير ذلك فقد اكد مؤلف عصور المغرب
الغامضة « (ص 221 - 225) » ان نتائج الفتح العربى بعد مرور اثني عشر قرنا
تبعث على الدهشة لان المغرب استعرب على نطاق واسع كما تغلغل الاسلام فى
احشائه وشمل مجموع اجزائه « وقلما احرزت الفتوحات فى تاريخ المعمور مثل
هذا النجاح . . . لقد شعر ابن خلدون ان امامه بالمغرب وحدة سلالية كبرى »
ثم قال كوتى (ص 254) « اننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين
الرحل البربر والعرب ذلك ان تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية اقوى
من اختلاف اللغات » وقد اكد رونان ان من دعائم الوطن الوحدة الروحية واهمها
وحدة الدين والعواطف فالمغرب الذى احتك نحو الف من السنين بالحضارة
القرطاجية اى البونيقية الشرقية قد احتفظ فى قرارة نفسه باحاسيس
واستعدادات فطرية نصف لاشعورية تشفع للاسلام « (ص 256) لهذا فقد اندرج
فى بحبوحة الاسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف وكل من يحس بالحاجة الملحة
الى لغة مكتوبة وإلى ادب . (ص 256) والظاهرة الجديدة التى تتجلى فى تاريخ اوربا

كلها هي أين للعربي الفاتح « عبر في طفرة واحدة مساحات المغرب ناهجا المسلك الطبيعي الدائم بين الهضاب وممر تازة ٠٠٠٠ وغير مضيق جبل طارق متجها لفتح الاندلس ساحيا مع القبائل البربرية (257) واغرب من هذا ان الاندلس التي هو من طينة سبيلية غير طينة العرب ولا البربر علق هو ايضا بالعروبة ومظاهرها « واهمل حتى الادب اللاتيني — حسب المؤرخ دوزي — اعمق الاهمال واحتقر يبلغ الاحتقار بينما احس بالادب العربي يلهب سويداه وشعر بمتعة لانهاية خالصة « كان الاندلسي مستعدا للتنازل عن الادب اللاتيني كله في مقابل نصف من الشعر العربي وهذا معيار لنفوذ العرب وسلاح قوي لكسب القلوب (259) وما ثورة الخوارج التي امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سبو ثم من قابس الى فيجيج الى سجلماسة سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز من دعاة العرب وتحت شعار الاسلام : لم يكن في هذه اي مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون من وجود روح انفصالية بين العرب والبربر او روح الثار من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما اضطبغت الثورة بتلك الروح ولا بذلك الشعار غير ان هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات في العالم ان تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلى فاشيع باسمها الدمار في افريقية ولكنها ادت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهي كما يقول كوتبي (ص 283) تركيز للسيطرة العربية « في مجموع المغرب من افريقية الى تاهرت الى تلمسان الى مراکش والعل من اهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى ادريس الذي اخترمه حتى الاغالبية التونسيون — على قول التويري — لقرابته من الرسول واذ كان من عادة امراء البربر الاستناد الى قبيلة مثل كسيلة مع اوردية والكهنة مع جراونة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع حصه ودة وكومية فان المولى ادريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها ابن خلدون زواغة وزناتة وسفراكة وغيثانة ونفزة ومكناسة وغملارة وجميع القبائل الاخرى التي كانت تستوطن المغرب مثل اوردية ومظفرة ومغيلة الجزائرية هذا علاوة على بنى يفرن ومغراوة التي مجموع الكتلة الزناتية من قاس الى الشليف الجزائري ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مئات من العرب اخترق بهم قامسة الى تادلة الى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبية الى نشر الاسلام وحضارته في صقلية وهذه هي المرة الاولى التي تظا فيها تقدم فاتح اجنبي تراب هذه الناحية من جنوب المغرب « لان الامبراطورية الرومانية لم تستطع قط المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة في المغرب الجنوبي (ص 289) »

ويحق للمؤرخ كوتبي القول بان تاريخ المغرب الاقصى يبتدىء من هذه الفترة التي انفتحت بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق وقد عاد المغرب الاقصى في عهد المرابطين - كما يقول الاستاذ «طيراس» (ج I ص 258) كما كان مغربا مزدهرا تحف به الظمانينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان كما ازدهرت في عهدهم وبفضلهم في الاندلس بحضارة الاسلام (ج I ص 259) وقد امكن لابن تاشفين بفضل الفكرة الاسلامية وعزيمته القوية ان يوحد جبال الاطلس (ج I ص 273) وان يؤسس مملكة مترامية الاطراف تمتد من قشتالة بالاندلس الى الجزائر (ج I ص 237) وعبد المؤمن هو الذي وحد المغرب الاسلامي للمرة الاولى في التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة الى طرابلس (ج I ص 324).

وهكذا قامت للمرة الاولى في التاريخ - حسب المؤرخ كزبل - دولة موحدة في مجموع المغرب العربي (سوردون - الكتاب المذكور ص 28) ولكن في هذا العهد (القرن الخامس الهجري) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية اذ ذاك هي اللغة الوحيدة المنظمة بالمغرب العربي بالمعنى العادي للفظ لغة اي جهاز كامل الاجزاء بمفرداته ونحوه وكتابته وادبه . بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشفوية خارج الخواضر (عضور المغرب الغامضة ص 376) غير ان العرب الجدد اشاعوا اللغة العربية في شكلها الدارج حيثما حلوا اي في البادية نفسها وبذلك تغلغلت العربية في تونس وحواشي الاوراس والهدنة وهضاب اقليم وهران وسهوله وتسربت من مر تازة الى سهول المحيط الاطلسي اي في مجموع البلاد التي تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا ان العامل اللغوي انضاف الى العامل الجنسي لترصيص الوحدة بين هذه الاقطار من المغرب العربي وقد امتد اشعاع اللغة البونيقية التي كانت قريبة من عامية افريقيا الشمالية حسب الحفريات التي عثر عليها في البرازيل مؤرخة بعام والاوراس (تاريخ المغرب - كواساك ص 31) مثال ذلك ما لوحظ في البونيقية من 25 ق م . من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية ثم الى بلاد الجزييد ان (ملك) لها نفس المعنى في اللغتين (سوردون - الكتاب المذكور ص 36) . على ان عرب معقل بلقوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم اذ ذاك على المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير من صحراء المغرب ومنها شنجيط على ان افواج بني هلال وبني سليم التي اخترقت الفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت لتتعدى

الرومانية في المغرب العربي فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربيين ومن بينهم سوردون (كتابه المذكور ص 41) « ان خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية تبخرت في المغرب في ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قرطاجنة على يد جنسيريك عام 439 م . الى ان فتح عقبة بن نافع مدينة طنجة عام 682 م . وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب اى تراث روماني غير الانقاض هذا في حين ان حضارة البونيك ظلت متصلة في المغرب العربي حيث امد نفوذها الى القرن الخامس اى طوال الاحتلال الروماني « محققة بذلك فترة انتقال سهلة الى الفتح العربي (سوردون ص 31) »

ولكن لماذا نجحت حضارة البونيك حيث اخفت مدينة الرومان ؟

يظهر ان وجود القرطاجنيين في المغرب يرجع الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد اسست قرطاجنة عام 813 قبل الميلاد ولكن مدينة اوتيكا التي اسست بالقرب منها عام 1101 ق . م . وكذلك المدينتان المعروفتان ب « هيبو وهما بنزرت ومعناية او مدينة ليبتيس ماكنة » اى طرابلس وتم هدم قرطاجنة عام 146 قبل المسيح بحيث يمكن القول بان النفوذ الفنيقي بالمغرب استمر عمليا الف عام وكانت قرطاجنة هذه تمثل في غربى البحر الابيض المتوسط الحضارة الشرقية التى هي لقدم حضارة فى العالم وقد فضل الفنيقيون الاستيطان فى السواحل واقاعة مدنهم على طولها حفظا لملاحظتهم التجارية ومن بين تلك المدن قرطاجنة التى صارت عاصمة المغرب والتى دمرها الرومان فى « الحرب البونيقية الثالثة » التى كانت معركة دمار تهدف لمنع الزعيم ماسينيسا من الاستيلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى تلك هى نظرية المؤرخ كزيل الذى اكد من جهة اخرى ان ماسينيسا هذا تمنى ان يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ما كانه الاسكندر المقدوني بالنسبة للحضارة الافريقية « لاسيما وان هذا الامتزاج والتداخل كانا قد قطعنا اشواطا فى المغرب لانهما تهيئا منذ قرون (كوتىي ص 102) »

ويرى كزيل ان قرطاجنة لم تبذل قط جهودا منظمة لادماج المغرب ولم تستعمر البلدية المغربية مثل روما وقد اسست نحو العشرين مدينة فى الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجنى بالدم البربرى فكانت لحة اولى بين الشرق العربى الممثل فى القرطاجنيين وبين المغرب المشيخص فى البرابرة

وكانت لغة البونيك « التي تقرب من ارامية اهل الشام » (I) اللغة الرسمية عند امراء نوميديا القوميين ولكن النفوذ البونيقي تجاوز نطاق الحدود التي كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية في تونس وشرقي الجزائر واكد سان - اوكستان (الذي ولد في منتصف القرن الرابع الميلادي) ان اللغة البونيقية كانت منتشرة في البادية في عهده واكد « بروكوب » انها كانت دارجة في القرن السادس والمسافة قصيرة بين هذا العهد والفتح الاسلامي لهذا يقول كزيبيل - ان في وسعنا ان نفرض ان البربر تبنا لغة الاسلام لانهم تعلموها بدون مشقة لمعرفةهم للبونيقية التي لا تختلف عنها كثيرا (تاريخ افريقيا الشمالية القديم ج 4 ص 497) وقد استند كزيبيل نفسه الى وثائق قديمة اشار اليها في كتابه واستنتج منها كوتسي (عصور المغرب الغامضة ص 165) تسلسل تاريخ المغرب تسلسلا عميقا « وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقي الى المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد اذ ذاك من صيدون (وهي صيدا الحالية) الى مصر وعند ما اكتسحها العبريون هاجر الفينيقيون من وطنهم الى بلاد الكنانة التي كانت في حدود بلادهم ومنها الى المغرب حيث انتشروا الى اساطين هرقل (مضيق جبل طارق) ولهذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب في انتساب كتامة وصنهاجة الى حمير ومعلوم ان الحميريين اقطاب الملاحة التجارية بين الهند وشرقي حوض المتوسط هم مثل الفنيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان من بين البربر - في نظر ابن خلدون - قبائل حميرية ومضرية وقبطية وكنعانية وقرشية تجمعت في الشام وبها غزا افريقس الحميري المغرب .

ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع ان القرطاجنيين مشاركة وان لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلنا « كما يقول كزيبيل » تحت الرماد طوال عهد الرومان والوندال والبيزنطيين الى ان جاء الاسلام فوجد في « قرطاجنة جرثومة مشرقية لم تندثر بل كانت مستعدة للفتح والازدهار واستمرار البونيقية في المغرب كانت له في نظر كزيبيل ذيول اخرى منها الديني (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد (الاصابع الخمسة) للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين .

(I) راجع بحثنا في مجلة « اللسان العربي » (ج 2 عام 1965) حول عروبة اللغة البونية *Langue punique* وشبهها بعامية افريقيا الشمالية .

ويستمر ليزيل في الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقي في المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر او تقصيره وارسال اللحى وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود في العبادة (مما كان يدهش الاغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو اعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذي يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتبي ص 125) .

والذي يؤكد ايضا من الوجة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر او وحدة الشرق والمغرب ان القطرين اللذين فتحهما المسلمون واستوطنوهما خارج افريقيا في غرب حوض البحر المتوسط هما الاندلس وصقلية وهما وحدثهما اللذان استوطنهما الفينيقيون والقرطاجنيون قبل « الاسلام » وعلى كل فان وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والاسلام قد اندرج في سجل التاريخ وان سكان قسطنطينية يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسبون على طريقة المشاركة منذ ما يقرب من ثلاثة الاف من السنين (كوتبي ص 130 - 132) .



الفصل الثالث

القرطاجيون بين أفريقيا وأوربا

بدأ العهد القرطاجني في أفريقيا الشمالية باقامة مراكز تجارية على السواحل منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد مثل ليكسوس (بالقرب من الغرائش) واوتيك على مقربة من قرطاجنة (I) كما أسس الفنيقيون عام 1101 ق.م. مدينة قادس (التي كانوا يراقبون منها تجارة الاندلس في مدخل الوادي الكبير حيث مركز مبادلات الفضة والقصدير) ثم حاضرتي هيبو في المكنين اللذين تقع فيهما الآن بنزرت وعناوة وكذلك مدينتي هندومييت (سومنة) ولبتيس ماكنسا (طرابلس).

غير ان الحضارة الكبرى التي طبعت حضارة المغرب خلال الف سنة هي قرطاجنة (قرية حداثى اى القرية الحديثة بالبونيقية) التي بنيت عام 884 قبل الميلاد وفي القرن السادس والى الاغريقيون فتوحاتهم غربى البحر الابيض المتوسط كما بسط الفرس نفوذهم على تير (صور الحالية بلبان) ومصر ولكن رد فعل قرطاجنة كان قويا حيث ركزت وجودها في افريقية بمحاربة صقلية وسردينية وكورسيكية وبهذا الانتصار تفتحت في وجهها مجالات الغرب واحتكار تجارة الاندلس غير ان الاستعمار اليوناني احتفظ في صقلية ببعض المراكز مثل سيراكوز التي اصبحت في القرن الخامس اعني مدينة

(I) درج المؤرخون على استعمال لفظ قرطاجنة وهم يقصدون Carthage

الافريقية وهناك قرطاجنة الاندلسية

في الامبراطورية الهيلينية وقد توقفت الفتوح البحرية الفينيقية عام 480 قبل الميلاد على اثر انهزام القرطاجنيين في صقلية وهناك اتجهت غارات قرطاجنة نحو افريقية فاثار تدخلها موجة من الثورات البربرية في غضون القرن الرابع وقد سقطت تير تحت ضربات الاسكندر المقدوني عام 332 فخشيت قرطاجنة اغارة اليونان على افريقية وحداها ذلك الى القبوع الدفاعي والكف عن بث القلاقل في صقلية لاسيما خلال الحروب الاهلية التي عقبها وفاة الامير الصقلي اغاطوكل عام 289 ق م وقد حاول هذا احتلال افريقية والقضاء على قرطاجنة فكان بذلك اول من فتح الطريق لغزو القارة لطرده الفينيقيين على ان هؤلاء عرفوا كيف يضغطون موقتا على رومة للاعتراف بنفوذهم في صقلية الا ان العلائق التي ظلت طيبة خلال قرون بين قرطاجنة ورومة ما فتئت ان توترت وقد سبق ان عقدت معاهدات بين الحاضرتين منذ القرن السادس تسمح احداها لرومة بالمبادلات التجارية مع صقلية القرطاجنية وميناء قرطاجنة كما تنص اخرى على تحظير تدخل هذه في ايطاليا وكذلك رومة في صقلية غير ان سوء نية الجانبين اسفرت عن احتكاكهما ونشوب سلسلة من الحروب سميت بالحروب البونيقية فقد تطلبت رومة بتحفظ القرطاجنيين لمهاجمة ايطالية فاثارت حربا وقائية لتبرير مطامعها الاقتصادية والعسكرية .

وكانت قرطاجنة اذ ذاك سيئة البचार كما كان الجيش الروماني متفوقا في البر وقد وفق الرومان في غزو صقلية عند سنة 261 ق م ولكنهم شعروا على اثر الحملة الاولى بضعفهم الملاحي فبادروا ببناء نواة اسطول ضم مائة وعشرين مركبا احرز اول نصر على القطع القرطاجنية رغم قوتها العتيدة ثم حاول الاعلاج عام 236 ق م النزول بافريقية باسطول جديد تعزز بثلاثمائة وثلاثين قطعة واربعمين الف بحار ولكن القرطاجنيين هالتوا - عقب هذه الصدمة الاولى - انه جسدوا نظام جيشهم وانزلوا ضربة قاسية بعلومهم مستخدمين الجنود الافريقية والفيلة وقد اعاد الرومان الكرة ولكن الزوابع عصفت بشمانين قطعة من 460 فاضطر ذلك رومة الى تركيز جهودها في صقلية وبذلك احتفظت قرطاجنة بسيادتها في البحار ومع ذلك لم تتوفر لدى الجنرالات البونيقين القوات الكافية لشن حملة مضادة في عقر مراكز الخصم الا ما كان من القائد هاملكار الذي اقض مضاجع الروما (274 ق م) من أعلى معاقلة المقاومة حول باليرم (العاصمة القديمة لصقلية) بعرقلة المواصلات بين الحاميات الرومانية وسير القوافل . وظل الطموح العسكري الروماني لازما بقدر ما كان القرطاجنيون لا يهتمون الا

بالجانب الاقتصادي في حركتهم التوسعية فلذلك عاد الرومان الى تقوية عتادهم الاسطولي فتمكنوا عام 241 ق م من مصادرة او اغراق سفن التموين القرطاجنية مما اضطر قرطاجنة التي اصبحت خالية الوفاض من المقومات المالية والجيوش الكافية الى التنازل فانسحبت من صقلية ومن الجزر الواقعة بين هذه وبين ايطاليا وادت الى رومة تعويضات عسكرية وبذلك خسر القرطاجنيون خمسمائة سفينة ونضبت مواردهم الجمركية وانضم عشرون الفا من المرتزقة العائدين من صقلية الى الافارقة المتورين من جراء التكاليف الجيائية الفادحة في خلاف احتدم ازيد من ثلاث سنوات في شكل صراع بين الطبقات وقد لعبت المرأة البربرية دورا مهما في هذه الانتفاضة عندما ضححت بحليها في سبيل قضية الحرية وقد انبثق ما طو من صفوف الاحرار الافارقة واعطى اشارة الثورة فانضوى تحت رايته سبعون الفا عبات قرطاجنة لسحقهم القائد هانون الذي لم يستطع مع ذلك الحيلولة دون احتلال الاحرار لمدينة قرطاجنة ولتونس ومحاصرة اوتيك وبنزرت واذا لم يكن الاحرار قد تمكنوا من السيطرة على العاصمة فما ذلك الاسباب التشاجر الذي استمر بين الافارقة آنذاك فعرقل حركة التحرير وقد استنجدت قرطاجنة بها ميلكار وعززته بالخيانة النوميديين الذين مكنوه من الضرب على يد المرتزقة غير ان هؤلاء قاموا برد فعل عنيف ذهب ضحيته النبلاء القرطاجنيون فلم يبق والحالة هذه بد من نشوب الحرب .

ولعبت رومة على الحبلين فبعد ما امدت الاحرار الافارقة طالبت قرطاجنة بالتنازل عن كورسيكا وسردينية واداء غرامة مهددة اياها بالتدخل (عام 241 ق م) ثم سمحت للبونيقيين بتعبئة المرتزقة في ايطالية وسهلت تموينهم حائلة في نفس الوقت دون انبثاق قوة الجانب الآخر من المرتزقة والاحرار الافارقة الذين استطاعت قرطاجنة سحقهم رغم استمرار صمود الاحرار ، فصلبت ما طو واستعادت كلامن اوتيك وبنزرت (عام 237 ق م) .

وقد خرجت قرطاجنة منهوكة القوى من هذه الحرب ولكنها سلمت اسبانيا ومعادنها الفضية الى هاميلكار الذي خلصها من المرتزقة بشغلهم في احتلال الاندلس وفتح شبكة تجارية جديدة بين شقى البحر المتوسط وقد ظهرت في هذه الفترة بالاقاليم الاسبانية حضارة وفن هما مزيج من العناصر اليونانية والبونيقية والاسبانية ، وتمكنت قرطاجنة من تكديس الفضة لسك كميات وافرة من النقود ولما مات هاميلكار خلفه صهره هاسدروبال الذي اسس حول مناجم

الفضة مركزا بحريا وتجاريا هو قرطاجنة الجديدة وقد اقلق ذلك رومة التي خشيت مقبة اتصال البونيقيين بالغوليين في الشمال .

وما لبث هاسد روبال ان اغتيل فاثار اغتياله موجة من الاستياء في قرطاجنة ولكن جيش اسبانيا لم يعبا بهذه الحملة فرفع الى كرسي القيادة الشاب حنبعل (نجل هاميلكار برفا) الذي لم يكن عمره يتجاوز ربع قرن والذي برهن عن خصال سامية كقائد يمتاز بالدراية في الادارة والتنسيق وقد عرف هذا كيف يوسع شبكة نفوذه في اسبانيا فاحتل عدة اقاليم واناخ الوضع الجديد بكلكل ثقيل على مصالح مرسيلية التجارية وسياسة رومة لاسيما وان تملك مناجم الفضة اقض مضاجع رجال المال الايطاليين وقد حاول الرومان الضغط على اعضاء مجلس الشيوخ البونيقى بحملهم على ابعاد القائد حنبعل ولكنهم رفضوا وتركوا رومة امام مسؤولياتها لاختيار الحرب (عام 219 ق م) .

الحرب البونيقية الثالثة

وكان حنبعل قد اولى على نفسه امام والده منذ كان له من العمر تسع سنونات الاقتصاد عن الروم فانفسح له المجال ولم تكن رومة تحسب لهذه العبقرية المتفتحة حسابها فاستنفر القائد جيوشه المؤلفة من 50.000 رجل وتسعة الاف فارس و 37 من الفيلة ووصل بعد خمسة اشهر الى سهول وادي « بو » شمالي ايطاليا بعد ان انخفضت قواته الى ستة وعشرين الفا و 21 فيلا وقد احرز حنبعل نصرا اوليا بانضمام بعض العناصر الغولية وغيرها الى جيشه فكان لذلك اثره السيء على سمعة الرومان ثم انتصر ثانيا بمحق ثلاثة ارباع الفيالق الرومانية فاتسعت شبكة الثورة الغولية ثم قضى حنبعل في معركة ثالثة على القائد فلامينيوس (ولم يكن قد بقى له حينذاك سوى فيل واحد) مع خمسة عشر الف جندي روماني واسر نفس العدد من الاخلاط الذين حرر من لم يكن منهم رومانيا وبذلك ظهر بمظهر البطل المحرر للايطاليين .

ثم استمر العراك فقتل حنبعل (عام 216 ق م) القنصل والخطيب المصقع بول ايميل مع خمسة واربعين الفا من الرومان واسر عشرين الفا وكانت قواته قد انخفضت الى نصفها مقابل ثمانين الفا من الروم ولم ير حنبعل من المناسب تطويق رومة لاملانه في تنازل مجلس الشيوخ الروماني غير ان هذه الملحة

انقلبت بعد سنة 213 ق م الى مغامرة فانهارت قوة الجنرال القرطاجنى وتمكن
الرومان فى ظرف عامين من طرد البونيقيين من صقلية الى الابد ثم من احتلال
الاندلس على يد القائد الرومانى سيبون وحرمان قرطاجنة من مواردها .
واضطر حنبعل (عام 207 ق م) الى القبول فى برسيوم بايطاليا الجنوبية
بعد وفاة اخيه هاسد روبال برقا الذى ذهب لانقاذه .

وبعد ما عاد سيبون الافريقى فى السنة المقبلة من الاندلس اقترح الهجوم
على افريقية فصادف تحمس الشعب ولكن مجلس الشيوخ لم يتقبل هذه الفكرة
فطفق يعمل بوسائله الخاصة على اعداد الحرب مستمدا موارده من صقلية وحاول
استمالة كل من سيفاكس امير نوميدية الغربية (بلاد مزاب الحالية) ومسينيسة
نجل ملك نوميدية الشرقية الذى قلص سيفاكس من نفوذه واحاله بعد ذلك
الى شاب حر الفكر متأهب للثورة على راس القبائل الافريقية ، غير ان فتاة
قرطاجنية زفت الى سيفاكس فكان لها الاثر القوى فى انضمام زوجها الى صف
قرطاجنة مما دفع ماسينيسة الى الانكماش فى سيرته الصغرى (خليج قابس
الحالى) وهكذا اصيب سيبون بصدمة مزدوجة ولكنه مالبث ان حظى تحت ضغط
الشعب الرومانى بتأييد الشيوخ الذين صادقوا (عام 204 ق م) على مشاريعه
فتزل بافريقية قرب اوتيك ولم يكن لقرطاجنة المحصنة وراء اسوارها جيش
عتيد يحميها من المغير وانما كانت تعتمد على تدخل امراء البربر واستطاعت
استمالة ماسينيسة باغداق الوعود غير ان الامير الشاب انضم للعدو واستطاع
سببيون القضاء على جيوش سيفاكس فقتل فيها اربعين الف جندي واسر خمسة
الاف (عام 203 ق م) وحاصر قرطاجنة بعد ان عسكر بتونس واعتقل ماسينيسة
القائد سيفاكس ودخل الى سيرته *Cirta* بنوميدية (قسطنطينية الحالية)
حيث نصب ملكا .

وفى هذه الفترة هادن سيبون القرطاجنيين للتفاوض من اجل السلام
ولكنه فسح الهدنة على اثر استلاء سكان قرطاجنة الجيع على سفن كانت محملة
بالمواد الغذائية وكان الشعب القرطاجنى يعتمد على حنبعل الذى استقدم من
ايطالية وقد عاد حنبعل ونزل بلبتيس مينور (لمطة) عام 203 ق م وفى ناحية
الكهف اصطدم القائد القرطاجنى بالجنرال الرومانى فرفض هذا الاخير عقد
الصلح بالشروط المقررة فيما قبل وهى تسليم اسبانيا والجزر الى رومة
واحتفاظ قرطاجنة بالسيطرة فى افريقية وتحطيم الاسطول البونيقى عدا عشرين

سفينة وقد تعزز سيبيون بجنود ما سينيصة فهزم حنبعل الذي فر الى هدروت تاركاً عشرين الف جندي صرعى في ميدان القتال ونفس العدد في قبضة الرومان وتلبية لطلب الهدنة من طرف القرطاجنيين قرر القائد المنتصر احتفاظ قرطاجنة بمنطقتها الافريقية دون ان يكون لها حق الانغمار في حرب دون اذن من رومة مع تسلم ماسينيصة مقاليد الحكم في الاقاليم النوميدية وكان على قرطاجنة بالاضافة الى ذلك العدول عن فيلتها واسطولها عدا عشرة مراكب (واداء غرامة وقد قبلت قرطاجنة هذه الشروط القاسية وشعر حنبعل بضرورة القضاء على الارستقراطية المالية التي تحملت قسطا وافرا من تبعات الانهزام وقد انزل حنبعل ضرباته الاولى بمجلس الشيوخ ثم انكب على تجديد النظام المالى والفلاحي في المدينة الى أن أدت حملات خصوم حنبعل من مواطنيه وتخوفات رومة الى نفيه وخرجت قرطاجنة منهارة بعد حرب دامت ازيد من ستين سنة تصادمت فيها حضارة الشرق البونيقية بحضارة الغرب الرومانية .

والحضارة الشرقية البونيقية هي التي تهم المغرب مباشرة لان قرطاجنة كانت عاصمة للمغرب الثلاثة بينما لم تؤثر الحضارة اللاتينية الا في بلورة سياسة رومة الافريقية .



الفصل الرابع

المضارة القرطاجنة

شكلت قرطاجنة حاضرة مهمة بلغ سكانها مآت الآلاف من النسمات وكانت تحف بها أسوار طولها أربعة وثلاثون كيلومتر في سمك يقدر بثلاثة عشر مترا وعرض يصل الى تسعة أمتار مع اقامة برج دفاعي كل ستين مترا تقريبا وقد انقسمت المدينة الى ثلاثة شوارع تكدست على جوانبها دور ومنازل ذات ست طبقات وذلك علاوة على الرقص الذي امتد الى مساحات واسعة أما الميناء الذي كان قلب الاقتصاد الناجح في هذه الحاضرة فقد احتوى على حوضين أحدهما تجارى يتصل بالبحر والآخر يربط فيه الاسطول الحربى - والوضع الخاص الذى امتاز به هذا المرفأ بين حوضى البحر المتوسط على مقربة من صقلية وبيروينية جعل منه مركزا ممتازا للتجارة الدولية فلهذا وجه القرطاجنيون كل جهودهم للخطوط الملاحية ضاربين صفحا عن مراقبة الطرق البرية لاسيما ما يؤدي منها الى الصحراء.

وكانت سياسة قرطاجنة تتسم بطابع اقتصادى يهدف الى البحث عن المنافذ التجارية وقد قام قائدان قرطاجنيان بجولتين حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قام باحدهما هيميلكون على طول السواحل الاوربية شمال قادس لدراسة أسواق القصدير أما هانون فقد اجتاز اساطين هرقل (مضيق جبل طارق) بستين سفينة وأسس مراكز عديدة منها سبعة على شاطئ المغرب الى مصب الساقية الحمراء والجزر الخالدات ثم الى خليج غينية بالقرب من خط الاستواء وقد كتب القائدان رحلتين توجيد ترجمة احدهما وهى رحلة هانون 0

وهكذا وطد القرطاجنيون سيادتهم الاقتصادية بإنشاء مراكزها في افريقية (طرابلس - مطة - سوسة اوتيك - بنزرت - عنابة سكيكدة - بجاية - شرشل - تنس) وعلى سواحل المحيط الاطلسي (ليكسوس علاوة على المراكز الاخرى مثل الصويرة واكادير) او في اسبانيا (قادس - مالقة) او سردينية وصقلية ومالطة وكانت مصالحتها التجارية تحدوها أحيانا الى الحيلولة دون تطور المرافئ الاخرى دعما لاحتكارها وقد اقتضت قرطاجنة على السواحل دون ان تتوغل داخل الاقاليم الافريقية ويظهر ان موارد الثورة القرطاجنية كانت مستمدة من المتاجرة في المواد الأولية واعادة توزيعها كالهولنديين فيما بعد .

ففي فزان وغدامس كانت تتجمع بضائع مختلفة مثل العبيد السود والذهب والعاج وجلود البهائم والبيض وريش النعام المستورد من افريقيا الوسطى وفي صقلية الزيوت والانبنة وفي سردينية الحبوب والفضة والنحاس وفي اسبانية الفضة وكذلك القصدير والعنبر المجلوبان من الاقطار الشمالية وذلك علاوة على الاحجار الثمينة التي كانت المورد الاساسي للشراء .

ولم يتأت لقرطاجنة مدة طويلة ان تحتاج الى نقود البرونز التي لم تسكها الا بعد منتصف القرن الرابع وكذلك نقود الفضة التي لم تعرف الا في القرن التالي على ان ضرب النقود كانت ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية لأن المقايضة أي المبادلات الطبيعية بين المواد والبضائع ظلت أساس التعامل ، ففي مقابل المواد الأولية كان القرطاجنيون يدفعون المواد المستوردة أو المنتجات الصناعية من أنسجة وخزف وعطور وزجاج وسلاح وخمور .

ويلاحظ ان الصناعة القرطاجنية لم تزدهر ازدهارا خاصا نعم اختص البونيقيون بصناعة السفن والآلات المرفئية كما استسوا معامل للحديد والنحاس والبرونز والمعادن والاسلحة والزجاج والادوات العاجية والحجارات الرقيقة والاحزاف المنقوشة ولكنهم امتازوا باعداد الاصباغ الارجوانية والنسيج وصناعة الجلود أما المصنوعات الرقيقة الرائجة فانها كانت تجلب من الخارج .

أما الفلاحة فانها كانت ضعيفة الإنتاج لانحصارها في اطار ضيق لم يكن يعدو بعض الاقاليم والارياض الساحلية غير ان صيتها ذاع نظرا لضخامة الزياتين والكروم والسواثم منذ أواخر القرن الرابع وينسب الرومان أنفسهم الى القرطاجنيين كشف الآلات الفلاحية ولذلك عمدوا الى ترجمة كتاب الفلاحة

التي صنفتها ماكون البونيقى فى ثمانية وعشرين مجلدا ووضع فيه القواعد الادارية لتسيير الضيع الفلاحية ويظهر ان الطبقة الارستقراطية من القرطجنيين كانت تملك حقولا شاسعة بل مقاطعات واسعة كالرومان فيما بعد والافارقة الملاكون الاصليون لهذه الاراضى كانوا يعملون خدمة وعبيدا وقد توفرت آنذاك غراسة اشجار الزيتون والتين واللوز والرمان والكرم وتربية المواشى والافراس التي بلغت وفرتها ما لم تصل اليه اقطار اخرى ، وكان الاهالى يزرعون الحبوب ويستعملون المحارث الحديدية .

والى جانب ذلك اهتم القرطجنيون بتربية الدواجن والفجل التي كانوا يستخلصون منها صمغا مشهورا بالجودة ويعصرون الزيوت ويصيّدون الاسماك ويصهرونها كما يقتنصون الصيد ومع ذلك لم تكن المحاصيل تزيد على الحاجة المحلية .

وهكذا نرى ان حكومة قرطاجنة كانت حكومة من رجال المال تحكم مصالح الدولة الاقتصادية فى السياسة . أما دستورها فقد شبهه ارسطو فى كتاب السياسة (حوالى 335 ق م) بدستور جمهورية سبارت *Spart* اى اليونان القديمة والمظنون ان الملكية كانت فى الاوائل هى النظام السياسى ثم عقبها نظام القضاة مثل ما وقع فى رومة حيث خلفت الملكية نظام القناصل فكان هنالك جايمان مديان ينتخبهما الشعب كل سنة ويساعدهما مجلس للشيوخ يتركب من نحو ثلاث مائة عضو يختارون مدى الحياة من بين الطبقة الارستقراطية التي توارثت النفوذ طوال قرنين كاملين أما الشيوخ العامة فقد كان يسيرها مجلس مكون من ثلاثين شيخا بينما كان القضاء موزعا بين مجالس مشكلة من خمسة اعضاء هي التي تتولى تعيين المحكمة العليا التي اسست منذ القرن الخامس من اربعة ومائة عضو للحيلولة دون المحاولات الاستبدادية وعندما تنتهى مامورية هؤلاء الاعضاء كانوا يتخلصون من اقتصاص خصومهم بالاندراج فى سلك القضاة الذين يتمتعون بنوع من الحصانة .

وتحت كل هؤلاء كانت تعيش الجماهير وفى طبيعتها عملة الموائى الذين استفادوا من صلاتهم الدولية ما نمت معارفهم واذكى حاستهم الاستطلاعية وشعورهم بالقوة فلهذا انبرى فعلة ميناء قرطاجنة المحرومون من حقوقهم السياسية لتعزير مطالبهم بالعنف والسعى للقضاء على القواد والجنرالات والارستقراطيين غير الاكفاء وقد تطور الدستور فى غضون الحروب البونيقية نحو

تعزيز أسس الديمقراطية حيث تخلص حنبعل من نفوذ النبلاء الصارخ فخفض مدة مأمورية القضاة الى سنة واحدة بدل استمرارها مدى الحياة ولكن هسدا الاصلاح الجزئي لم ينجح لان عناصر الانهيار كانت قد تسربت الى دو الهسب الحكم في قرطاجنة .

على ان الدولة التي كانت تخشى استبداد القواد قد انزلت ضرباتها بهم منذ القرن الرابع وحصنت الحاضرة كما ضمننت السيطرة على البحار باسطول قوى وكان لها في الاول جيش وطني شارك فيه الاثرياء البونيقيون في فيالق الخيالة ولكن هذا الجيش بدأ منذ القرن السادس ق . م . يستخدم المرتزقة من افارقة وغيرهم من شعوب جزر وسواحل المتوسط ثم صار في القرن الثالث يستمد مقوماته الأساسية في الرجال من افريقية وحدها حيث اسند قيادة ككاتب الفرسان الى الامراء النوميديين وعندما تخلت قرطاجنة عن فيلتها الحربية طاردتها الى جبل الاطلس وكانت تدر بها على يد هنود اقاموا اصطبلات ومسارح داخل المدينة وكان الفيل يقوم في المعترك مقام الدبابة ويشير الرعب في صفوف الروم غير ان هذا العناد الحى كثيرا ما كان يعود الكرة فيقلب ضد اسياده . وكانت لقرطاجنة موارد مختلفة منها دخل الجمارك والضرائب البلدية والجبايات الموظفة على الافارقة وقد در ذلك عليها أموالا باهظة لم تكن تنافسها في الضخامة الاحاصرة الاسكندرية في القرنين الثالث والثاني غير ان هذه الموارد ضعفت من جراء الازمات الناتجة عن الحروب مع رومة فاضطر القرطاجنيون الى انتزاع نصف محاصيل الفلاحين ومضاعفة الجبايات الحضرية فكان لذلك وقع سيئ و زاد الازمة توترا بين قرطاجنة والافارقة الاحرار .

والفينيقيون كنعانيون من أبناء عمومة البربر اخترعوا حروفا هجائية كما اخترع البرابرة نوعا من الحروف أيام كانت الكتابة لاتزال هير وغليفية وكانت لغة الكنعانيين عربية لايميزها عن الفصحى الاهلهة الاعراب وقد انحدر معظم البرابرة من الشام حيث كانت القبائل الرحل تنتجع الكلا في السفوح والهضاب الفينيقية فكانت تتصل بالفينيقيين الذين كانوا من جهتهم يتوغلون في سهول

الشمس وسواحلها من أجل التجارة وقد اختار فريق من الكنعانيين للأصليين التلاحة على التجارة فجمعتهم ببربر الشام المراعى والمياه والاسواق البدوية المشتركة .

وقد دخل الكنعانيون العرب الى المغرب دخولا رسمياً (لان اشتاتا منهم كانت قد دخلت قبل ذلك) عام 480 قبل الميلاد - فازداد امتزاجهم ببناء عمهم البربر وتكونت في افريقيا الشمالية اذ ذاك لغة تسمى باللغة البونيكية (*Punique*) هي عامية افريقية الشمالية وكانت هذه اللغة حسبما تشهد بذلك الواح اثرية سلمت من عوادي الزمان - قريبة من اللغة العربية الفصيحة . ويحدثنا المؤرخون ان اللغة البونيكية كانت لغة علمية دونت بها المعارف والفنون ولكن الاحتلال اللاتيني لسواحل المتوسط عفي على هذا التراث بعد احراق الرومان لعاصمة قرطاجنة ودرس معالم حضارتها فكان الطفيلان اللاتيني جناية فظيعة على الانسانية بوجه عام وعلى العروبة بوجه خاص

وقد صرح سلفن أوكوستان *Saint-Augustin* بان اللغة البونيقية ظلت متغلغلة في انحاء البادية المغربية الى عهد الوندال اى الى عهد الفتح العربى وذكر غيره ممن تصدى لبحث اثر الحضارة اللاتينية في المغرب ان لغة الرومان اندوست كلياً في البلاد لان الحضارة اللاتينية لم تجد في قلوب سكان المغرب فلشارقة موطناً قاوى اليه وسنرى كيف ان الاستعمار الرومانى لم يستطع ان يخلق لا في الشرق ولا في الغرب اثناء العهد الامبراطورى سوى هيكل ادارى سطحي بينما استطاع في الاقطار الاوربية التي استعمرها كبلاد الغول (فرنسا) وبلاد الاسبان ان يتغلغل في اعماق المجتمع ويؤثر في نفسية النخب والجماهير وتقضى لغته الرسمية - التي هي اللغة اللاتينية - على اللهجات المحلية طابعة اياها بميسم رومانى عميق وقد اعترف بهذه الحقيقة رجل طالما حاول التمدليل على ما يسميه (بخرية) المغاربة وهو كوتى صاحب « العصور الغامضة في تاريخ المغرب » *Siècle obscur du Maghreb* وكتاب « عوائد المسلمين واعرافهم *mœurs et coutumes des musulmans* وقد لاحظ كوتى « ماضى افريقيا الشمالية » - ص 148 - قلا عن كزبل ان القرطاجنيين كانوا يلبسون بالمغرب اللباس الشرقى اى القميص الطويل بدون حزام والطربوش وتحت راس حليق ولحية مستطيلة وعيونهم مكتحلة وشعرهم مخضب بالحناء وكانوا يختنون كالفنيقيين ويستعملون السجود في صلاتهم ويعرمون اكل

الخنزير . وقد أكد أيضا - صحيفة 157 - ان في قسم كبير من المغرب كسان
الناس يتكلمون لغة قريبة من العربية ويفطون رؤوسهم كما يفكرون ويشبهرون على
طريقة الشرقيين منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف من السنين . ومن المدن البونيقية
ليكسوس الواقعة على مسافة اربعة كم شمالي العرائش وعلى الضفة اليمنى لنهر
لوكوس وقد احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة
عند المؤرخين بالشمس أو تشمس التي يقال بان حدائق هيسبيريدس ذات
الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها في الجزر
الخالدات ويرى علماء الآثار ان هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية ثمينة وقد عثر
على البناء الفينيقي في الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني
على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر
الاسلام للعشور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة
على بقايا مسجد بمحرابه وقنائه اما النماذج الاثرية القديمة فهي اوان من الفخار
تطور صنعها فدهنت ايام الفنيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل متنوعة كما عثر
على بقايا دور بونيقية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالغرف الحالية
وارضها مبلطة بالفسيفساء المرمرى وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة احياء كل
حي بسوره الخاص تعتبر هي ومدينة شمالة المدينتين الوحيدتين الواقعتين
في مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الفنية تستعمل لحفظ الجيوب والزيت
وهذه الاقامة القرطاجنية العابرة بالمغرب قد تزكت اثرا عميقا اذا اعتبرنا
المظاهر المشتركة في الحضارتين البونيقية والمغربية فالطابع القرطاجني مازال
يسم المعادن والجلد والخزف المذهب والاصباغ والتسليح والالات الفلاحية
والبحرية ويرى المؤرخ كوتى ان الثياب البونيقية كانت شرقية بقميصها الطويل
ذي الاكمام العريضة وطربوشها وكساء السفر الذي يشبه الكندورة (الفوقفة
الفاسية) بل وحتى البرنس الحالي والاعراف القرطاجنية نفسها كانت شرقية
فمن ذلك تعدد الزوجات وانواع الحلي النسوى وشكلية الاجداث والشواهد
وامتعمال « الخيمة » او اليد . . . الخ وقد تساهل المؤرخ كزيل : هل استمرار
معالم الحضارة البونيقية بالمغرب هو الذي ساعد على انتشار اللغة العربية القريبة
من البونيقية بين البربر مؤكدا ان قرطاجنة قد هيأتهم من بعيد التي
تقبل القرآن ككتاب مقدس وكدم شعور وقد خلقت قرطاجنة هذه حاضرة روما
التي بسطت سيطرتها على افريقيا طوال سبعة قرون (من القرن الثاني قبل
الميلاد الى القرن الخامس بعد ازدياد المسيح) .

الفصل الخامس

الممالك البربرية

قبل الحكم الروماني

لم نتعرف الى تاريخ تطور الممالك الوطنية في المغرب الثلاثة الا من خلال ماكتبه القرطاجنيون او الرومان او المتبربرون وهو قدر يسير لا يعطينا صورة عن الواقع الا من ثنايا تقلبات الاستعمار الاجنبي في البلاد .

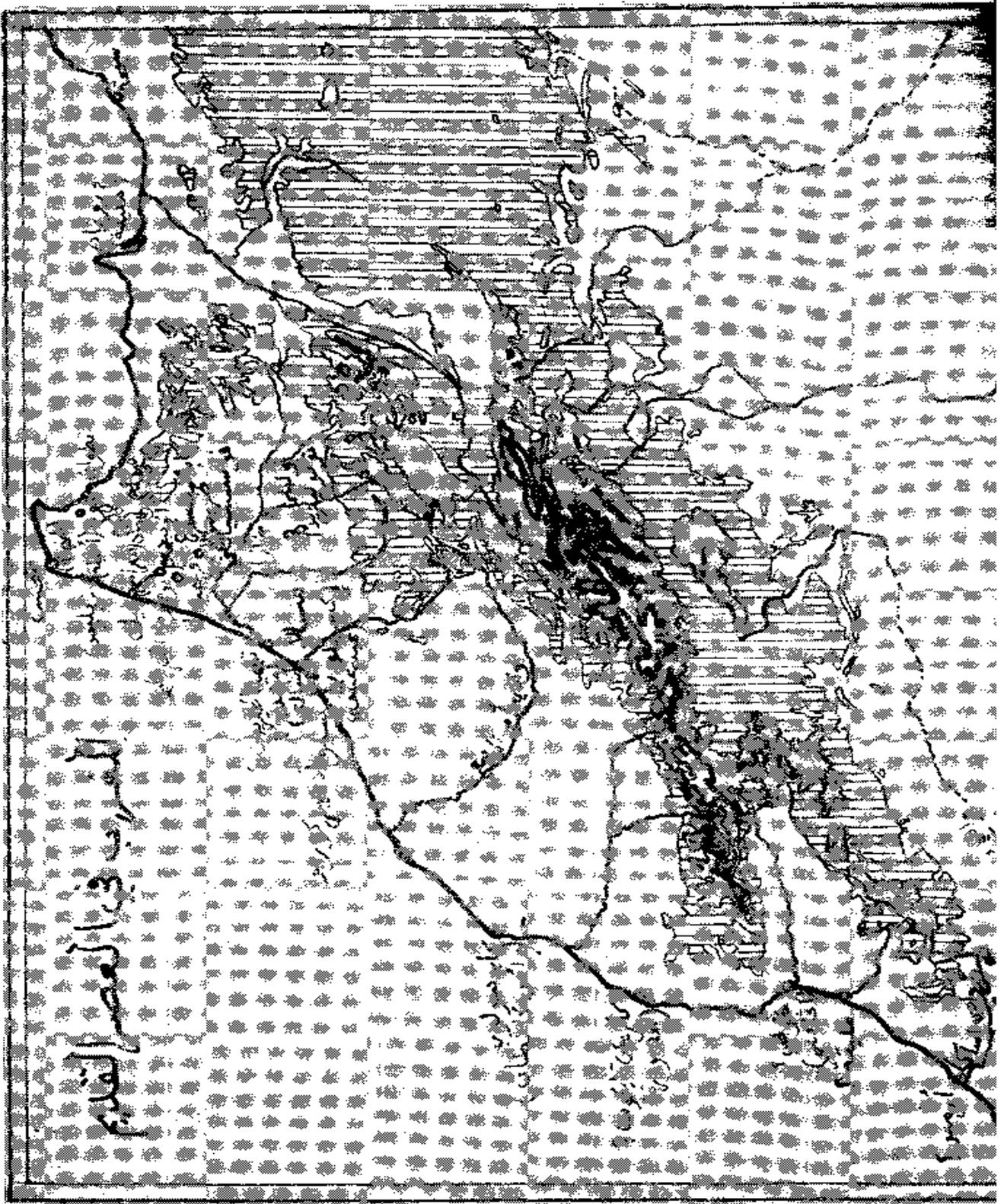
فمنذ العصر الذي سبق القرن الرابع قبل الميلاد تكونت في المغرب مجموعة من القبائل في اطار مملكة الموراو موريطانية تحدها جنوبا بلاد جزولة التي يقال بانها اصل لفظة *Gélules* المحاذية لتخوم جنوبي نوميديا الغربية ونوميديا الشرقية التي خضعتا لكل من سيفاكس وما سيديسة وهما مزاب الحالية) والمقاطعة البونيقية كما يحدها شرقا نهر الملوية السفلى على ان شبكة المغرب الموريطاني اتسعت منذ اواخر القرن الثاني فشملت الوادي الكبير شمال غربي قسطنطينة وقد عثر على نقود يرجع تاريخها الى القرن الاول تشهد بان البربر كانوا يزرعون القمح ، انذاك ، وقد كانت المملكة النوميديية مملكة مغربية في الحقيقة لان نوميديا الغربية التي شكلت الخلية الاسلامية للاتحاد القبلي كان مصدرها المغرب في حين ان القسم النوميدي الشرقي يرجع الى جبل الاوراس .

وكان الشق المجاور لموريطانية خصبا تتوافر فيه المحاصيل ويزعم سترابون (الجغرافي اليوناني الذي عاش من عام 58 ق م الى سنة 25 ميلادية وله كتاب قيم في الجغرافية) انه كان اكثر خصبا من القسم الشرقي الجزائري وان سنابل القمح التي كانت تعادل الخنصر في الضخامة تجاوز ارتفاعها مترين في حين كان الانتاج يصل في حصيلتين سنويتين الى 240 في المائة ولا يخفى ماتنطوى عليه هذه التقديرات من الايغال .

وقد تحالف سيفاكس مع قرطاجنة في الوقت الذي كانت مملكة خصمه ماسينيصة تشمل كامل بلاد الجزائر ولكن قوته انهارت دفعة واحدة (عام 203 ق م) ويظهر ان نجله فيرمينا ساد بعد ذلك في جزء من الغرب غير ان ماسينيصة ما لبثت ان استولت على مجموع نوميديا بعد ان دخل طاغرا الى سيرته (قسطنطينة) (عام 203 ق م) وقد عرف كيف يوحد اجزاء البلاد ويكفل استقلالها ويدعم حضارتها رغم معارضة الرومان الذين رفعوه الى دست الحكم كما استطاع ان يجعل منها مملكة لا مجموعة قبلية ترتكز على البدو الرحل بل دولة لها مقومات حضرية تعززت بفلاحة منظمة وقد اكد المؤرخ كزيب ان الامير ماسينيصة اول من عرف كيف يستغل المساحات الشاسعة في زراعات منتجة فكان بذلك المؤسس الاول للحضارة الاقتصادية في المغرب الاوسط وقد اعطى المثل الصالح من نفسه واولاده الاربعة والاربعين واكد ديودور اللصقلي الاغريقي الذي عاش قبل ميلاد المسيح ان الامير البربري تغنن في الاشغال الفلاحية وترك لكل واحد من اولاده قطعة ارضية من نحو تسعمائة هكتار مجهزة بالادوات الفلاحية اللازمة وكان هؤلاء المزارعون يعيشون في حصون لا في ضيع منتشرة وبذلك ساهم مسينيصة في تعداد الحواضر والمراكز الفلاحية القارة واستمدت المدن الفينيقية الساحلية دساتيرها ونظمها .

ولعل هذا التركيز الحضري قد عزز حملات الرجل على القبائل القارة لان البدو المتنقلين كانوا يجدون في هذه الدساكر والحواضر الجديدة طعمة سائغة وسيظل الحال كذلك في مختلف عصور التاريخ مادامت القبائل موزعة بين ظواجن وقوارب .

ويدخل هذا التمدين الذي حققه ماسينيصة في نطاق الحضارة الهلنيستية اى الاغريقية الشرقية التي وضع اسسها الاسكندر المقدوني وعمل الزعيم الافريقي على بربرتها مع الاحتفاظ بالطابع الحضاري الصام فمن ذلك وقع المستوى



افريقية عام 153 ق.م. وكان ألد أعداء القرطاجنيين فكان الشعار الأكبر الذي يردده في خطبه الحماسية هو تحطيم حاضرة قرطاجنة التي ضحمت منافستها الشديدة وطأة الازمة التي تخبطت فيها الفلاحة الرومانية أوائل القرن الثاني قبل الميلاد .

وقد عمدت رومة من أجل إيقاف تقدم المرسى الافريقية الى الاستعانة بحليفها مسينيصة الذي وجد الفرصة سانحة ابتداء من 193 ق.م لاقتطاع الاراضي القرطاجنية شبرا شبرا وهكذا تمكن (عام 174 ق.م) خلال محاربة الروم لليونان من الكشف عن مجادئات سرية بين القرطاجنيين وملك مقدونية (بيرسي) فاحتل سبعين من المدن او القصور البونيقية واحتجت قرطاجنة مطالبة بضمان الحدود القارة وقد خشى مجلس الشيوخ الروماني آنذاك من تحالف قرطاجنة مع ملك مقدونية فقرر عدم السماح بتجريد القرطاجنيين من ممتلكاتهم ولكنه ترك للامير الافريقي المجال مفتوحا لمواصلة تعسقاته ضد الخصم فاستولى عام 162 ق.م على الحقول الخصبة في المراكز التجارية او نواحي سميرت ثم (153 ق.م) نزا على الاراضي الفلاحية الثرية بكامبي ماكني (الدخلة الحالية) .

وكان لمسينيصة انصار في عقر الديار القرطاجنية غير ان الشعب القرطاجني تحمس ازاء الخطر الداهم لعواطفه الاستقلالية وروحه الكفاحية فتحصنت المدينة (154 ق.م) وطالب كاطون بمحقتها وعارض مجلس الشيوخ هذه الفكرة وانبرى في نفس الوقت احد القادة القرطاجنيين وهو كارطالو لخلق صعوبات واقامة عراقيل في وجه ماسينيصة بالحدود الموريطانية فقام بجولة عبر نوميديا يدعو الافارقة الى الثورة وانضم اليه قائدان بربريان وسلحت قرطاجنة 50.000 جندي ولكن الامير الافريقي الذي كان قد بلغ من العمر الثمانية والثمانين قاد المعركة بنفسه على صهوة جواده المطهم فحالفه النصر (150 ق.م) وتعهدت قرطاجنة بدفع اتاوة طوال خمسين سنة فخاب في نفسها كل أمل في الانتعاش الاقتصادي والسياسي .

وكان مسينيصة يطمح الى تملك حاضرة قرطاجنة ثمنا لتحالفه مع الروم ولكن مجلس الشيوخ الروماني الذي خشى ان ينبثق من القضييلة الملكية النوميديية زعيم مثل حنبعل يجعل من قرطاجنة قاعدة لشن حرب جديدة ضد رومة - قرر تحطيم الحاضرة فوجه اربع كتائب (معززة ب 4.000 فارس و 30 سفينة) لاحتلال مرسى اوتييك التي استسلمت بدون عناء فانصاعت قرطاجنة

لخصمها وقدمت ثلاثمائة من الفتيان النبلاء رهائن لايقاف الحملة وارغم القناصلة الرومان اعداءهم على دفع عتادهم (200.000 سلاح و 20.000 منجنيق) واسطولهم الذى كان مصيره الاحراق والجلاء على المدينة لتأسيس اخرى على بعد خمسة عشر كم داخل البيرفكان فى ذلك نوع من السخرية المرة بشعب بحرى لم يكن له مناص من الاستقرار بمرافأ ساحلى فلم تر قرطاجنة بدا من مواصلة النضال طوال ثلاث سنوات ولم تكن رومة تترقب هذا الصمود الصارخ حيث وجد الجيش الرومانى ابواب قرطاجنة موصدة والاسوار مثقلة بالقذائف والشعب القرطاجنى يموج فى خضم من الحماس البطولى تذكىه روح جديدة من التضحية والاستماتة فى سبيل الدفاع عن فكرة ، فكانت جميع الامكانيات والوسائل موارد حية لهذا النضال فاقتطع النساء من ضفائرهن لبرم حبال المجانيق وانبرى الرجال يصنعون فى اليوم الواحد 140 درقة و 300 حربة و 500 من القنا والرماح والفا من سهام المجانيق وكانت قومة الشعب لا ضد العدو الخارجى فحسب بل ضد مجلس الشيوخ القرطاجنى الذى ادى استهتاره الموصول الى هذه الكارثة .

ووقف الرومان حيارى امام هذا الدفاع المستميت فاستنجدوا بماسينيصة الذى نكص عن مساعدتهم ولكنهم حصلوا على معونة قواد بعض الحواضر الافريقية مثل هدروميت (سوسة) وطابسوس (قرب مهدية) وليبتيس مينور (لمطة) واشالة (بدرية) وهيبو (بنزرت) اما القليبية ونابول فقد ظلا فى صف قرطاجنة التى تعززت ايضا بثورة هسد روبال وهو الجنرال البونيقى الذى هزمه ماسينيصة (150 ق م) والذى رابط فى الجبل الواقع على مسافة 30 كم جنوب شرقى قرطاجنة والمشرق على الطريق المؤدية الى سيرتة الصغرى بينما ظلت كتائب بونيقية اخرى تقض مضاجع الرومان الذين استنصروا من جديد بماسينيصة بواسطة القائد سيبيون ايمليان فوجده قدمات (148 ق م) وقسم المملكة ثلاثا بين اولاده فأضعف بذلك الدولة النوميديية التى قضى ماسينيصة عقودا من السنين فى توطيد دعائمها وظاهرة التجزئة هاته كانت المعول الجوهري الذى نخر المملكة المغربية خلال العصور بعد ان استكملت وحدتها كما وقع منذ ايام الادارسة الى عهد العلويين .

وقد عرف هسدروبال كيف يفرض قوته على القناصلة الرومان الذين برهنوا اذ ذاك عن تخاذل وعدم اهلية للاضطلاع باعباء المسؤولية المنوطة بهم فدخل عنوة عاصمة قرطاجنة وتحالفت الدبلوماسية البونيقية مع الافارقة من

موريطانيين ونوميديين واسندت رومة في نفس الوقت القيادة الى سيبيون ايمليان وعمره لايتجاوز 38 سنة وقد رباه سيبيون الافريقي تربية اغريقية جعلته من دعاة وانصار الثقافة الهيلينية كما درس الفن العسكري وعرف كيف يوجه بانظاره الرصيدة قرارات القناصل الروم .

وبعد حصار استمر عشرين يوما بلياليها تمكن القائد الجديد من اقامة حواجز منيعة من خليج تونس الى ارباض قرطاجنة رغم المراصد المحصنة ذات اربع طبقات التي كانت تشرف على هذه المنطقة وتراقبها ومع ذلك ظلت قرطاجنة تتلقى مواردها من البحر بل فتحت مخرجا آخر تسربت منه قطع بحرية جديدة ما لبثت ان رجعت القهقري (في صيف 147 ق م) بعد ان احتل الرومان هضبة بونيقية مسطحة سامقة رابطت فيها قذائفه التي صوبت افواهاها نحو مدخل المرفئين حائلة بذلك دون تموين المدينة وبعد بضعة اشهر انهزم الجيش البري اثر تطويق شديد .

وقد تواردت النجداث من المغرب - موريطانية - لفك الحصار المضروب على قرطاجنة ولكنها فشلت لغوات الاوان وهناك اسند القائد سيبيون ابي صديقيه المؤرخ بوليبي (I) والفيلسوف بانيتيوس الاشراف على اسطول اخترق اساطين هرقل (مضيق جبل طارق) واتجه على طول الشواطئ المغربية .

وبدأت المحادثات مع القرطاجنيين اجراها باسم الرومان احد ابناء ماسينيصة غير انها لم تسفر عن نتيجة وواصل الروم تضييق الخناق على المدينة وفي ربيع سنة 146 قاموا بهجمة كبرى انتزعوا عنها المرسى العسكرية ثم المدينة السفلى دارا دارا واحرقوا الشوارع واخضعوا القلعة بعد عراك احتدم طوال ستة ايام وست ليال وفي اليوم السابع استسلم خمسة وخمسون الف نسمة منهم هسدروبال ولم ترض زوجه بهذه الاهانة المريرة فزجت بنفسها في لانيران مع ابنتيها وفي حلل قشبية وبمراى ومسمع من زوجها وبرهن مجلس الشيوخ الروماني على وحشية لا مثيل لها فاستعبد الاسرى والقى بهم في دهاليز السجون حيث ماتوا كندا وجوعا وتحت سياط العذاب وفضلت حواضر اخرى مثل هيبو (بنزرت) الصمود الى الانهيار والهدم على الاستسلام الرخيص واشرف

(I) مؤرخ يوناني (210 - 125 ق م) له كتاب في التاريخ في 40 مجلدا

لم يبق منه سوى خمسة .

سيبيون بنفسه على تحطيم معالم قرطاجنة فى وحشية نادرة فقضى بذلك على
أروع حضارة عرفتها القارة الافريقية جانبا على الانسانية جناية منكورة وعلى
العروبة بصورة خاصة لانه قوض صرح مدينة عربية الاصل شرقية الروح
بعاداتها ومقوماتها وكشوفها .

ويحق لنا ان نتساءل الان عما خلفه البونيقيون بالمغرب فى هذه الحقبة
الطويلة . فى القرن السادس قبل الميلاد بدأت النصوص التاريخية تشير
الى وجود مراكز بونيقية بالمغرب منها ثلاث مدن هى طنجة (لعلها طنجة الحالية)
وترانكى وميليتا اللتين يزعم كاركوبينو انهما يقعان بين اشقار وليكسوس على
ان رحلة هانون تنص على وجود مدينة تسمى ميليتا فى موقع ابعد جنوبا
(ماسة) وهناك جغرافيون قدماء اثبتوا أسماء اخرى مثل سيكا فى مصب وادى
تافنا وروسادير حول مليلية ومدينة تاهودا غربى تطوان (وسيبنى الرومان
مدينة اخرى بهذا الاسم) او بمصب وادى مرتيل وتيمياطيرون المنصوص عليها
فى رحلة هانون وباقى المستندات القديمة بمصب نهر سبو وكذلك مدينة سلا
التي عرفت بنقود بونيقية يرجع تاريخها الى القرن الاول بعد الميلاد ولعلها كانت
تقع بشالة الحالية فى نفس المكان الذى اسست فيه سلا الرومانية .

ثم جاء بعد ذلك هانون (ما بين 475 - 450 قم) وبنى بالجنوب المغربى
مدنا اخرى وقع الخلاف فى مواقعها وعلاقاتها بالاسماء البربرية الحالية ولعل
هذه المدن هى الصويرة وفونتي (اكادير) واجلو (ماسة) واسكا باقصى الجنوب
ويظهر ان القرطاجنيين احتلوا جميع نقط الساحل المغربى المتفتح فى وجه السفن
الى ما وراء الساقية الحمراء ولم يعثر على آثار تنم عن بعض مظاهر هذه المراكز الا
فى ليكسوس رغم كون بعض هذه المراكز ظلت حواضر فى عهد الرومان وقد
وقع الكشف فى تازة عن بقايا اثرية ترجع لآخر ايام القرطاجنيين كما لوحظت
فى حفريات وليلى كتابات تدل على وجود لفظ سوغيت (وهو لقب الحاكميسن
الاثنين فى كل مدينة من المدن القرطاجنية) .

وقد شارك فى الحرب البونيقية الثانية الامير باكا الملك الموريطانى الذى
كان يحكم شمالى المغرب بالاضافة الى ممتلكاته الاخرى والذى تحالف ضد
قرطاجنة مع امير الزاب ماسينيصة الذى هدف من وراء تحالفه مع الروم الى
استئصال القرطاجنيين اولا ثم الروم ثانيا ولكن المنية عاجلته فظل الامراء
الافارقة حيارى متأرجحين يتحالفون تارة مع الروم وطورا مع القرطاجنيين
ومعظمهم كان ميالا الى تعزيز ماسينيصة لان فى تعزيزه انبثاق الفكرة التحريرية
بالقارة الافريقية .

الرومان في المغرب

بعد تخريب عاصمة قرطاجنة واستئصال السيادة البونيقية بأفريقيا حيث ظلت نحواً من ألف عام احتل الرومان الأقاليم القرطاجنية دون أن يبذلوا أي مجهود لتنمية هذا التراث وكانت الفلول البونيقية الفارة من زحف الفيالق الرومانية قد انضمت إلى أمراء البربر الذين تقبلوها بحفاوة وسهر الجميع على صون بقايا حضارة قرطاجنة الآفلة ومصنفااتها الحافلة بضروب الفن والآداب ومصانع سك النقود وقد استطاعت هذه الأقاليم البربرية بفضل المهاجرين البونيقيين الإخصائيين تركيز ممالكها حول حواضر كبرى وجمع شتات قبائل فصلتها نعرات جهوية غير أن العملاق الروماني مالبت أن مد نفوذه إلى هذه الممالك خاطباً ودها فلم تر هي بدا من محالفته وقد سبق لبعض هؤلاء الأمراء أن شاركوا في الحرب البونيقية الثانية مثل باكا ملك موريطانيا الذي امتدت شبكة سيطرته على شمال المغرب وساند الزعيم ماسينيسة ضد قرطاجنة وفي الحرب التي خاضت روما غمارها ضد جوكورتا (I) وجدت في شخص بوكوس ملك موريطانيا الغربية (2) حليفاً ساهم في القضاء على خصم الرومان وضم ممتلكاته إلى دولته ويلوح أنه رغم اتساع هذه المملكة البربرية فإن رقعتها لم تشمل

(I) ملك نوميديا ولد حوالي 154 ق م وهو ابن أخت ماسينيسة *Micipsa* نجل ماسينيسة .

(2) *Bocus* ملك الجيتول سلم صهره جوكورتا إلى الرومان (105 ق م) ، وقد حارب قبل ضدهم .

مجموع المغرب نظرا لقيام مملكة صغيرة حول طنجة كانت لها هي أيضا علائق مع رومة وعندما توفي بوكوس حوالي عام 80 قبل الميلاد قسمت مملكته بين ولديه : وهما بوكوس الثاني الذي ملك الجزائر وبوكود *B. gud* الذي خضعت لحكمه الاقاليم الواقعة بين نهر ملوية والمحيط الاطلنطي وقد اضطر الاميران عند قيام الحرب الاهلية في الجمهورية الرومانية الى الانسحاق تارة مع هذا الفريق واخرى مع الفريق الآخر تبعا للملابسات الوقتية ، فلذلك شاهداهما في صف قيصر ضد يوبا الاول (I) الذي تحالف مع الشيوخ الرومانيين الذين لجأوا الى افريقيا وقد اسس قيصر بعد ظفره افريقية الجديدة *Africa nova* عام 45 قبل الميلاد وافترق الاخوان بوكوس الثاني وبوكود بعد موت قيصر فايد الاول اوكتاف والثاني انطوان وقتل بوكود عام 31 قبل الميلاد فجازى الامبراطور الظافر اوكتاف حليفه بوكوس بضم مملكة اخيه وبذلك اندمج المغرب فسي الجزائر والواقع ان الرومان كانوا يفرضون حمايتهم على هذه المملكة اذ ما كاد بوكوس الثاني يلفظ نفسه الاخير حتى اقام اوكتاف في طنجة واصيلا وباناسة مستعمرات رومانية وجعل على راس المملكة البربرية موظفين رومانيين ولكن في عام 25 قبل الميلاد حدد اوكتاف (الذي حمل قبل ذلك بعامين لقب اوكوست) نظام امبراطوريته وعين يوبا الثاني ملكا على المغرب والجزائر وكان يوبا الثاني هذا قد تزوج عام 29 قبل الميلاد بينت كليوباترة وانطوان التي تربت في قصر اوجست وقد استمر ملكه ثمانين واربعين سنة (من عام 25 ق م الى عام 23) .

ويظهر ان الامير البربري كان متأثرا بالثقافة الهيلينية وبالحضارة الرومانية مما حدها الى مساعدة الولاة الرومان ضد جيرانه النوميديين (في سنتي 18 و 5 بعد الميلاد) ولكن الانسحاق في تيار الروم خيب آمال الافارقة الذين جزتهم رومة جزاء سنمار حيث قتل امبراطور الرومان كاليكولا خليفة يوبا الامير بطليموس وكان قد انحاش الى الرومان وزار رومة فاغتيل هنالك واحيلت مملكته الى مقاطعة رومانية ولكن المغرب الشمالي لم يرض بهذا الوضع فثارواضطر الرومان الى حشر قوات عسكرية لقمعه وتمرد احد موالى بطليموس متواطئا في انتفاضته مع اهل نوميديا ولكن رومة استنفرت عشرين الفا من جنودها في اسبانيا فقتت

(I) *Jubatt* ملك موريطانيا توفي عام 18 م . وقد كتب باليونانية مصنفات في التاريخ .

على الثورة وتوغل كايوس *Caïus* مبعوث الامبراطور الى وادي كير كما وصل خلفه المستدوب جيطا *Géta* الى تخوم الصحراء للضرب على يد سابال *Sabal* احد زعماء الثورة البربرية وقد عمد الامبراطور كلود عام 46 م بعد اخماد ثورة البربر الى تقسيم موريطانيا الى منطقتين : المنطقة الشرقية للمتدة من الوادي الكبير بالجزائر الى نهر الملوية وهي موريطانيا القيصرية وعاصمتها قيصرية (شرشل) والمنطقة الغربية وهي موريطانيا الطنجية .

موريطانيا الطنجية

كان نهر الملوية يشكل الحد الرسمي بين المنطقتين ولكن رقعة الاحتلال الروماني لم تكن تضم سوى قسم ضئيل من المغرب ولعل ذلك راجع الى ان الثورة لم تتخذ الا خمود الرماد لان الاطلس الجبار كان يتربص الدوائر بكل دخيل وقد عثر على بقايا هذه الحدود الرومانية الجنوبية قرب مدينة الرباط في روافد نهري ابي رقراق وعكراش كما كشفت آثارها الشرقية بين فاس وتازا ويلوح نظرا لانعدام معالم الاحتلال الروماني شرقا الى لالة مغنية ان اتصال منطقتي الاحتلال بالمغرب والجزائر لم يتم عن طريق مراكز قارة نظرا لاستعصاء القبائل المغربية فحتى في الريف وجباله لم يعثر لحد الآن على اى مظهر للتاثير الروماني وقد اضطرت رومة الى ربط الوصل بين طنجة وشرشل عن طريق البحر ومعلوم ان الريف لم يتقبل قط اى دخيل اجنبي حتى تأسست اول دولة عربية في نكور ايلم الوليد الاموي واستمرت بضعة قرون وفي الجزائر لم يستطع الرومان الاستيلاء على اقاليم شتى لاسيما المناطق الجبلية مثل « القبائل » وهكذا يمكن القول اذا اعتبرنا مقالات الجغرافيين القدماء وبعض الكشوف الاثرية بان المنطقة المغربية للاحتلال الروماني لم تكد تتعدى مثلنا دقيقا يبرين سبتة وطنجة والرباط وفاس اللهم الا بعض الاستطلاعات خارج هذه الاضلاع في شعاب الاطلس الاوسط وجنوبي مدينة شالة (بين تمارة والصخيرات) ولاشك ان الرومان لم يحلموا باستكمال الاستيلاء على المغرب لما كابدوه في انجانه من انتفاضات استقلالية ولكنهم هدفوا بتأسيس بعض المراكز الى انجيلولة دون اغارة البربر على المنطقة الرومانية باسبانيا اى الاندلس (وعاصمتها هيسبالييس *Hispalis* اى اشبيلية) ولهذا شاهدنا ديوكليسيان *Dioclétien* (284 -

305 م) يحاول ضم المراكز المغربية الى المنطقة الاسبانية وكانت هذه المراكز

تتمتع باستقلال ذاتي تحت قيادة وال واحد ولكنها انضمت احدى عشرة مرة الى المنطقة القيصرية في ظرف ثلاثة قرون بسبب تقلص نفوذ الرومان بالمغرب ويظهر حسبما اكده كاركويينو ان رومة اضطرت اواخر القرن الثالث الى الجلاء عن مدينة ولبلى والقسم الجنوبي من المنطقة ويؤيد هذه النظرية انعدام بعض الآثار في ولبلى (مثل الرسوم القيصرية والنقود) بعد عام 286 م .

ولعل طنجة كانت هي العاصمة ولكن من المرجح على مايلوح ان ولبلى كانت هي الحاضرة الاولى نظرا لتوفرها على قصر ملكي وكتابات قيصرية ومعابد للسلام ترمز الى المحالقات مع بعض القبائل .

جيش الاحتلال

وقد تواردت كتائب مختلفة على المغرب في عمليات عارضة ولكنها لم تستقر في مركز معلوم بخلاف المراكز الافريقية الاخرى ولهذا كان الرومان يحصنون المدن الهامة خوفا من الغارات البربرية ومحاصرة ولبلى قد احدث بها سور تعلوه ابراج وتنفذ الى داخله ابواب شاهقة بينما كانت اسوار كل من باناسة وتامو سيده بسيطة ولم يعثر لحد الآن في المغرب على اية قلعة عسكرية اما الطرق الرومانية فقد امتدت طريق بين طنجة وليكسوس حيث تفرعت الى مسلكين غير مبلطين يتجه احدهما نحو باناسة وشالة بعيدا عن الشاطئ ومرجة سبو والثاني يمر بالقصر الكبير ويؤدي الى ولبلى دون اية قنطرة ولا معبر وقد استغرب المؤرخون زهادة هذه الوسائل العسكرية ولكن لا عجب في ذلك اذا اعتبرنا ان المغرب كان مستعصيا نظرا للروح الاستقلالية لدى القبائل البربرية التي قبضت على زمام الطرق الواصلة بين المنطقتين الشرقية والغربية .

النظام البلدي

وقد انبنى النظام الروماني على الحياة البلدية فالمدن كانت هي المجتمع المركزي الا ان الرومان اقاموا بعض مدنهم على انقاض المدن القرطاجنية والغالب ان طنجة كانت اعظم مدينة في الجزء المغربي المحتل من طرف الرومان ومازالت المدينة تحتفظ - كشاهد على الاستيطان الروماني - بانقاض كنيسة

لم يبق منها سوى تصميمها اما الاثار الاخرى المحفوظة فانها لا تعدو بعض الكتابات والنقود والمنتجات الفنية مع تمثال امرأة .

وقصر فرعون عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل ولكن غير منتظمة المساحة (يتراوح طولها وعرضها من 700 متر الى ما بين 300 و 500 متر) تتدرج بناياتها فى سفح جبل زرهون حيث ضريح المولى ادريس الاول ونظرا لانعدام وثائق تكشف عن وضع هذه المدينة التاريخية فان مصلحة الآثار القديمة تعمل على تجديد معالم هذه المدينة التى هى أعظم حاضرة رومانية فى الاقليم الداخلى بفضل الحفريات التى كشفت عن قوس كاراكالا او قوس النصر وعن ازقة ودور ومعاصر للزيتون وقد وقع العثور على الساحة المركزية للمدينة بكنيستها وازيحت الانقاض عن بدائع فنية رائعة منها كلب من البرونز (وهى قطعة مقتبسة عن الاصل اليونانى المنحوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ورأس مصنوع من المرمر ونقوش بديعة تمثل صورا حيوانية وانسانية فى قالب فسيفساء وكانت الساحة الداخلية المحاطة بالاروقة هى القلب النابض للحياة العمومية فى المدينة ويقوم فى جانبها الغربى حى لا شك انه امتداد لدمسكرة اهلية كما توجد شرقى قوس النصر شبكة واسعة من الدور الثرية بقاعات استقباليها الواسعة ومساحتها المحاطة بالغرف على النمط المغربى وقد عثر على بقايا قنوات تحمل المياه من زرهون الى سقايات المدينة وحماماتها او الاحواض المنبثقة داخل المنازل اما الزخرف داخل البيوت فان نقوشه تشكل احيانا دوائر رائعة او نحوها مفرغة علاوة على الرسوم الزهرية فى الحجارة والتسطيرات الهندسية ذات الطابع البربرى ورؤوس الاساطين البسيطة والمزخرفة بصور نورية عريضة الاوراق جميلة التقاسيم وتمائيل ودمى واثاث من البرونز تشكل مجموعة فنية ثرية نادرة المثال وتوجد انقاض مدينة باناسة الرومانية على الضفة الجنوبية لنهر سبو وهى تحتوى ايضا على ساحة مركزية ودور كبرى جميلة ومستحقات تتجلى روعة مبانيها الاصلية فى قطع من البرونز الفنية التى عثر عليها اما تموسيدة الواقعة كذلك على نهر سبو على بعد ستة عشر كم . من القنيطرة فان بقاياها المعمارية اقل روعة وجمالا من باناسة وقد تم الكشف فى شالة عن قسم من الساحة المركزية التى تنتهى غربا بقوس نصر وبقلعة رومانية وعمارتين جنوبا كما كشف فى الجنوب الشرقى للساحة عن آثار دور رومانية وعن مقبرة فى المكان الذى يقوم عليه مقر السفارة الفرنسية الآن ولم يعثر على حمامات ولاعلى اشياء فنية باستثناء كتابات جميلة تلقى بعض الضوء على الحياة الرومانية فى

هذه المدينة العتيقة الا ان الحفريات الاخيرة ازاحت التراب منذ سنوات عن
ثلاثة من التماثيل .

وقد عثر على مدن ازلية اخرى مكان سبتة والقصر الكبير (اوبيدوم نوفوم
وتمودة) على بعد ستة كم ونصف من تطوان) واصيلا وفريدي (على مسافة
كيلومترين اثنين من عرياوة) وتريمولي (فى المكان الذى كانت تقوم البصرة
فى القرن الرابع الهجرى) .

وقد لاحظ تيسو (I) ان مدينة القصر الكبير مبنية فى معظمها بأدوات
ازلية العهد وتوجد على احدى قواعد منارة الجامع الكبير كتابة اكتشفت منذ عام
1871 وهى تشهد بوجود ضريح فى ذلك المكان .

وقد ظلت اهم هذه المدن قائمة الذات فى القرن الخامس الميلادى بعد
انسحاب الرومان وكان بعضها يمثل فى القرن الرابع ابرز حواضر المغرب
الاسلامى (2) .

المجتمع البلوى

وتشير الخرائط الاستطلاعية الاولى الى وجود آثار رومانية بالبادية
المغربية ولكن يظهر ان النشاط الفلاحى لم يزدهر نوعا ما الا حول المدن اذ ان الدور
الكبرى فى ولبلى كانت فى ملك مزارعين اثرياء وقد توفرت هذه المنازل على
معاصر للزيتون ينيف عددها على الاربعين فى جزء واحد من المدينة كما عثر فى
باناسة على عشر معاصر وتؤكد سعة الغراسات بما اشار اليه المؤرخون من توافر
الاشجار فى سهول المغرب قبل الفتح الاسلامى .

الحضارة الرومانية

ولم تكن المدن الرومانية تضم سوى بضع عشرات الآلاف من الواردين من مختلف
مناطق الامبراطورية الذين لم يكونوا يمثلون الحضارة الرومانية الاصلية وتدل

(I) الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجية ص 162 .

(2) البيان المغرب ج اص 133 و 330 .

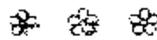
الكتابات المكتشفة على وجود عناصر اجنبية عن افريقيا في ولبلى (امرأة من فيينا وسوريون عرب من فينيقيا) وحتى الجند كانوا فلولا تشتمل على غوليين وسوريين واسبان وبعض البربر .

ومعظم الرسوم المكتوبة التي عثر عليها لاتينية لندرة الازدواج اللغوي اذ لم يعثر الا على كتابتين افريقية لاتينية ويونيقية لاتينية ومع ذلك فالظاهر ان اللسان اللاتيني لم يكن له كبير اثر اذ لم يشر المؤرخون الى كاتب لاتيني ولد في المغرب او الى مدارس ممتازة بولبلى وطنجة .

وقد ظل البرابرة محتفظين بوثنيتهم حتى دخلت الديانة المسيحية في تاريخ لم يحدد ولا سيما الى طنجة ثم قصر فرعون وتسربت بعد ذلك الى بعض القبائل البربرية .

انهيار الحكم الروماني

ولا يعلم بالضبط تاريخ انهيار الحكم الروماني بالمغرب الا ان الامبراطورية التي اسسها ملك الوندال جنسريك *Genaric* (428 - 477) لم تصل الى حدود المغرب ولم تشر المعاهدة المبرمة عام 442 م بين جنسريك والامبراطور تيودور الى موريطانية الطنجية كما ان جوستينيان الذي جعل حدا للامبراطورية الوندالية لم يتجاوز مدينة شرشل باستثناء سبتة التي احتلها البزنتيون من البحر لمراقبة اسبانيا وبلاد الغول ولكن يلوح من بعض الكتابات ان حكاما في ولبلى حملوا اسماء لاتينية الى ما قبل الفتح الاسلامي .



الفصل السابع

المظاهر الكبرى في الحضارات القديمة

لا يمكن ان ندرك الجوانب المختلفة التي طبعتها الحضارات في مختلف الاعصار والامصار الا اذا قارنا بين المظاهر الكبرى التي تبلورت بها شتى المدنيات واذا تعرضنا الى المجالى البارزة فى تطورات التاريخ القديم فى كل من آسيا وافريقيا مهدى الحضارة فاننا سنلمس عناصر السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع وهناك تبرز المقومات الجوهرية فى كل عصر ومصر كما تتجلى التفاعلات نتيجة ما يقرره التاريخ من روابط وصلات بين الشعوب والامم

مصر :

مصر واحة كبرى تقع شرقى افريقيا الشمالية تربط القارتين : افريقيا واسيا وتمتد فى الف كيلومتر طولا وخمسة عشر عرضا على ضفتى النيل (I) الذى تطفح مياهه بين يونيه وديجنير بعناصر مخصبة .

وتقوم فى مصر ماثر تاريخية كشفت الغازها الهيروغليفية عام 1822 م ولكن ماكتبه عن مقابرها الرحالة العربى عبد اللطيف البغدادى (المولود عام 557هـ) لم يختلف عما وصلت اليه الحفائر العلمية فى العصر الحاضر

(I) ينابيع النيل كشفها الشريف الادريسى فى القرن السادس الهجرى قبل ان يصل اليها الغربيون فى القرن الماضى

وقد ازدهرت حضارة مصر قبل الميلاد بازيد من اربعة الاف عام وكانت مصر اذ ذاك مقاطعات مستقلة ما لبثت ان توحدت ضمن امارتين في الصعيد جنوبا ومصر السفلى شمالا بمصب النيل ثم استولى فراعنة الجنوب على المجموع فكان اولهم مينيس *Mènes* الذي عاش حوالى عام 3200 قبل الميلاد وهنا بدأ تاريخ مصر يتضح وكانت العاصمة منف *Memphis* لا تبعد عن مقر القاهرة الحالى ولم يبق منها الان حتى الاعلام الظاهرة وقد اتخذها قاعدة للملك من خسران *Kreops* وولده خفرع *Krephres* وحفيده منكرع الذين بنوا الاهرام حوالى 2800 و 2700 قم ثم اضطربت الاحوال وتفككت المملكة واستولى على الحكم امراء طيبة *Thèbes* حوالى 2200 قم فاصبحت هذه خاضرة المملكة وتوالت الازمات بعد خمسمائة عام فانحدرت من اسيا عصابات الهكسوس (العمالقة) التى طردت من مصر اواخر الامر حيث بلغ نظام الفراعنة اوج قواه فى القرنين الخامس عشر والثالث عشر قم بقيام فرعون تحوتميس الثالث *Thoutmès* ورمسيس الثانى *Ramsès* اللذين بسطا نفوذهما على سوريا ويرجع الى عهدهما ما بقى من انقاض الكرنك والاقصر فى عاصمة طيبة ثم ضعف الفراعنة رغم ثراء مصر وقوة مصانعها وروعة فنونها فاكتسحها الاشوريون حوالى القرن السابع قم ولكن الامير المصرى سايس *Sais* انبرى فطرد الدخلاء وانتصب عاهلا وخلفه نيشا و *Nichao* الذى لم يكن يقل قوة عن رمسيس فاستعادت مصر زهرة الحياة طوال قرن كامل ما لبثت ان سقطت اثره تحت سيطرة الفرس (525 قم) ثم الاغريقيين فالرومان وامحت بذلك معالم الحضارة فى القرون المسيحية الاولى .

والمصريون حاميون كالأفارقة الشماليين عاشوا فى بلد خصب فى دوريات وطيئة من اللبن وسط هياكل شاهقة اقيمت للموتى فى حين ظل الاحياء فى بساطة عيش وأمية شاملة وكان لكل مدينة آلهتها وقد أصبح توت عنخ أمون اله طيبة الها لمصر جمعاء ، نظرا لمكانة هذه الحاضرة وأله به المصريون قوى الطبيعة ومظاهر الكون فكان او زيريس *Osiris* اله النيل والنبات والموتى وزوجته ايزيس *Isis* الهة الشمس والقمر وراع *Ra* اله الشمس والنور وبارى الكون فى نظر الوثنية المصرية التى عبدت الفراعنة بصفتهم ابناء الصنم الذى تمثل مع باقى الالهة فى جسم انسانى برأس حيوان وقد عرف الرهبان كيف يسخرون الشعب بما احتكروه من ثقافة ومال

واحاطوا به نفوسهم من غموض داخل معابدهم الضخمة التي بلغت اعمدها في الكرنك عشرة امتار في الدائرة واربعة وعشرين مترا في العلو عدا النقوش والرسوم والكتابات الهيروغليفية ولكن اهرام الجيزة حيث مقابر الفراعنة كانت اضخم من هذه المعابد قد حنطت موميائها التي كان كل منها يحاط باثاث وزاد وتمثيل تصور الميت مع رسوم حائطية تسجل حياته اليومية ومجموعة هذه الاشكال تعطينا صورة عن حياة المصريين منذ اربعة الاف من السنين في حفولهم بمحاربت الخشب ومناجل الحديد ومظاهر ارهاق المزارع الذي ناء تحت عبء الضرائب ووسائل التسخير علاوة على الصناعات الذين ما زالت ما اثرهم الرائعة ماثلة في المتاحف والكتبة الذين اجتازوا طور الامية وتلقوا مبادئ العمارة فاصبحوا رهبانا او وزراء .

ويقوم ابو الهول حارسا لهرم خفرن بوجهه الفرعوني وجثمانه الاسدي (57 م طولا و 20م علوا) وقد بلغ هرم خفرن 146م (137م اليوم) وحجمه مليونين ونصفا من الامتار المكعبة وهو اضخم بناء على وجه الارض كلف ثلاثين سنة من العمل ويليه هرم ابنه خفرع (136 م) ثم هرم حفيده منكاورع (66 م) ومن مظاهر الحضارة المصرية :

1 - استعانة الفراعنة في ادارة الدولة بالوزير وهو الرئيس الفعلي للحكومة الذي يساعده مديرون للخزانة العامة والزراعة الخ

2 - اعتقاد المصريين بالبعث والخلود والحساب ولذلك اعتنوا بموتاهم وقد دعا امنحتب الرابع (اخنا تون) عند تكوين الدولة المصرية السورية الى توحيد الله في شخص اتون

3 - امتياز الفن المصري الابداعي بعمارات كهرم زوسر (60 مترا) وهرم خوفو وابنه خفرع وحفيده منكاورع وهي اهرام الجيزة الثلاثة التي تعتبر اعظم مقابر في الدنيا - وتمثيل ومسلات ونقوش توابع وحلى واثاث وادوات مرمية .

4 - اختراع الكتابة عن طريق اشارات تمثل ما في الطبيعة من نبات وحيوان وجماد وانسان وهي الهيروغليفية (500 اشارة) تكتب من اليمين الى اليسار او العكس او من اعلى الى اسفل وقد بسطت الى الخط الكهنوتي ثم كتبت الدارجة المصرية بالخط الديموطيقى الشعبى .

5 - تقدم علوم الفلك والحسلب فعد (المصريون حتى المليون وعرفوا عمليات الطرح والضرب والجمع والتقسمة والكسور وقياس المساحات والهندسة (افادات العمارة) والطب والكيمياء (الاصباغ والعقاقير وفن التخطيط) والزراعة (كشف الفاس والمحراث والمنجل والمدراة والشادوف وتنظيم الري وحفر القنوات واقامة الجسور وانشاء المقاييس وبناء السدود كسد امنمحات الثالث لضبط ماء النيل - تربية السوائم كالبقر والضأن والاعز والخنازير والحمير والجمال والجاموس والخيول (بعد ايام الهكسوس) أو الدواجن كالاوز والبسط والحمام والنحل ولم تكن مصر قد عرفت الدجاج)والصناعة (الاولان الحجرية والفخارية والزجاجية والحلى والاباريق والمدى والصحاف والقوارير من النحاس والبرونز والقوارب والاثاث والنسيج والجلد كالمقاعد والوسائد والسيور والنعال والتجارة الداخلية (معرفة عقود البيع والشراء والسجلات والايصالات - تنظيم الاسواق الداخلية - المبادلات عن طريق النيل - المقايضة اساس التعامل والخارجية (مع النوبة والسودان بواسطة اسطول تجارى يتجه حتى الى الصومال واليمن وفينيقية وسورية وجزر البحر المتوسط) ولذلك شق سنوسرت الثالث قناة تصل النيل بخليج السويس وهى أقدم طريق مائى يصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر

بلاد دجلة والفرات :

تمتد بين ارمينية وايران والجزيرة العربية سهول تغمرها مياه دجلة والفرات وكان الاقدمون يسمون القسم الاعلى لمسا بين النهرين ميزوبوطاميا *Mésopotamie* ويسمون القسم الادنى ببلاد الكلدان *Chaldée* وما لبثت هذه الناحية أن صارت ممرا للنقوافل ومركزا للاسواق بسبب خصب الاراضى المسقية ومنبثقا لعدة حواضر تشهد الحفريات (2) بوجودها وهكذا ازدهرت طوال ثلاثة الاف من السنين حضارة يانعة فى صحراء قاحلة

الكلدان : وقد اينعت المدنية اول الامر فى بلاد الكلدان حيث تناقست نحو اثنتى عشرة مدينة منذ ستة الاف عام وقد تناحرت وخضع بعضها لبعض وحوالى 3000 عام قم انحدر غزاة ساميون من تخوم سوريا والجزيرة العربية على ما يظهر فغمروا هذه الاقاليم واسبسوا مملكة كلدانية عاصمتها بابل كان حمورابى الذى عاش حوالى 1800 ق م أعظم أمرائها وواضع المجموعة القانونية فى الاحوال الشخصية (العائلة والارث) والشغل والاقتصاد والخدمة

العسكرية وبعد ذلك بقرون ضعف الكلدانيون من جراء هجوم آرى فانقض
الاشوريون من الشمال على هذه الغنيمة المهزولة

وقد اشتهر الكلدان بادبائهم وعلمائهم وسحرتهم ومنجميهم وكتاباتهم
القريبة من السرياني وهم الذين كشفوا الطريقة العشرية فى الحساب وقسموا
الزمان الى سنوات وشهور وأيام وساعات ودقائق وطوروا التجارة فى القارة
الاسيوية فكانت قوافل العربات تربط الاسطول الكلدانى فى الخليج الفارسى
باساطيل شعوب المتوسط وتتنجه من الصحارى الى مدن دجلة والفرات حيث
ارتفع مستوى حياة الطبقة المترفة اشور : *Assyrie* وكان يعيش فى شمال
ميزوبوطاميا الجبلى شعب صلب سخره امراء بابل لخدمتهم طويلا ثم ما لبث
الامراء الاشوريون أن تعززوا حوالى 1250 ق م فاحضعوا الشرق الادنى لحكمهم
طوال ستة قرون بغلظتهم المتناهية وجيشهم المنظم الذى كان افراده يعبرون
الانهار على أشنان منتفخة وقد بلغت المملكة الاشورية أوجها فى القرن السابع
قبل الميلاد فى عهد آشور بانيبال (669 - 626 ق م) الذى اكتسح مصر وبلاد
الكلدان حيث نشر الرعب والدمار وكسب الاسلاب فى عاصمة نينوى *Minive*
باسطا نفوذه من هضاب ايران الى الحبشة ولكن هؤلاء الطغاة واجهوا ثورات
عارمة انتهت بعد وفاة الامير المذكور بانهزام الاشوريين (عام 612 ق م) تحت
ضربات كتلة تكونت من أهل بابل وماذى (شعب ايران) فأصبحت بابل من
جديد أعظم عاصمة تبرز حواضر العالم ببذخها وروعة ماآثرها وقد جلس آنذاك
على اريكته الملك نبوخذ نصر وما لبث ملك الفرس كورش *Cyrus* ان غزا
هذه البلاد أواخر القرن السادس ق م فانهارت المملكة (539 ق م) وقد ترك
امراء بابل مدنا ملكية رائعة بقصورها الفخمة ونقوشها البديعة وتمائيل
تيرانها المجنحة وعثر على ذلك كله كما كشف عن مكتبة اشوربانيبال المحتوية
على آلاف من الواح الاجر

العبرانيون :

حكى التوراة تيه بنى اسراييل قرونا عديدة فى الغيافى بين
الغرات والنيل وقد استقروا أخيرا بأرض كنعان فى فلسطين أوائل الألف
الثانية قبل الميلاد على مايلوح ثم هاجروا أيام دخول الهيكسوس الى مصر قبل
الهجرة الى هذه البلاد حيث عاشوا آمنين دهرا طويلا ولما استرجع المصريون

استقلالهم خرجوا الى صحراء سيناء حوالى 1400 أو 1200 قبل الميلاد فجمعهم نبي الله موسى وقادهم الى تخوم كنعان وهى الارض الموعودة الخصبة التى سكنها اجدادهم فنزلت الالواح التى تدعو الى وحدانية الله وبعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام دخل بنو اسرائيل الى كنعان واتخذوا الفلاحة معاشا وحاربوا جيرانهم سكان فلسطين *Philistins* وحوالى الالف عام قبل الميلاد هزم نبي الله داود جالوت الفلسطينيين فاكتسح فلسطين وجعل من القدس عاصمة وخلفه ولده سليمان الذى تحالف مع الفينيقيين ونظم قوافل التجارة فى جزيرة العرب والشام ومصر فاستغنى العبرانيون ولما توفي سليمان حوالى 930 ق م انقسم العبرانيون على انفسهم فكونت قبائل الشمال مملكة اسرائيل واهل الجنوب مملكة يهودا واحتدم الصراع بين الجانبين بالاضافة الى الحروب الدينية فانتهز المصريون والاشوريون والبابليون الفرصة لاكتساح فلسطين وتخريبها حيث احتل نبوخذ نصر بيت المقدس أوائل القرن السادس قبل الميلاد ونقل أهلها أسارى الى بابل الى أن حررهم ملك الفرس كورش فعادوا الى فلسطين وحددوا بناء القدس وازدهر الدين على يد رسل بنى اسرائيل عند ما انهارت المملكة العبرانية وتقطع اليهود فى الارض قديدا .

سوريا : تمتد من خليج الاسكندرونة الى خليج العقبة وتكون مع الرافدين بالعراق هلالا خصيبا يطوق بادية الشام والعراق وجعل منها هذا الموقع بين مصر والعراق مهبط ساميين وعرب خرجوا من شبه الجزيرة القاحلة وهم العموريون (3000 ق م) والكنعانيون (الفينيقيون 2000 ق م) والاراميون (1500 ق م) والعموريون هم أهل الغرب ازدهرت عاصمتهم ماري (تل حريزي الان) فى الوقت الذى ائبعت حضارة بابل ومنف الى أن خربها حمورابى وهدم قصرها الملكى الرائع اما الاراميون فقد تعايشوا مع الكنعانيين ونهضوا بالفن السورى فى دمشق خاصة مقتبسين من بلاد الرافدين والنيل ولكنهم اصطدموا بالعبرانيين طوال قرنين فهزموهم وتفاضوا الجزية من اليهود وطردوا الاشوريين بزعامة أميرهم بن حدد (853 ق م) غير ان تحالف العبرانيين والاشوريين ادى الى سقوط دمشق فى قبضتهم (732 ق م) ومنذ عهد الاراميين كونت سوريا ومصر دولة واحدة بقيادة تحتمس الثالث وظهرت آثار ذلك فى تشابه الفنون وتبادل الآلهة وقد غزا الاشوريون سورية ومصر ثم سيطر الفرس الى أن أحل الاسكندر نفوذ الإغريق (322 ق م) ثم أسس سيلوفقيوس قائد الاسكندرية دولة السلالة الى عام 64 ق م حيث سيطر الرومان الى الفتح الاسلامى

الهبائية بتبسيط وسائل الكتابة القديمة واختاروا اثنتين وعشرين علامة لا لتمثيل الالفاظ بل لا براز الحروف التى تمتاز كل منها برنة خاصة وحذا حنوهم بعد ذلك الاغريقيون والرومان فهى اذن اصل الحروف اللاتينية وأهم المراسى الفينيقية ثلاث وهى جبيل *Gebal* التى كانت تتاجر مع مصر منذ الالف الثالث قم فتدفع لها الارز بدل ورق البردى فاصبحت مركزا هاما لتجارة الورق سماه الاغريقيون *Byblos* ثم صيدون (صيدا الحالية) *Sidon* حليفة فراعنة طيبة التى اسس اهلها مراكز فى جزرايجى تاجروا منها مع اليونان المتبربرين وقد هاجمها الفلسطينيون حوالى 1100 قم فققدت من ازدهارها وفى غضون 1000 و 700 ق م أصبحت تير (أى صور الحالية) مخزن الشرق فامتدت الجاليات الفينيقية الى المحيط الاطلسى ولكن وفرة ثرائها شجعت الغزاة مثل الاشوريين وملكهم نبو خدنصر على احتلالها فانتقل الفينيقيون الى افريقيا وأسسوا قرطاج عام 814 ق م

وقد عبد الفينيقيون بعلى وزوجته عشتاروبنوا المعابد واعتقدوا الحياة بعد الموت وبرعوا فى فن العمارة براعة ليس لها نظير وكانت قلاعهم وحصونهم وأسوارهم اعظم ما عرفه العالم القديم وقد عثر فى او غاريت على قصر صفحت اعمدته بالفضة كما تدل التوابيت على روعة النقوش ولم تدخل حضارة الشرق الى مراسى غرب المتوسط الا بواسطة فكانوا بذلك اساتذة اوربا المتبربرة وهناك حواضر اخرى مثل بعلبك التى سماها الاغريقيون *Heliopolis* او مدينة الشمس واوغاريت (رأس الشمر الحالية) التى كانت ميناء دوليا

اليونان : اليونانيون أو الاغريق أو الهيلينيون آريون وردوا من جنوب روسيا فى موجة اولى من الاشيين *Achèens* (بعد 1500 ق م ثم الدورين *Doriens* (بعد 1200 قم) وتشيد اليادة هو مير والاولد يساه *Ytiade et Odysseè* بحروب الاشيين الذين حاصروا مدينة طروا *Troie* فى اسيا الصغرى عشر سنوات (1200 قم) بقيادة *Agamemnon* وحيلة القائد اوليس *Ulysse*

ويصف هومير اليونان حوالى القرن الثامن ق م كمجموعة من الدويلات أو الحواضر لكل ملكها ومجلسها المكون من النبلاء البسطاء الذين اهتموا بالزراعة بينما اشتغلت الجماهير بالصناعة ولكن الملوك والقادة كانوا يفضلون قرصنة البحار على التجارة البريئة

اما آلهة اليونان التى تتناحر فيما بينها (حسب الاليادة) فمنها زوسى *Zeus*

ملكها وهو *Jupiter* عند الرومان وزوجته هيرا *Héra* او *Junan* واله الشمس ابولون *Apollon* وبسيدون *Posaïdon* اله البحر وهيرميس اله التجارة وافروديت *(Venus) Aphrodise* الهة الجمال واثينة *Athèna* الهة العقل ويحتل الابطال مثل هرقل *Héracles* المشهور بقوة جسمانه درجة بين الناس والالهة

وقد اسس اليونان (من القرن الثاني عشر الى السادس ق م) مستعمرات حول البحر المتوسط منها اسيا الصغرى التي كونت يونان اسيا *Grèce d'Assie* بحواضرها الرائعة مثل *Milet* التي ينتسب اليها العالم طاليس *Tralse* ومنها بيزانس (الإستانة) في البحر الاسود اصف الى ذلك اليونان الكبرى *Grande Grèce* ومنها سيراكوز *Syracuse* وناپل *Naples* ومرسليا *Marsseille* المؤسسة عام 600 ق م ونيس وقد جمعت الهيلينيين لغة واحدة ومعابد مشتركة *Aracles* والالعاب الاولمبية المنظمة في مدينة *Olympi* التي كانت ايامها من الاشهر الحرم عندهم ولعبت مدينتان يونانيتان دورا هاما هما اسبارتة واثينة

اسبارتة : *Sparte* اسسها الغزاة الدوريون *Dorieus* ولم يتجاوز اهلها بضعة الاف الا ان قوانين ليكورك *Lycurque* جعلت من باقى السكان زراعا *Hilaties* يؤدون قسطا من محاصيلها للسبارتيين أو أحرارا محميين *Pèriègues* وكان السبارتيون جندا دائمين قد حظر عليهم الاشتغال للتعيش يرضخون لحكم النخبة التي يتداول على رأسها ملكان خلال الحرب ويسيرهما مجلس القدماء فى أيام السلم وكانت كتيبة الفالانج *Phalange* السبارتية مضرب المثل فى نظامها قد انصاعت لحرابها حواضر

اثينة : *Athenes Pelonèse* حاضرة تجارية تشرف عليها قلعتها *Acropole* تولى رياستها ملك ثم خلفه كل من مجلس النبلاء *Aéropage* والقضاة التسعة *Archantes* وادى جور النبلاء الى ثورة الشعب وتحكيم صولون *Solon* عام 594 ق م فتشكل مجلس من الاغنياء وبعض الشعبيين عوض النبلاء وتمخص شبح الثورة عن ظهور الطاغية *Pisistrate* (560 ق م) الذى جمل اثنية وطور التجارة غير أن النبيل *Chalkène* حقق المساواة بين المواطنين ونصب حكومة شعبية ديموقراطية (507) وصار مجلس الشعب هو الذى ينتخب القضاة العشرة واصبح لاثينا جيش قوى واسطول كبير وازدهرت بها العلوم والاداب والفلسفة والفنون بفضل الحياة الديموقراطية

وصادف ازدهار اليونان امتداد الامبراطورية الفارسية الى اسيا الصغرى
وثار سكان ليديا غربى الاناضول على الحكم الفارسى وساعدتهم اليونان مما اثار
الحروب الميدية (492-749) التى انتهت بانهزام الفرس فى موقعة ماراثون قرب
أثينة والقضاء على الاسطول الفارسى بتحالف اسبارطه وأثينة وقامت امبراطورية
اثينية بزعامه بركليس (495 - 429 ق م) وناقستها اسبارطه فتمخض الصراع
الطويل عن اندحار الاثينيين امام اسبارطه ثم طيبة الى ان احتل فيليب المقدونى
بلاد اليونان

وقد تعزز الاسطول الملاحى اليونانى منذ مطلع القرن الخامس ق م فخلف
المراكب الفينيقية فى النفوذ التجارى ويعتبر عصر بركليس القائد الفيلسوف
ازهى العصور (443-428 ق م) شارك فى تركيزه مجلس الشعب وبرز العباقرة
فازدهرت الاداب والمسرحيات والتاريخ المدون (هيرودوت الذى رحل الى مصر
وفارس والشام وايطالية) والفلسفة (سقراط وافلاطون وارسطو استاذ الاسكندر)
وعلم الفلك (طاليس) والطب (ابوقراط) الرياضيات (فيتاغورس) والطبيعة
(ارخميدس) والفن المعمارى (المعابد والهياكل - الأكوپول - بأعمدتها المنقوشة
ونحوتها)

الرومان : وقد انتقلت الحضارة من شرق المتوسط الى غربه خلال الألف
الاول قبل الميلاد وبدأت روما تظهر عند ابتداء انهيار الحضارة الشرقية
وقد قدمت الى ايطاليا الشعوب الارية بعد اختراق جبال الألب وأشهرها اللاتين
الذين استقروا وسط الجزيرة الايطالية (اللاسيوم *Latium* قرب روما
التى نشأت فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد وكانوا قد اقتبسوا من حضارة
الفينيقين واليونان

وخلف النظام الجمهورى الحكم الملكى اواخر القرن السادس ق م واستند
الحكم الى قنصليتين منتخبتين مدة سنة واحدة من بين الخواص، وثار العوام فنالوا
حقوقهم المدنية والسياسية ومنها الوصول الى مركز القنصلية وأصبحت روما
باتحاد العنصرين أقسى فاستولت على قرطاج وبسطت نفوذها على المملكة
المقدونية باليونان وفتحت اسيا الصغرى وقضى القائد الرومانى بومبيوس على
الدولة السلوقية بسوريا كما فتح قيصر مصر واصبحت روما سيده البحر
المتوسط وهنا ظهر نزاع داخلى بين قيصر وبمبيوس فسيطر الاول بعد موت
الثانى وفتح بلاد الغال وجنوب بريطانيا فطمع فى الملك وقتل بعد أن ترك

اصلاحات منها التقويم اليولياني وتشغيل العاظمين في فتح الطرق وتجهيز
المستنقعات وبمصر بدأ صراع جديد بين انطونيوس وزيت قيصر واكشافيونس
فانتهى بسقوط الجمهورية عام 30 ق م وقيام النظام الامبراطوري امتد حوالي
خمسة قرون فكان اكتاف اول امبراطور باسم اغسطس فاستبد بالحكم ولكن
في عهده انتظمت احوال الدولة وازدهرت الاداب والفنون وظهرت المسيحية واعتلى
العرش رجال من العرب مثل كاركالا وفيليب العربي وبلغت الامبراطورية
اوجها في القرن الثاني للميلاد فعم السلام والرخاء وفي عهد قسطنطين ضعفت
الدولة فحاول تعزيز كيانها باعتناق المسيحية وتأسيس القسطنطينية وجعل
الحكم مركزيا وقد تسرب البرابرة الى البلاد بعد ان اندرجوا في الجيش وادى
اتساع الامبراطورية الى تقسيمها من طرف تيودو سيوس الى الدولتين الشرقية
(مركزها القسطنطينية) والغربية (روما) ودامت الاولى الى عام 476 م والاخرى
الى 1453 م بعد استيلاء محمد الفاتح العثماني عليها

وكان مجلس الشيوخ ينتخب الامبراطور ويوافق على تعيين الحكام
والقناصل ومال الرومان الى الامور العلمية فازدهرت الخطابة في العهد الجمهوري
فظهر شيشرون كما ازدهر الشعر في العهد الامبراطوري فظهر هوراس
وفيرجيل وفلاسفة امثال سينيكا واشتهرت مدينة بيروت بمعهد الحقوق
وانطاكية بالمدارس الفكرية والاسكندرية بمكتبتها وقد تأثر الرومان بالفن
اليوناني فاضافوا الى فخامة البناء روعة الزخارف والفسيفساء في الهياكل
(بعلبك) والمسارح (بصرى) والملاعب والحمامات (روما)

وقد اصبحت سورية رومانية عام 64 ق م وقضى على دولة البطالمة بمصر
عام 31 ق م فانهزت دول العالم الهيلينستي غير ان الصعيدي (جنوب مصر)
احتفظ بطابعه الاصلى بينما تأثرت الدلتا وسوريا بالحضارة الرومانية وخاصة
الاسكندرية ومدينة بابلينون (قرب القاهرة) فانشئت المدن وانتشر الري في
الاراضي الزراعية والاقنية والسدود واستقلت روما قمح المغرب وحبوب سوريا
ونخيل مصر وفتحت الطرق واقامت الجسور ونقل الاسطول الروماني البضائع
الشرقية من الصين الى خليج البصرة ومنه الى سوريا بواسطة القوافل

وكان السلوقيون قد بنوا في سوريا خمسا وسبعين مدينة مثل اسكندونة
وانطاكية التي رصف الرومان طرقها بالرخام واللادقية واضاف الرومان مدينة
عربية مثل بصرى وجرش وعمان

وكانت الاسكندرية هي عاصمة مصر في العهد الهيلنستي ازدهرت حركتها الادبية والعلمية حوالى عشرة قرون قبل الميلاد وبعده بدأت شهرتها منذ عهد اول البطالمة (306 قم) وكان فى الاسكندرية مكتبة فرض على كل عالم يمر او يقيم بها تقديم نسخة من كتبه كما غدا متحفها بمثابة جامعة كانت المرجع لجميع العلوم كالتشريح والكيمياء والرياضيات والفيزياء (اقليدس وارخميدس) وظلت الاسكندرية مركزا للتدريس حتى عهد عمر بن عبد العزيز وقد ضمت انذاك 700.000 مجلد و4000 حمام و400 قصر و 400 مسرح للتمثيل

وانتقلت شهرة الاسكندرية الى انطاكية عاصمة سوريا الهلنستية التى بناها سلوقوس الاول (300 قم) وهى المركز الثانى للحضارة الهلنستية بعد الاسكندرية وبهذا يتضح ان هذه الحضارة الهلنستية التى ابتدأت قبل الميلاد بثلاثة قرون كانت مزيجا من حضارة مصر وسوريا مع حضارة الاغريق

العرب

I - الانباط - سكن الانباط بلاد الرافدين بعد ان استوطنوا جنوبى الشام وهم عرب اطلق اليونان على بلادهم اسم العربية الحجرية وسيطروا على ساحل البحر الاحمر وخليج العقبة باستيلائهم على شمال الحجاز وضمت دولهم دمشق وجنوبى فلسطين ومدين وشرقى دلتا النيل كما تدل على ذلك الكتابات التى عثر عليها وحاول اليونان بسط نفوذهم مرتين على هذه المنطقة وانتصر الانباط على اليهود بعد حروب طويلة وفضل هؤلاء الانصياح الى السلوقيين اليونان الذين كانوا شمالى الشام . ولكن الانباط قضوا على السلوقيين ودخل ملكهم الحارث الثالث الى دمشق عام 86 قم وغزا مملكة اليهود فانهارت دولتهم باندحارجيشهم وما لبث الرومان ان استولوا على سوريا الشمالية فانتزعوا دمشق والقدس وفرضوا حمايتهم على مملكة اليهود وتصالحوها مع الانباط الذين اعانوا يوليوس قيصر فى حصار الاسكندرية عام 47 قم وقد ساد الانباط فترة من الزمن فى دمشق ولكن الامبراطور الرومانى طراجان Trajan اخضع عام 106 م مملكتهم الى حاكم سوريا وسماها الولاية العربية .

وقد انتقل الانباط من رعى الماشية وتجارة القوافل الى استغلال مناجم البحر الميت (الحديد والنحاس والاسفلت) فصنعوا التماثيل (رأس من النحاس محفوظ فى المتحف البريطانى) وسكوا النقود ومدوا القنوات ونحتوا فسي

للمصخور ابنية عاصمتهم بطرى (البتراء) ومعناها صخر لان قانونهم منع البناء والزراعة ومن آثارهم خزانة فرعون (هيكل منحوت) والمسرح وهو فجوة صخرية تسع 4000 متفرج وقوس النصر وهيكل اقتبسوا معالمها من الفن المصرى والاشورى واليونانى خلال جولاتهم التجارية ، التى حدثهم الى نشر الامن وفتح الطرق واقامة الصوى والعلامات لتحديد الابعاد والمسافات بين المدن

2 - التدمريون : ازدهرت دولة تدمر بعد انحطاط دولة الانباط ، وذلك نظرا لموقعها التجارى بين الخليج العربى والفرات وساحل الشام فحولت القوافل الى الشرق (الصين) والعرب واثرت ما بين 130 م و 270 م لان منطقتها كانت ممر التجار بين الجنوب والشمال واستعمرها الرومان منذ مطلع القرن الثالث واستخدموا الرماة التدمريين المشهورين وقد استطاع الزعيم التدمرى اذينة أقصاء سابور الاول ملك الفرس عن الشام الى أسوار المدائن فسماه الرومان نائب الامبراطور عن الشرق ، ثم لقب امبراطورا فخريا وقتل بعد ذلك غيلة مع ابنه الاكبر فى حمص بايعاز من روما على ما يظهر فخلفته زوجته الزباء (زنوبية) أو زينب وأشرفت على شؤون الدولة وصية على عرش ابنها القاصر، وهب اللات وسمت نفسها ملكة الشرق، تحدى روما واحتلت مصر وقسما من اسيا الصغرى وأرجمت الرومان الى انقره ونودى بابنها ملكا على مصر ولكن الامبراطور اربليانس انتصر على قائدها زيد فى وقعة انطاكية وحمص ، وهزل ظافرا الى تدمر ، عام 273م وهدمها ونقل نفائس معبدها الى روما بعد ان اعتقل فى مجاهل البادية الاميرة الزباء التى استماتت فى الدفاع عن تدمر

واللغة التدمرية قريبة من النبطية وخطها كخط الانباط ارامى عربى، ولا تزال خرائب تدمر قائمة وفى ضمنها بقايا اعمدها السبع مائة والخمسين (التي كانت تحف بالشارع الكبير) وهيكل بعل (اى الشمس) قرب قوس النصر ومدافنها (ابراج على عدة طبقات) والكل من صنع عربى كما تدل على ذلك وثائق حديثة

3 - الغساسنة : بنو غسان من اليمن (I) هاجر زعميهم عمرو بن عامر ماء السماء أواخر القرن الثالث من الميلاد عند خراب سد مأرب ومؤسس دولتهم

(I) يظن أحمد أمين أن الغسانيين واللخمييين المناذرة نبط لا يمنيون

(فجر الاسلام)

هو لعقبة بن عمرو وهي أول مملكة عربية بالشام وقد تنصرت واتخذت الأرامية لغة لها مع احتفاظها بلسانها العربي الأصلي وخضعت لنفوذ بزناس التي جعلت منها حاجزا يقيها غارة الفرس كما أصبح المناذرة درعا للفرس ضد الزوم ولا يخلو تاريخ الفساسنة من غموض وقصد كتب عنهم اليونان المعاصرون لهم وكان العداء شديدا بين امارة الشام و امارة الحيرة ، ادى الى معاربة الحارث بن جبلة للمنذر الثالث فعينه الامبراطور جوستينيان - عام 529 م على عرب سوريا ثم قتل الحارث خصمه حوالي 554 م في يوم حلينة نسبة الى حلينة بنت الحارث بناحية قسرين وقد غزا ملك الفرس كسرى ابرويز الرومان بمساعدة امراء الحيرة (613 - 614م) فاحتلوا اورشليل (بيت المقدس ودمشق و اخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي اعتنق الاسلام ثم ارتد بعد أن لطمه اعرابي أيام الخليفة عمر بن الخطاب فعاد الى القسطنطينية . وقد ورد على الفساسنة شعراء عرب أمثال لييد والنايفة الذبياني والاعشى والمرقس الأكبر وعلقمة الفحل وحسان بن ثابت .

وكانت حضارة الفساسنة جيران البيزنطيين ارقى من حضارة اشقائهم اللخمييين المقيمين بتخوم فارس وقد استغلوا مياه جبل العزب (جبل الدرور) لتطوير الزراعة ومازلت انقاض قصورهم في بصرى وزهاء ثلاثمائة بلدة وقرية اخرى واشتهرت بصرى بخزان مياهها ومبانيها وحماماتها ومدرجها المسرحي الذي يتسع لاربعة عشر ألف متفرج .

4 - المناذرة : هم يمنيون أيضا هاجروا بعد انفجار سد مأرب الى العراق واسبس دولتهم عمرو بن عدى اللخمي الذي اتخذ الحيرة عاصمة وقد سجلت الاثار اسماء نحو العشرين ملكا من المناذرة من اقدمهم امرؤ القيس (وهو غير الشاعر الكندي) الذي وجدت على قبره بحوران كتابة تعتبر اقدم كتابة باللغة العربية ومن سلالته النعمان الاول باني قصرى السدير والخورنق المؤسس لايواء بهرام نجل يزيد جرد الاول (399 - 420) الذي ورد لتعلم الصيد والتنعم بجودة الهواء وقد بلغت دولة المناذرة أوجها في عهد المنذر الثالث (505-554) وهو معاصر جوستينيان) الذي ولى بعده النعمان بن المنذر الخامس زوج هند الملقب بأبي قابوس وغضب عليه كسرى وحبس حتى مات حوالي 602م - وقد تمسح النعمان الثالث (580-606) وقام العداء بين المناذرة والفرس فهزموهم في معركة ذى قار واستقلوا بأمرهم الى الفتح الاسلامي على يد خالد بن الوليد (633م) .

ومن مآثرهم ديرا هند الكبرى والصغرى وقد تكلم المناذرة العربية ولكنهم كتبوا بالسريانية

الفصل الثامن

الفتح الإسلامي

عندما شرع المسلمون عام 21 هـ في فتح برقة لم يكن المغرب الأقصى منوي مقاطعة من هذه الامبراطورية الجديدة التي بدأت تنشر فيها الدعوة الاسلامية فلم تكن حدود سياسية مضبوطة بين هذه الاقاليم من بحر القلزم الى المحيط الاطلنطيقي اللهم الا منذ اواخر القرن الثاني في ظل الادارسة .

وقد اضطلع الفاتح العربي في افريقيا الشمالية بمقاومة اتخذت بينا من عدتها بعد ان اجلاها المسلمون من الشام ومصر وكان الضمود اشد واطول في حدود آسيا الوسطى حيث استمرت المناوشات عدة قرون ومع ذلك فقد نجح الاسلام في بسط سيادته على الاقاليم التي خضعت لحد الآن لتأثيرات الحضارة الهيلينية لافريقيا واصبح الاسطول العربي سائدا في البحار التي اكتسحتها انقطع الرومانية اجيالا متطاولة .

ولكن نشر الدين الجديد كان يتطلب دائما مزيدا من التوسيع التمديني الذي لم يتسم بطابع الفتوح الاستعمارية او الحركات الاستغلالية وقد وصلت هذه الفورة التحريرية الى المغرب الاقصى منذ حملة عقبة الاولى غير ان معالم الدين الجديد لم تتفتح لها مجالات المغرب الا في عهد موسى بن نصير .

مراحل الفتوح

وهكذا لم تكد تمر عشرون سنة على استقرار البعثة المخمدية حتى انبرت الجيوش العربية تخرق الصحراء الليبية فاحتلت انطابلس (برقة) وطرابلس

وفزان ورغب عمرو بن العاص في مواصلة الزحف ولكن عمر بن الخطاب منعه من المغامرة بالمسلمين في افريقيا المفرقة .

وفي خلافة عثمان بن عفان ولي عبد الله بن ابي سرح العامري على مصر فاستأنف حركة الفتح (عام 26هـ) وامر عقبة بن نافع بالزحف في عشرة الاف جندي مالبثت الامدادات ان توالى عليهم في برقة وعلى راسها جماعة من الصحابة تجمعوا في الجرف قرب المدينة المنورة فاتجهت الحشود نحو طرابلس وافريقية قاصدة مملكة جرجير الممتدة الى طنجة تحت نفوذ هرقل فدارت معركة قرب سببيلة مات خلالها الوالي البيزنطي وتحقت جيوشه التي اوصلها البعض الى مائة وعشرين الفا وانبت الجند في انحاء الجنوب التونسي الى قفصة وفرالبيزنطيون الى الحصون واعتنقت افواج البربر الاسلام وفي مقدمتهم صولات الزناتي امير مفاوة ولم تكن للعرب رغبة في مواصلة الزحف بعد الخمسة عشر شهرا التي قضوها في هذه الفيافي فارتحلوا مقابل تعويضات باهظة .

ومرت نحو ثمان عشرة سنة (26 - 5 هـ) استمرت خلالها الحرب بين علي ومعاوية كللت باستتباب الخلافة الاموية في دمشق وقامت في نفس الوقت بافريقيا مشاحنات دينية ومعارك اثارها المسيحيون الافارقة المنضون تحت نفوذ رومة فلم يجد المسلمون كبير عناء في اكتساح افريقيا من جديد بقيادة معاوية ابن حديج (عام 45هـ) ووصل عبدا لله بن الزبير الى سوسة وعبد الملك ابن مروان الى جلولاء ثم بنزرت وتعززت هذه الجيوش بمائتي قطعة بحرية اثخن بها الخليفة في صقلية .

عقبة بن نافع

وكان عقبة بن نافع قد وصل قبل بضع سنوات (42هـ) الى غدامس بتخوم السودان فولاه معاوية امارة افريقيا (عام 50 هـ) واسس مدينة القيروان في غيضة خصبة تركيزا للحاميات الاسلامية على غرار البصرة والكوفة والفسطاط وكان هذا المعقل الجديد يراقب طريق مصر ويواجه جبال الاوراس حيث تمكن فلول البربر على اهبة التوثب وقد استكمل القائد العربي في خمس سنين تعمير هذه المدينة التي كانت النواة الاولى للحضارة العربية في الشق الغربي للعالم الاسلامي فبنى جامعها الاعظم وسورها ولكن مالبث ان عزل فخلفه ابو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد والى مصر الجديد (عام 55 هـ) الى القيروان فرمها ثم

قام بحملة عسكرية نحو الغرب لان شمال البلاد كان لا يزال في قبضة المبيزنطيين
فهزم الاعلاج والبربر في باغاية بشمال الاوراس ثم توغل في بلاد الجريد والزاب
ففتح تاهرت .

فتح المغرب الاقصى

وهنا بدأ عقبة الزحف عبر اقاليم المغرب الاقصى الى سبتة حيث اقتبله
يوليان الغمارى الذى كان واليا على اقليم الريف باسم قسطنطين الرابع
ابراطور بيزانس وقدم له هدايا واطلعه على عورات اسبانيا والبربر
فاقره في ولايته باسم الخليفة ثم فتح طنجة عنوة بعد استعصاء أهلها
وتقدم نحو وئيل بجبل زوهون (قصر فرعون) فاحتلها ثم الاطلس فقاتل المصلحة
في حروب عنيفة لم يخلصه فيها سوى زناتة التي كان المغراويون منها قد اسلموا
متذ الحملة الاولى ، وعرج على الحوز فدخل مدينة قفيس التي ظلت مع اقبان
اكبر مدن الجنوب (الى القرن الخامس حيث اسست مراکش) ثم درعة والسوس
وبعد احتلال اجلى انعطفت مثقلا بالسبايا نحو اسفى فادخل قوائم فرسه في البحر
رامزا الى رغبتة في مواصلة الزحف لاعلاء كلمة الله لولا هذا الحاجز وهنا اصطدم
بماشمى صنهاجة ثم مسوفة وراء السوس فائخن فيهم وعاد ادراجه بعد ان
جالت جيوشه في المغرب من الشمال الى الجنوب الاقصى .

تراجع عقبة ومقتله

قفل عقبة راجعا بعد هذه الفتوح الخاطفة الى القيروان ولاندرى هل تم
ذلك عن طريق مر تازة او عبر واحات منحدر الاطلس الصحراوى ويظهر أن
عقبة ارتكب غلطتين باستفزاز كسيلة الذى صحبه اثناء زحفه الى المغرب
وبتشيتت جيوشه في طريق العودة مما شجع حاميات تهودة وبادس على الايقاع
به مع زهاء ثلاثمائة من الصحابة والتابعين استشهدوا جميعهم وزحف كسيلة
في القيروان فاحتلها (عام 64هـ) بعصابات من الاوربيين وقبائل البرانس التي
لم يكن الاسلام قد تغلغل في سويدائها فتراجع واليها زهير بن قيس البلوى
الى برقة واستمرت امارة كسيلة خمس سنوات بسبب اضطراب شؤون الخلافة
بالشرق .

ولكن لم يكده عبد الملك بن مروان يستبد بالملك حتى جهز زهير البلوى

يجيش عتيد فرحف نحو القيروان (عام 69 هـ) وقتل كسييلة وانهزم البربر
فطاردهم العرب الى وادى ملوية حيث لجأت أوربة الى وليلى ويظهر أن زهيراً
اضطر لاسباب شخصية للعودة الى الشرق فصادف فى برقة الاسطول البيزنطى
الذى اغار على المدينة فجاهد فى صفوف المسلمين حتى قتل .

حسان بن النعمان

وازاء ارتداد كثير من البربر وانقسامهم انبرى عامل مصر حسان بن
النعمان الغسانى بأمر من الخليفة فرحف بأربعين ألف جندي نحو تونس حيث
احتل القيروان وفتح قرطاجنة عنوة وكانت هذه الحاضرة لا تزال تحتفظ ببعض
رواها القديم رغم تصدع معالمها وكانت الكاهنة داهية تنزعم جراوة
بالاوراس وتقود فتنة البربر ضد العرب لاسيما وان كثيرا من القبائل البربرية
انضمت اليها بعد مقتل كسييلة فحاربها حسان قرب وادى مليانة بناحية باغاية
وتيسة حيث انهزمت الجيوش الاموية وتراجع قائدها الى طرابلس انتظارا للمدد
فانتفض من جديد ودس لخالد القيسى الذى كانت الكاهنة قد تبنته لاستطلاع
اسرارها وشعرت القائدة بانتشار عقد البربر أمام الزحف الجديد فحالت
الحقول اليانعة الى صحراء واسترجع حسان قرطاجنة وواجه فلول البربر
الذين اصبحوا يقاتلون وحدهم لجلاء بيزانس عن افريقيا الشمالية بعد فقدانها
سيادة البحار فقتل الكاهنة 74 هـ وبعد أن تعقبها فى الاوراس وأسلم البربر
وامر حسان اكبر ولدى الكاهنة على جراوة ثم عاد الى القيروان واقام معالم
العمران ودواوين الخراج واسس بتونس دارا للصناعة السفن .

موسى بن نصير (77 - 98 هـ)

وكانت الفتوح لحد الآن عارضة حيث لم يحتفظ العرب بغير افريقية
وظلت امامهم مفازات عبرتها الجيوش الاموية دون ان تستتب حامياتها وكان
ذلك من حظ موسى بن نصير الذى توغل فى المغرب ففتح طنجة ثم انحدر الى
سهول الاطنتيك بعد ان عزج على سبتة فاستولى على مدينة شكومة الاوربية
قرب فاس ثم زحف نحو درعة وتاقيلالت فى حين توجه ابنه الى السوس وقد
انخذ طنجة مقر قيادته فولى عليها طارق بن زياد وانزل معه رهائن المضامدة وائتى

عشر الفا من البربر وسبعة وعشرين عربا لتعليم القرآن والفقهاء وبذلك انضم
برابرة المغرب عن بكرة ابيهم باستثناء جزء من الاطلس - الى الفاتح العربي
واعتنقوا الاسلام وكونوا اطر القيادة والولاية في البلاد فازدادوا تشبهاً بالفكرة
الدينية الجديدة بعد أن ارتدوا فيما قبل اثنتى عشرة مرة وقد اجاز طارق
الى الاندلس (عام 92 هـ) في ثلاثمائة من العرب ونحو عشرة الاف من البربر
فنزل جبل الفتح الذي سمي منذ ذلك العهد بجبل طارق ثم هزم لذريق بفحص
شريش والتحق به موسى من جهة الشرق معتزلاً بالعودة الى دمشق عن طريق
القسطنطينية بعد فتح اوربا المتوسطة غير ان الاوامر الخليفة استحثة فتوقف
عن الغزو وولى ولديه عبد العزيز على الاندلس وعبد الله على افريقية من حيث
توجه الى الشرق فتوفى هناك عام 98 هـ

وهكذا استغرق العرب ثلاثة ارباع قرن لبيسط نفوذهم على افريقيا الشمالية
وكان في وسعهم الاستيلاء على هذه الاقاليم في مدة اقل لو لم تحل دون ذلك النزاعات
التي قامت حول الخلافة في الشرق على أن سياسة الخلفاء منذ عهد عمر بن
الخطاب لم تكن متحمسة لهذه الفتوح في فيافي مجهولة فكان الزمان عاملاً
جوهرياً في الاقتناع بانعدام اية خطورة في توغل الجيوش العربية الى المحيط
الاطلنطيقي ومنه الى الاندلس لاسيما وان العرب عرفوا كيف يستفيدون من
تجانس البدو العرب مع المجتمع البربري فاستعملوا في فتوحاتهم الظاهرة المرونة
الدبلوماسية اكثر من قوة السلاح وملكوا بذلك القلوب دون ان يحتاجوا الى
تركيز حاميات موفورة ولعل حملة عقبة بن نافع على المغرب عبر مفازات مترامية
كان مظهراً للايمان الذي تسلمت به الدعوة الجديدة وللثقة المتناهية بالنفس وقد
استجاب البربر للاسلام وانضوت عدة قبائل تحت رايته فتفككت عرى التكتلات
العابرة التي ربطتها بالبيزنطيين وقد وفق حسان في الايقاع بالمراكز التي كانت
مقلاً لهذه التكتلات مثل قرطاجنة فانفسح المجال امام الزحف العربي الذي لم
يعد يصطدم الا بقلول هنا وهناك ممن لم يتح لهم تفهم مغزى الفتح العربي .

واصبح البربر شديدي التعلق بالاسلام والدفاع عن حوزته الى ان استبد
بعض الولاة العرب فحدا الخوارج النازحون من العراق قبائل البربر الى الثورة
باسم الاسلام ضد العناصر الزائفة عن المبادئ الديموقراطية والقيم المثلى التي
غرسها الدين الجديد في النفوس .

نعم تعاقب كثير من الولاة على المغرب بعد نكبة مال موسى بن نصير فتولى

محمد بن يزيد زهاء سنتين ثم اسماعيل بن عبيد الله المهاجر الى عام 101 هـ حيث خلفه يزيد بن ابي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي فسبدا البرابرة يتأهرون ضد الاستبداد الناشء حيث اعتزم يزيد احتذاء بمولاه الحجاج فرض الجزية على المسلمين فقتلوه ولم تكن هذه المبادرة بداية ثورة لان البربر مالبثوا أن عوضوا الوالى المقتول بسلفه محمد بن يزيد قولى بعده بشر بن صفوان الى عام 109 هـ ثم عبيدة بن عبد الرحمن فخلفه بعد سنوات ونصف عبيد الله بن الحجاج الذى اثار بتعسفاته موجة عارمة من السخط ادت الى ثورة البربر .

* * *

الفصل التاسع

البربر والخوارج

اصبح المغرب جزءا من دار الخلافة الاموية ، وتعاقب عليه الولاة المقيمون بالقيروان والذين لم يكونوا معززين بأكثر من مائة وخمسين الفا من العرب والمشاركة ، اجتاز منهم اربعون الفا الى الاندلس وانبث الباقون حول القيروان وكبريات حواضر افريقية ، كما اختير منهم حرس النواب الاقليسيين والواقع ان نسبة العرب الذين استقروا بشمال المغرب الاقصى كانت ضئيلة نزع معظمهم الى الاندلس فلم يؤثر وجودهم في العمران الاجتماعي ، وهكذا لم يكن الفتح الاسلامي استعماريًا ولا تعميرا استغلاليًا ، بل كان دعوة الى فكرة جديدة ، تبلورت في مبادئ الاسلام السمحة ، وقد ظل المغرب الاقصى بمعزل عن التيارات السياسية التي تمخضت عن قيام الدولة العباسية لان الامدادات الشرقية المتجددة لم تتعد المغرب الادنى ، على ان البربر اسهموا منذ الطفرة الاولى في فتح الاندلس وشاهدوا انبثاق العصبية العربية القديمة بين اليمانيين والقيسيين فاذا كانت هذه الحركة نعمة سلالية في نفوس البربر نمت وترعرعت بتدخل الخوارج في الحقل السياسي وقد اتسم هذا الاندفاع الثوري بسمة اسلامية اساسها الانتفاض على عناصر الفوضى والاستبداد من بعض الولاة العرب الانتهازيين الذين جعلوا من انفسهم جباة اموال لا رعاة للدين الجديد .

تعاقب الولاة

وكان تنائي المسافات وقلة وسائل المواصلات يحدو كثيرا من ولاة افريقية الى الاستقلال فعليا عن حاضرة الخلافة وتكثر في هذه الظروف الدسائس والمناورات فتسفر عن خلخ هذا وتولية ذاك وهكذا لم يكد الخليفة سليمان الاموى يعزل عبد الله بن موسى بن نصير حتى ولى مكانه محمد بن يزيد (عام 97 هـ) ثم نصب عمر بن عبد العزيز عاملا جديدا هو اسماعيل بن عبد الله بن ابي مهاجر (عام 100 هـ) حرص خاصة على نشر الاسلام ووجه الخليفة عشرة من التابعين لبث تعاليم الفقه السننى فتوطدت دعائم الدين فى المجتمع البربرى غير ان روح الاستبداد استعرت مع الوالى الجديد يزيد ابن ابي مسلم مولى الحجاج الثقفى الذى عينه يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر الثانى فاغتيل لشهر من ولايته (102 هـ) لاعتزاه نهج سياسة الحجاج فى العراق بفرض الجزية على المسلمين، ولما توفى الوالى الجديد بشر بن صفوان (103 - 109 هـ) عين هشام عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (110 هـ) فنصب من جهته أربعة ولاة تتابعوا على الاندلس ونكل بعمال خلفه فعزل (104 هـ) ثم جاء دور عبيد الله بن الحبحاب (I) فعين بدوره على طنجة والمغرب الاقصى عمر بن عبيد الله المرادى وعلى الجنوب ولسه اسماعيل وبالاندلس عبد الرحمن الغافقى بطل بلاط الشهداء وقد عمد عامل طنجة الى تخميس البربر (2) حيث فرض عليهم خمس أموالهم بدعوى انهم فىء للمسلمين متعديا فى ذلك الاعشار والزكوات الشرعية، وكان عامل افريقية يرسل الى الخلفاء بالمشرق البربريات المسيبات ، فتمخض هذا العدوان عن ثورة البربر .

الخوارج والثورة

فى وقعة صفين بين على ومعاوية طلب هذا تحكيم كتاب الله فاختلف اصحاب على لان بعضهم رأى فى ذلك خدمة واضطر على اخيرا الى قبول التحكيم،

(I) ابن الحبحاب هو الذى بعث حفيد عقبة بن نافع وهو حبيب بن ابي عبيدة الى السوس الاقصى فاحتله وبلغ تخوم السودان وغنم كثيرا من الذهب والفضة (الاستقصاء ج I ص 48)

(2) البيان المغرب فى اخبار المغرب لابن عذارى ، طبعة بيروت عام 1950

ج I ص 52 .

فاختار معاوية عمرو بن العاص ليمثله واختار أصحاب ابن أبي طالب أبا موسى الأشعري فظهر قوم من جند علي رأوا ان في التحكيم خطأ لان الحق واضح ولانه لا حكم الا لله وطلبوا من علي التراجع عما ابرمه مع خصمه فابى وجاء بالعهد فخرج الشائرون الى حروراء قرب الكوفة وسموا أنفسهم الحرورية أو المحكمة أى القائلين بان «لا حكم الا لله» فحاربهم علي بالنهر وان ولكن انهزمهم ندى كراهيتهم فى علي فدبروا مقتله على يد ابن ملجم وظلت الخوارج شوكة فى جنب الامويين تفرعوا فرعين احدهما بالعراق وفارس والاخر بجزيرة العرب ولم يخضد نفوذهم الا فى عهد العباسيين ، وكانوا يرون ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من جميع المسلمين قرشيين أو غيرهم حتى العبيد وان الخليفة يعزل اذا حاد عن الشريعة ومنهم من ارتأى عدم حاجة الامة الى امام وانما يكفى العمل التلقائى بكتاب الله وقد تفرقوا عشيرين فرقة غلا بعضهم وهم الازارقة (نسبة الى نافع بن الازرق) فكفروا جميع المسلمين عدا الخوارج، اما الاباضيون وهم المنتسبون الى عبد الله بن اباض الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الاول للهجرة ، فقد دعوا الى مسالمة الخوارج ومناكحتهم والتعايش مع الخليفة وبرز الطوائف الاخرى النجدات (اتباع نجدة بن عامر) الذين عارضوا الازارقة والصفورية (I) الذين لم يختلفوا كثيرا عن الاباضية ، وكان العرب البدو أكثر من اعتنق مبدء الخوارج اعجابا برأيهم الديمقراطى فى الخلافة على ان مذهبهم كان يتسم بالتشدد فى العبادة ، والاخلاص للعقيدة وقد انتشر فى المغرب الاباضية والصفورية عن طريق العراقيين نزحوا الى الغرب للدعوة الى اقامة دولة اسلامية على اساس نظريتهم فى الخلافة وقد صادفت هذه النظرية قبولا عند كثير من البربر الذين رأوا فى هذا الفهم للاسلام استجابة لميولهم التحررية وايدهم البرغواطيون ، فانتمقوا على ابن الحبحاب العجائر وقد قاد الثورة فى أحواز طنجة احد قادة الصفورية وهو ميسرة المضغرى (2) (عام 122هـ) الذى قتل عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وولى مكانه عبد الاعلى بن جريج الافريقى الرومى أحد ائمة الصفورية وبايعت طائفة من البربر ميسرة كأمير للمؤمنين فى شمال المغرب ومعظم سواحل الاطلنطيق حيث تنتشر نحلة طريف وولده صالح البرغواطى ، ولكن استبداد ميسرة حندا

(I) نسبة الى زياد بن الاصفر (فجر الاسلام 62I) أو عبد الله بن صفار

وقد ذكرهما صاحب القاموس .

(2) المدغرى حسب ابن غدارى (المغرب I ص 52) أو المضغرى الاستقصا

ج I ص 48)

البربر الى قتله (I) وتنصيب خالد بن حميد الزناتى الذى زحف ضده خالد بن حبيب الفهرى فاصطدم الفريقيان على وادى شليف (2) حيث قتل ابن حبيب فى وقعة الاشراف وقد انضم برابرة الاندلس الى الثورة وانتهى الخبر الى هشام فعزل ابن الحبحاب وولى مكانه كلثوم بن عياض (عام 123هـ) بعد أن جهزه باثنى عشر الف جندي من الشام وبفرق من ثغور مصر وبرقة وطرابلس فتجمع سبعون الفا زحفوا الى وادى سبو حيث دارت معركة عنيفة قتل فيها كلثوم فتبدد الجيش وتوجه أهل الشام الى سبته ثم اسبانيا (3) بامرة بلج بن بشر وعاد المصريون والافريقيون الى القيروان ولذلك انفسح المجال فى المغرب امام الخوارج وانفصل البربر على الخلفاء الامويين وحذا حذوهم برابرة الاندلس ، ولكن ثورتهم منيت بالفشل وخشى هشام امتداد الثورة الى افريقية فولى المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي الذى وصل عام 124 هـ الى القيروان فاصطدم بهوارة الصفرية وحالفة النصر فى معركتين حاسمتين بالقرن والاصنام على مقربة من المدينة (4)

فوضى البربر

تساوقت هذه الفوضى العارمة بالمغرب الاقصى مع الاضطرابات التى آثارها بتو العباس ضد الامويين فمرت فترة لم يحفل بها الشرق بماجرىات الغرب ، غير أن الادعياء صادفوا ميدانا خصبا فوطد صالح بن طريف دعايته بتامسنا بين سلا واسفى، وقد كان والده طريف من قواد ميسرة الصفرى فارتأى

(I) وقد ذكر ابن حيان ان ميسرة هو الذى هزم جيوش كلثوم بحيث لم يمت فى هذه الفترة وايدى ابن خلدون فى اخبار بنى فاتن حيث أكد ان ميسرة لم يهلك الا بعد وقعة سبو وان الذى خلفه فى رياسة مصفرة هو يحيى بن حارث (2) يرى طيراس التاريخ (ج I ص 100) ان هذه الوقعة دارت فى سبو لافى شلوف نظرا لبعدها عن مركز الثورة شمالى المغرب لاسيما وان المعركة الثانية دارت فى سبو وهذا التأويل لا يمكن ان يقوم حجة .

(3) بدعوة من زعيم الاندلس عبد الملك بن قطن الذى استنجد ببلج ابن اخى كلثوم لمواجهة النزعة الخارجية المستفحلة بالاندلس فانهى الامر بانهزام البربر وعزل ابن قطن واستيلاء بلج على الاندلس (ابن حيان) .

(4) يبالغ المؤرخون العرب فى زعمهم ان عدد قتلى البربر فى هذه الوقعة بلغ 180 الف نسمة .

بعد وفاة رئيسه المضغرى ان يدعى النبوة فانتحل مذهبا جديدا فنسب الى برغواطة (I) الغى بعض أركان الاسلام وشوه باقيها ووضع قرآنا من ثمانين سورة زعم انه وحى من الله .

وفى غضون ذلك استعاد العرب السيادة فى افريقية حيث انبرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع (2) ودعا لنفسه بالقيروان بعد أن جلا عنها الوالى الاموى حنظلة (127هـ) وتكونت دويلات خارجية بامارة صنهاجة فى باجة وبقيادة هوارة الاباضيين فى طرابلس والصفيرية بتونس فزحف عبد الرحمن وخضد شوكتها (135هـ) مطاردا فلولها الى تلمسان وبعد وفاته تقاتل خلفاؤه وتقاسموا افريقية والمغرب الاوسط فى نفس السنة (138هـ) التى دخل فيها عبد الرحمن بن معاوية الاموى الى الاندلس وقد ثار الورفجيميون الاباضيون واستولوا على القيروان ونكلوا باهلها وخربوا المساجد وقتلوا آخر بنى عقبة وهو حبيب بن عبد الرحمن (140هـ) تاركين أسوأ الاثار فى نفوس المسلمين مما حدا ابا الخطاب المعافى وهو من العرب الاباضيين بطرابلس الى الانتفاض معززا برجال زناتة وهوارة ضد الورفجوميين والنفزاويين فقتل زعيمهم وأثنى فى جموعهم واستولى على القيروان بعد ان ملك طرابلس وهو الذى ولى على افريقية ابن رستم الفارسى ، فكانت هذه الدولة الخارجية حاجزا جديداون دار الخلافة بالشرق العربى ، شجع الصفيرية من مكناس وهم بدورحل بين المغرب الشرقى وتافيلالت على تأسيس مدينة سجلماسة عام 140 هـ بامرة عيسى بن يزيد الاسود الذى كان اول ملوك بنى مدرار ومالبت ان عزل وتولى مكانه أبو القاسم بن سمكو (3) بن واسول (155هـ - 167هـ) الذى دعا للعباسيين واستمر المذهب الخارجى سائدا أزيد من قرنين (4)

(1) هى بطن من المصامدة حسب ابن خلدون .

(2) كان عبد الرحمن قد صاحب بلج الى الاندلس وعند مقتل عبد الملك بن قطن ثار هو مع جمهرة من العرب والبربر وقتل بلج وفر الى تونس عام 126هـ .

(3) يقال بان سمكو هذا من تلاميذ عكرمة مولى عبد الله بن عباس (تاريخ القرطبي) وكان عكرمة هذا بربرى الاصل (ابن خلكان) يرى رأى الخوارج على ما قيل .

(4) عادت هذه الدولة الى رفض مذهب الخوارج واندعوة للعباسيين أيام الشاكر بالله (347هـ) .

العباسيون في افريقية

وتلبية لاستصراخ عرب القيروان وجه المنصور العباسي محمد بن الاشعث الذي زحف على طرابلس باربعين الف جندي وقتل ابا الخطاب في سرت والتجأ ابن رستم عند اباضية الجزائر فبايعوه ، وبنى مدينة تاهرت 144 التي أصبحت عاصمة مملكة اباضية تستند الى برابرة لماية كما تأسست امارة صفريية أخرى في تلمسان على يد ابي قررة المغيلي ولي ابن الاشعث الاغلب بن سالم على افريقية فسار ضد ابي قررة الذي فر الى طنجة واستمرت سيادة العباسيين على القيروان رغم تخالف الخوارج ضد ولايتها ، وفي اواخر القرن الثاني بدأ مذهب الخوارج ينهار وانتشرت آثاره في بعض الاطراف .

* * *

الفصل العاشر

الإدارة

لم يكد ينتصف القرن الثاني حتى كانت افريقيا الشمالية موزعة بين عدة دويلات اسسها مهاجرون عرب ابن رستم فى الجزائر وجبل وفوسة و ابراهيم بن الاغلب فى افريقية وصالح فى نكور وعبد الرحمن الداخلى فى الاندلس علاوة على الامارات الخارجية فى تلمسان وسجلماسة وتامسنا (البرغواطيون) وهكذا استجابت معظم بلاد البربر لقادة مشاركة اقاموا ممالك جديدة باسم الاسلام تساوقت بينها علائق طيبة ففسح المجال لتركيز دعائم الاسلام وقرار النظام والامن .

وفى هذا الوقت استمر العراك بين الامويين والعباسيين فى الشرق وقام ضد الفريقين العلويون الذين كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة وقد ثاروا مرارا معززين بالجماهير وعند انهيار الحكم الاموى رشح بنو على للخلافة محمد المعروف بالنفس الزكية (I) وحضر عند البيعة ابو جعفر المنصور قبل انتقال الخلافة الى العباسيين وقد امتحن مالك وابو حنيفة لمساندتهما الامامة العلوية وقامت معركة شديدة فى المدينة المنورة بين محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى وبين المنصور

(I) هو ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على وكان له اخوة من بينهم ابراهيم ويعقوب وسليمان واذريس .

العباسي اسفرت عن مقتل الخليفة العلوي (عام 145 هـ) واستمرت المناوشات الى عام 169 هـ حيث شبت وقعة الفخ على ثلاثة اميال من مكة بين موسى الهادي بن محمد المهدي ابن المنصور والحسين بن علي ابن الحسن المثلث فقتل وفر المولى ادريس الى مصر ومنها الى المغرب الاقصى بمساعدة بعض الشيعة (I) صحبة مولاة راشد فنزل بمدينة وليلي (عام 172هـ) (2) ضيفا على رئيسها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي البربري الذي بايعه وانخلع من طاعة العباسيين وقبيلة اوربة من الفلول التي نزحت على الاوراس بعد مقتل كسيلة واستقرت بوليلي التي يظهر انها هي قصر فرعون الروماني وقد تعززت مبايعة الاوربيين وهم من اعظم قبائل البربر بانضمام سبلماسة وزناتة وزواغة وزواوة وصدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة فالتفت بذلك حول الامام الجديد كافة العناصر البربرية التي كانت ترى فيه سليل الرسول ولم تكن السنية ولا الشيعية قد تبلوروا ، آنذاك كمنهذب في المغرب الاقصى ولعل الخوارج كان أثرهم قد تقلص ولذلك اتجه المولى ادريس خاصة الى غزو تامسنا ومنها شالة فاسلم من كان بها من يهود ونصارى ووثنيين ثم خرج (173هـ) لاستكمال دعوته في تازة وجنوبي فاس وفازاز ثم تلمسان (3) فاستسلم له زعيم مغراوة محمد بن خزر الذي جعل حدا قبل بضع سنوات لامارة ابي قرة الصفرية وكان سليمان اخو المولى ادريس قد سبقه الى تلمسان حسب ابن خلدون (4) وبذلك امتدت منطقة نفوذ المولى ادريس الى شمال المغرب (عند مملكة تكور في سواحل الريف) وناحية تازة وسهول المحيط الاطلسي الى مصب ابي رقراق وجنوبي مكناس وفاس الى تادلة وسبو علاوة على تلمسان ، وقد يتساءل الانسان لماذا حارب بربر زناتة محاولات تسرب الولاة العباسيين في المغرب الادني في حين تفتحوا للنفوذ الادريسي ؟ فهل كان المغراويون قد ملوا المقاومة ام هناك تحالف ضمنى ضد العباسيين ؟ من الصعب

(I) وهو واضح المسكين القائم على البريد العباسي بمصر (ابن خلدون)

(2) حكى صاحب القرطاس قصة رحلة المولى ادريس من مصر الى وليلي عن

طريق برقة ثم القيروان في زى التجار ثم توجه الى طنجة عبر وادي ملوية .

(3) في هذه السنة اي عام 174 هـ بنى المولى ادريس مسجد تلمسان واسس

منبره وخط اسمه في صفحته وشاهده ابن خلدون في القرن الثامن وقد بقيت منارته

قائمة الى عام 1937 في جنان يحيى اكادير وقد بنيت مكان المسجد

(4) يتناقض ابن خلدون حيث اكد في أخبار بني العباس ان سليمان مات

في وقعة الفخ وكذا أبو الفداء .

الجواب بدقة عن هذه التساؤلات ولكن الواقع هو ان قبائل متغايرة المعتقد والمنزوع التفت كلها لأول مرة فى تاريخ المغرب حول سليل الرسول المولى ادريس .
وقد خشى هارون الرشيد أن تمتد شبكة النفوذ الادريسي الى افريقية فوجه الى المغرب بواسطة ابراهيم بن الاغلب امير القيروان مبعوثا خاصا هو سليمان بن جرير الشماخ زعم انه من دعاة الشيعة الخارجين عن الدعوة العباسية فقربه المولى ادريس لظرفه وأدبه واستغل هذه الزلفى فسممه فى قارورة طيب وفر عائدا الى الشرق فمات المولى ادريس فى مهل ربيع الثانى عام 177 هـ

المولى ادريس الثانى

وكانت كنزة سرية الامام الراحل حاملة فجمع راشد رؤساء البربر وقرر انتظار المولود وتنصيبه مكان والده اذا كان ذكرا رغبة فى الحفاظ على سيادة آل البيت وولد ادريس الثانى فقام راشد (I) بولاية العرش ثم مات فسهر على كفالة الصبى ابو خالد يزيد بن الياس العبدى الى ان بلغ المولى ادريس الثانى نحواً من احدى عشرة سنة فبايعه البربر (188هـ) فى جامع مدينة ولى بعد ان توالت بيعتهم فى مراحل صباح وورد على الامير الفتى خمسمائة فارس عربى من افريقية والاندلس فجعل منهم حرسه الرسمى واستوزر عمير بن مصعب الازدى كما استقضى عامراً القيسى وهو من تلاميذ الامام مالك واستكتب عبد الله الخزرجى فكانت هذه المجموعة هى النواة الاولى لتعريب المغرب بعد توطيد اسلامه وقد شعر المولى ادريس بانحراف اسحق الاوربى عنه وموالاته الاغلب فقتله (عام 192هـ) .

وقد تكاثرت الوفود المنضوية تحت لواء المملكة الجديدة فضاقت عاصمة ولى واختط الامير مدينة فاس قرب العيون النابعة من الوادى المعروف اليوم بوادى فاس فى غيضة كان يسكنها زواغة وزناتة فاشتراها ادريس وشرع فى بناء عدوة الاندلس عام 192هـ ثم اختط فى العام التالى عموة القرويين واقام دورها وبنى فى الاولى جامع الاشياخ وفى الثانية جامع الشرفاء ثم اسس مسكنه فى «دار القيطون» ثم القيسارية والاسواق وسميت عدوة القيروان باسم العرب الوافدين عليها من القيروان وهم ثلاثمائة كما سميت الاندلس بمن هاجر اليها

(I) يقال ان ابراهيم بن اغلب هو الذى دس بأمر من الخليفة العباسى عن يقتل راشدا عام 186هـ او عام 188هـ على قولين

من الربضييين الذين اجلاهم الحكم بن هشام عن الاندلس وهم بضعة آلاف
عائلة (I)

وقد اكد ابوبكر الرازي (المتوفى عام 344هـ) ان باني مدينة فاس هو
ادريس الاول في المدة المتراوحة بين سنتي 172و174هـ ونقل ابن فضل الله
العمري في مسالكة عن ابن سعيد صاحب المغرب ان ادريس الاول انما اسس
عدوة الاندلس كما لاحظ ابن الابار نقلا عن ابن الحسن النوفلي ان عدوة القرويين
اسست عام 187هـ على يد المولى ادريس الثاني وهذه الروايات تتضافر لاسيما
وان هنالك نقودا ادريسية عثر عليها ضرب درهم منها عام 189هـ بفاس قبل
التاريخ المتداول لبناء المدينة وهذا الدرهم محفوظ حسب ليفي بروفنصال (2)
في المكتبة الوطنية بباريس بل هنالك في متحف كاركوف بروسيا درهم ادريسي
مسكوك بفاس يحمل تاريخ 185 هـ (3) وهذا يفسر لنا نوعا ما هذه الازدواجية
الملحوظة بين العدوتين ومهما يكن فقد اتخذ المولى ادريس المدينة الجديدة دار
ملكه اقام بها الى عام 197 هـ حيث غزا بلاد المصامدة واحتل مدينتي نفيس وأغمات
وبعد سنتين توجه الى تلمسان حيث اقام ثلاث سنوات فجدد الزناتيون بيعة
والده واعاد الامير بناء المسجد وترميم المنبر .

وقد وفق المولى ادريس في اختيار موقع المدينة التي كان يفصلها نهر
يمد بالمياه العذبة ويسمى الجنان والحدائق قبل الانصباب في وادي سبو وكانت
الناحية خصبة لان بلاد الساييس تعتبر من اجود الاراضي الفلاحية المغربية على
ان وجود فاس بين الريف والاطلس يجعل منها مركزا اقتصاديا ممتازا يزداد
اهمية باشرافه على ممر تازة الواصل الشرق بالغرب ففاس هي مفترق الطرق
الكبرى بين الجزائر وسهول الاطلنطيق وسواحل الريف وصحراء الجنوب فلهذا
كانت فاس كما يقول كوتبي آية في الاقتباس من الشرق لانها ظلت طوال قرون

(I) أربعة آلاف حسب عبد الملك للوراق وثمانية آلاف حسب دوزي (تاريخ
مسلمى الاندلس 1932 ج I ص 301) أو ثمانمائة حسب هنري طيراس السني
يظهر أنه أسقط صفرا ربما بحجة عدم التوازن مع عدد القيروانيين تاريخ
المغرب ج I ص 118)

(2) في كتابه «تأسيس فاس» حيث اودع مجموع النقول المذكورة

(3) اشارة اليه لافوا عام 1891 حسب برو فنصال وقد أشار الحسن بن
محمد النوزان المعروف بليون الافريقي الى سنة 185 هـ كتاريخ لبناء فاس في
جغرافيته .

مهبط الرواد من الشرق والاندلس ومركزا انشقت منه اول جامعة اسلامية في العالم .

وقد توفي المولى ادريس في سن مبكرة عام 213 (I) شارقا بحجة عنب اودت بحياته التي كانت تبشر بازهر المنجزات .

خلفاء المولى ادريس

ترك المولى ادريس عدة اولاد عهد من بينهم لمحمد الذي قسم المغرب بين اخوته استجابة لجدته كنزة فاخص القاسم بطنجة وسبتة وتطوان وقصر مضمودة ويحيى باصيلا والعرائش والبصرة وبلاد ورغة وعمر باقليم صنهاجة وغمارة وداود بهوارة والتسول وتازة ومراكز مكناسة وغيانة وعيسى بشالة وتامسنا الى ازموور وحمزة بوليلي وما والاها وعبد الله باغمات وجبال المصامدة ولطمة والسوس الاقصى . وظلت تلمسان في حيازة بنى سليمان بن عبد الله بينما احتفظ المولى محمد بحاضرة فاس مع كفالة صغار اخوته (2) ويظهر من هذا التقسيم ان المملكة الادريسية شملت معظم المغرب وفي ضمنه قسط كبير من الاطلس (3) .

غير ان هذه التجزئة ما لبثت ان فتت في عضد الوحدة حيث ثار عيسى على اخيه محمد الذي امر القاسم بقمع الثورة فامتنع وتصدى لذلك عمر وضم الى امارته الاقاليم الخاصة لاخويه عيسى والقاسم فجمع بين مراكز تمتد من

(I) وقد أكد البرنسي (الاستقصا I ص 75) انه توفي بوليلي ودفن الى جنب ابيه .

(2) هنالك فرق بين رواية البكري ورواية ابن خلدون وقد اعتمدنا على الثانية التي ضخمت امارتي داود وعبد الله وقد زاد صاحب القرطاس اسما آخر هو احمد ضم اليه فازاز ومكناسة وتادلة كما اضاف الى حمزة ناحية تلمسان .

(3) ولكن لا ذكر لما وراء ازموور من سهول الاطلنطيك الا ما ورد في عبارة تاريخ ابن خلدون « واختص عيسى بشالة وسلا وازموور وتامسنا وما الى ذلك من القبائل (مجلد 4 ص 28 طبع لبنان) فهل يدخل ما وراء ازموور تحت قوله « وما الى ذلك من القبائل » وقد أشار صاحب جذوة الاقتباس الى أن عمل الادارسة كان من السوس الاقصى الى وهران وقاس ثم البصرة (ص 110) .

الريف الى نهر ام الربيع وقد اتسمت هذه المقاطعات بمناعة عسكرية وبنوع من الاستقرار حيث عقد لعلى عليها بعد وفاة والده عمر (220) هـ .

وبعد سبعة أشهر توفي محمد 221 هـ بعد أن عهد لابنه على الملك بـحيدرة وهو ابن تسع سنين فالتف حوله البرابرة وازدهرت الحياة وانتشر الامن فى عهده ازيد من اثنتى عشرة سنة ولما توفي (234هـ) تولى اخوه يحيى فازداد العمران نموا لا سيما فى فاس حيث انقلبت العدوتان البدويتان الى حاضرة مجهزة بالحمامات والدور التجارية ويظهر أن نطاقهما كان قد ضاق بالمهاجرين من افريقية والاندلس فانتشر الناس فى الارباض وبنوا دورا وسط الحدائق والجنان وفى هذه الفترة (245هـ) اسست أم البنين فاطمة الفهرية النواة الاولى لجامع القرويين وبعد سنوات اقامت اختها مريم مسجد الاندلس .

ثم خلف يحيى بن محمد ولده يحيى الثانى فعاث فسادا وراود فتاة يهودية دخل عليها الحمام فثار الجمهور بايعاز عبد الرحمن الجذامى ولجأ يحيى الى الاندلس حيث مات غما فى نفس الليلة واستولى الجذامى على الحكم فاستنجدت عاتكة بوالدها على بن عمر أمير الريف الذى هب بجيشه فمد نفوذه الى اقليم فاس لانقراض عقب يحيى وفى هذه الغضون ثار عبد الرزاق الفهرى أحد قادة الخوارج الصفرية بجبل مديونة جنوبى فاس فاحتل صفرو وزحف نحو المدينة وبعد قتال عنيف فر الامير على بن عمر وظل القيروانيين يقاومون وحدهم فاستدعوا يحيى بن قاسم العوام الذى هزم الخارجى الثائر وولى على عدوة الاندلس احد المهاجرين الربضيين ثم قاتل الصفرية واستمرت امارته بفاس الى 292 هـ حيث قتل فانتصب بعده يحيى بن ادريس بن عمر الذى استصفى جميع الامارات الادريسية واخضعها لسلطته وقد امتاز هذا الامير بالحكمة والعدل وسعة الثقافة وتوطدت فى عهده الدولة الادريسية الموحدة :

ما ثمر الادارسة

وكان من بين القيروانيين والاندلسيين الذين نزحوا الى فاس ادباء وعلماء وتجار ومزارعون مهرة مالبثوا ان نشروا افكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطويرية حضارية طبعت مختلف مظاهر الحياة المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به فى مجتمعاتهم واقتصادياتهم لاسيما وان المغرب عرف لأول مرة بعد الفتح الاسلامى عملة وطنية موحدة سكنت بفاس منذ عام

185 هـ وقد لعب الدرهم العربى دورا مهما فى المغرب قبل هذا العهد حيث عشر فى ولىلى عام 1952 على مائتين وواحد وثلاثين درهما فضيا ودينارا ذهبيا يتراوح تاريخ ضربها بين سنتى 125 و79 هـ . وقد تحرر المغرب من القيود الجبائية فتتنفس الناس الصعداء وانطلق الاقتصاد من العقال الذى كان يخنقه فازدهر (I) وانتظم وأصبح «منطقيا قارا» (طيراس) وكان الاقتصاد فلاحيا فى جوهره : سوائم وزروع وفاكهة واذا استثنينا الصحراء القاحلة نجد ان الجنان والغابات كانت تغطى مقاطعات مترامية الاطراف حتى فى الاطلس الذى وصف ابن حوقل وابن خلدون ثرواته الضخمة وكان الطابع الحضارى يعوز المغرب لان المدن الازلية المتهدمة لم تكن من قبل حواضر متماسكة بل مجموعة دساكر، وقصور اللهم الا فى الشمال حيث احتلت مملكة نكور الغربية منذ أواخر القرن الاول بالحضارة المعمارية الاموية فقد اسس سعيد بن صالح بن منصور الحميرى امير نكور مسجدا عظيما مع مرافق اقتبس معالمها من جامع الاسكندرية .

وهكذا بدأت النواة الحضارية العربية الاولى تتسرب الى المغرب من الشرق والاندلس .

(I) يظهر ان التجارة مع الخارج كانت ايضا مزدهرة حيث اكاد ابن خرداذبة فى القرن الثالث ان التجار الصقالبة الذين كانوا ينتقلون فى كثير من مناطق العالم وصلوا الى السوس الادنى اى المغرب الشمالى عن طريق طنجة ومن هناك كانوا يتوجهون نحو افريقية ومصر .

الفصل الحادي عشر

المغرب بين الفاطميين والامويين

لما انقرضت امارة الاغالبة او اخر القرن الثالث بافريقية اسس الفاطميون بمساعدة كتامة أول دولة شيعية بالمغرب تأمرها عبيد الله المهدي الذي طمع في مد شبكة نفوذه من افريقية الى المغرب الاقصى فوجه قائده مصالة بن حبوس المكناسي والى تاهرت عام 305 هـ حيث عرج على مملكة نكور في زحفه ضد فاس واصطدم بيحيى بن ادريس الذي تعزز جيشه بالعرب والبربر الاوربيين والموالي فانهزم الادارسة وانصاعوا لسيادة الفاطميين الذين تركوا يحيى بفاس وعقدوا على بقية المغرب لموسى بن ابي العافية المكناسي سيد التسول وتازة وقد تازمت العلاقات بين البرابرة فسعى موسى بخصمه لدى مصالة عند وروده على المغرب من جديد بعد أربع سنوات فخلعه ونفاه الى اصيلاو من هناك حاول التوجه الى افريقية للاتصال بالامام الفاطمي ففضى في طريقه نحو من عشرين سنة (I) بلغ بعدها المهديّة حيث مات أيام حصار ابي يزيد (بوحمارة) اليقرنى الخارجى لها

• (332هـ)

الادارسة بالجبل

وفى هذه الفترة (310هـ) ثار بفاس الحسن الحجّام حفيد القاسم بن ادريس

(I) يقال بأن موسى سجنه طوال هذه المدة

فاجلج عاملها ربحان واستعاد نفوذ الادارسة من فاس الى البصرة وقاتل ابن ابى العافية فانتصر عليه مرارا ولكنه انهزم فى الاخير والتجأ الى فاس حيث غدره عامله الاوربى بعدوة القرويين معتزما تسليمه لموسى ثم بدا له فسرح الحجام الذى توفى من جراء جروح بعد فراره(313هـ) (1) واستعاد موسى المدينة ونكل بانصار الادارسة الذين اجلوا الى قلعة النسر بالجبل ثم ملك تلمسان ونكور وامارة بنى عصام بسببة فانتظم المغرب والجزائر تحت نفوذه

غير انه ما لبث ان انضم الى الدولة الاموية بالاندلس فدعا للناصر منتقضا على الفاطميين الذين جهزوا جيوشهم لمحاربتة بقيادة حميد المكناسى اخى مصالة وظل المغرب يتأرجح بين الشيعة والامويين فى معارك موصولة ادلى ادارسة الجبل بدلوهم فيها الى ان مات ابن ابى العافية (350هـ) وانقرضت دولته بعد زهاء عشر سنوات وكان ميسور الخصى قد اقصى موسى وذويه عن فاس الى الصحراء منذ عام 323 هـ فى حين اقام الادارسة بالريف وتوالى امرؤها على معظم المغرب فملك القاسم كنون أخوالحسن الحجام (337هـ) ثم ولده أبو العيش ثم احمد الفاضل الذى مال الى المروائيين فاضطر الى التنازل لعبد الرحمن الناصر عن طنجة بعد سببة فانحاز الى البصرة وولى الناصر على فاس اميرا مغراويا لما اظهرته زناتة من انحياس الى الامويين كما ولى زناتيا من بنى يفرن على طنجة وقد استشهد ابو العيش فى الجهاد بالاندلس (348 هـ)

جوهسر الصقلى وانقراض الادارسة

وكان رد فعل المعز الفاطمى ضد انصواء المغرب تحت راية الامويين توجيه قائده جوهسر الصقلى فى عشرين ألف فارس من كتامة وصنهاجة عام 347هـ فاصطدم فى تاهرت ببعلى اليفرنى والى طنجة الذى قتل فى التحام عنيف (2) ثم توجه الى سجلماسة واميرها اذ ذاك ابن مدرار الشاكر لله الذى اعتنق المذهب المالكى ونحى الصفرية فحاصرها واسر الامير المدرارى وزحف نحو فاس(349هـ) فاقتحمها

(1) فى هذه السنة ظهر فى غمارة حاميم المتنبى الذى اختلق قرآنا وسن شرائع على نمط البرغواطيين فقتله جيش الناصر الاموى بقصر مصمودة بعد سنتين من ظهوره .

(2) ويرى ابن خلدون أن يعلى أذعن منذ البداية لجوهسر الذى دس من اغتاله فاتخذ بنو يفرن ولده أميرا .

بمساعدة زيورى بن مناد الصنهاجى وهدم الاسوار وقبض على احمد الزناتى والى
الناصر الاموى ونهب ونكل ثم انتشرت جيوشه طوال ثلاثين شهرا فى كثير من
انحاء المغرب لبيت الدعوة العبيدية عائدا بعد هذه الحملة الارهابية الى المهديّة
دار الخلافة المعزية (I) .

وقد منى الحسن كنون الذى خلف اخاه ابا العيش فى حاضرة البصرة
بمحنة قاسية تارجح فيها بين مبايعة العبيديين ثم الانتقاض عليهم والدعوة
للناصر والحكم المستنصر ثم الرضوخ من جديد لقائد الفاطميين بلقين بن زيورى
ومواجهة الثار الاموى فى حرب عارمة شب اوارها باحواز طنجة عام 362 هـ فقتل
فيها القائد المروانى محمد بن طملىس وامن الحكم الفلول المنهزمة بمولاه غالب
ففر الحسن الى حجر النسر قرب سبتة حيث حوضر ونقل مع اهله والامراء
الادارسة الى قرطبة وانصاع المغرب من جديد للنفوذ الاموى .

ولكن الحكم مالبت ان اجلى الحسن وعشيرته الى مصر فنزل بها على نزار
ابن المعز العبيدى حيث اقام من عام 365 هـ الى 373 هـ فعقد له على المغرب وأمر
عامله بافريقية بلقين بامداده بالجيش للعودة الى بلاده حيث التفت حوله كثير
من القبائل فاوفد المنصور بن أبى عامر القائد عسكلاجة ثم ولده عبد الملك
فاستأمن الحسن ونقل الى الاندلس فقتله المنصور فى الطريق (375 هـ) وكان
آخر الملوك الادارسة بالمغرب حيث استمر حكمهم زهاء مائتى سنة غير أن النفوذ
الادريسي وجد نوعا من الانتفاض فى الاندلس فى شخصى على والقاسم ابنى
حمود (سبط عمر بن ادريس) اللذين ساهما فى الاضطرابات التى أدت الى سقوط
الدولة الاموية وقيامهما فى مالقة علاوة على طنجة وغمارة وقد خلع الحموديون
على انفسهم لقب الخلافة واندرجوا بعد ذلك فى سلك ملوك الطوائف وكان سكوت
البرغواطى عاملا من طرفهم على طنجة حيث سيقته المرابطون .

الامارة الزناتية

وكان الامير اليفرنى من بين زعماء البربر الذين انقادوا للحسن كنون
بينما انضم المغراويون الى خصومه العامريين الذين ولوا على البلاد بعد نكبة

(I) ومع أسيران هما أحمد الزناتى والشاكر لله اللذان ماتا فى سجن

المهديّة .

الإدارة الوزير الحسن السلمي (381هـ) (I) فبنى وجدة (384هـ) واتخذها حاضرة ملكه وتأزمت روابطه بالمنصور فطرد عماله من المغرب وجهاز قرطبة جيشا بقيادة واضح هزمه زيري فتوافدت الامدادات بامارة عبد الملك المظفر بن المنصور واستعزت الحرب قرب طنجة كانت الغلبة فيها للعامريين الذين تعقبوا زيري الى مكناسة ففر منها الى فاس ثم الى الصحراء وانفسح المجال امام المظفر الذي اقتحم العاصمة الادريسية (387هـ) فهش اهلهما في وجهه واضغضت امارته على المغرب في تلك الفترة كان زيري قد زحف على تاهرت وتلمسان ودعا للمؤيد هشام الاموي سجين المنصور وتوفي في حصاره لأشير (391) فخلفه ابنه المعز الذي انصاع للعامريين فنصبه المظفر بعد وفاة والده اميرا على المغرب (393هـ) ثم استقام الملك لابن عمه حمامة بن المعز بن عطية (422هـ) وكانت مراسم الخلافة قد اختلفت بالاندلس (2) فاستقل المغراويون بالحكم ولكن اليفرنيين طفقوا يناوئونهم اذ لم تمض سنتان على سيطرة حمامة حتى زحف ابو الكمال تميم نحو فاس وهزم الامير المغراوي واستولى على كثير من النواحي المغربية فاستنفر حمامة في وجدة وتنس بالمغرب الاوسط حشود الزياتيين وعاد الى فاس (429هـ) فجلا عنها خصمه نحو مقر امارته بشالة من حيث واصل جهاده ضد البرغواطيين وخلف حمامة نجله دوناس الذي انتصر على ابن عمه حماد عام 435 هـ فانتشر الامن والرخاء واتسعت ارباض فاس ونما عمرانها وانتجعها التجار وبعد وفاته (452هـ) تذازع ابناه الفتوح وعجيسة فتطاحت العدوتان واختلفت موازين الاقتصاد المغربي من جديد بانتشار الاضطراب وانتهت الحروب بتخية الفتوح وهنا ظهر اللمتونيون وتزايد الهرج بزحف امير قلعة بني حماد الجزائرية ضد

(I) في محاربة الامير اليفرني المذكور يدو بن يعلى السدي كان على شالة وسلا وتادلا وتنافس السلطة بفاس مع زيري حتى قتله هذا الاخير عام (383هـ) فصفا له ملك المغرب .

(2) انهارت الدولة الاموية بالاندلس عام 407 هـ تحت ضربات الدويلات المسيحية مثل قشتالة ونافار وبرشلونة وقيام ملوك الطوائف على اثر اختلاس العامريين للحكم على أن محاربة الشيعيين في افريقيا الشمالية عجلت بتفوق الحكم الرواني رغم احتلال مراكز مغربية مثل سبتة وطنجة ومليلية والتحالف مع خصوم العبيديين من البربر كمغراوة الذين ظلوا على حسن العهد للخليفة عثمان في شخص الامويين .

المغرب (454هـ) فتنازل الفتوح من تلقاء نفسه عن العرش وتآمر معنصر بن حماد مواصلا نضاله ضد يوسف بن تاشفين الذي قتله في حصار فاس (460هـ) غير ان الفاسيين تابعوا محاربة الدولة الناشئة فنصبوا تميميا خليفة عن والده وكابدوا الامرين من حصار موصول تخللته فتن ومجاعات وكان ابن تاشفين منهمكا اذ انذاك في فتح غمارة ولكنه ما لبث ان اقتحم فاسا (462هـ) ونكل بالمغراويين واليفرنيين وفي ضمنهم تميم الذي انقرضت بهلاكه الدولة المغراوية بعد ان استمر نفوذها نحو من مائة سنة .

وهكذا يتجلى من هذه الفذلكة الصاخبة أن المغرب عرف بين انهيار حكم الادارسة بفاس وقيام المرابطين فترة استمرت نحو من مائة واربعين سنة اتسمت بشيء غير قليل من اللبس والغموض اذا قورنت بالعصور التاريخية (I) الاخرى نظرا لتوالي التقلبات تحت تأثير الغارات المتلاحقة من طرف الفاطميين والامويين وتجاذب هؤلاء للادارسة والعافيين والزنااتيين في خضم من الفوضى العارمة التي جعلت المغرب احوج ما يكون الى زعيم صالح يوحد البلاد وينشر الامن والرخاء مثل ابن تاشفين .

(I) هذه الفترة هي التي عنها كوتبي في كتابه « العصور الغامضة بالمغرب »

الفصل الثاني عشر

المرابطون

مرت أربع قرون على الفتح العربي ظل المغرب موسوماً خلالها علاوة على الطابع الاسلامي الجديد - بتقسيمات قبلية تجاذبت اقاليمه المتراصة على نسق موصول لم يطرأ عليه تعديل محسوس وبالرغم عن غموض المؤرخين يمكن ان نستخلص من مقارنة النصوص ان القبائل الكبرى التي عرفها المغرب قبل الاسلام ما زالت تحتفظ باعصاب جاهلية تلقى اضواء كشافه على الانقلابات السياسية التي سيعرفها المغرب ازيد من ثلاثة قرون تداولت فيها تلك الفصائل السلالية حكم البلاد ضمن نعة قبلية واضحة فالمصامدة شكلوا اغلبية سكان الاطلس الكبير مع قسم من الغرب في حين استوطن الصنهاجيون الاطلس الصغير وجنوبي السوس الى درعة والواحات الصحراوية على ان التزاوج نسي مع الزمن تداخل العنصرين المصمودي والصنهاجي لاسيما في التخوم الفاصلة بين الاطلس والصحراء اما الزناتيون الذين قام اليفرنيون والمغراويون منهم بدور سياسي خلال القرن الماضي فقد انتشروا في السهول مع بني فاتن في الجبال الشمالية ومكناسة بالملوية وتازة واما العرب فقد انتشرت فلولهم القليلة في الريف والصحراء وبعض الحواضر مثل سبتة وفاس وسجلماسة والملاحظ ان المناطق التي كانت مناط الهجرة العربية كشمال المغرب منذ قيام مملكة تكور او اخر القرن الاول والواحات منذ تسرب الخوارج العرب الى صحراء تافيلالت - أصبحت نواة للامتزاج السلالي بين القبائل البربرية الثلاث من جهة والشرقيين من جهة

ولم يقم الفاتح العربي بأى مجهودٍ موصول لاقرار اللغة العربية اللهم الا عن طريق تدريس القرآن ونشر الفقه باستثناء المراكز التي استتب فيها نفوذ بنى صالح وبنى ادريس في الشمال الى فاس ولكن هذه الشبكة ستعتمد جذورها في أغلب الحواضر في العهد المرابطي حيث ستصطبغ الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الفكرية بطابع طريف لم يكن للمغرب به عهد قبل ان تتطور المبادلات في القرن الخامس بين العدوتين بقيادة اللمتونيين .

نشأة المرابطين

المرابطون ينتسبون الى صنهاجة البرنسية التي تشكل نحو ثلث البربر والتي يندرج فيها نحو سبعين قبيلة منبثة في جميع أنحاء افريقيا الشمالية لاسيما الجنوب الاقصى للسودان وقد سبق للصنهاجيين أن أسسوا دولة بنى زيري في افريقية كما قام في الصحراء المغربية من اللمتونيين امراء توارثوا الرياسة بعد الفتح الاسلامي ونشروا الدين الجديد الى تخوم السودان وانبرى منهم محمد بن تيفاوت الذي خلفه يحيى بن ابراهيم الكدالي الى عام 427 حيث استخلف ولده الامير ابراهيم وارتحل الى الحج فاتصل في طريق العودة في القيروان بابي عمران الفاسي ورجامنه تزويده بعالم لنشر تعاليم الاسلام في الصحراء المتعطشة الى التفقه في الدين فاستعصى ذلك على تلاميذه ولكن ابنا عمران دله على تلميذ له بالاطلس الكبير هو واجاج بن زلو اللمطي الذي كانت له مدرسة في بلد نفيس فانتدب هذا العالم المصمودي تلميذه عبد الله بن ياسين الجزولي الذي صحب الامير الصنهاجي الى الصحراء حيث دعا الى القرآن والسنة واقام معالم الدين وآداب الشريعة فاستصعب الناس هذه المثالية لما جبل عليه طبع الصحراويين آنذاك من انسياق مع الغرائز والاعراف المسفة فانحاز الرجلان (I) الى جزيرة قرب مصب نهر النيجر مع سبعة من الكداليين من بينهم أبو بكر ابن عمر فبنى رابطة ما لبثت أن أصبحت بعد بضعة أشهر مهبطا لرواد تزايد عددهم فبلغ الالاف سموا بالمرابطين اضطلعوا بمراسم الدين وفقه السنة فتكونت منهم اطر عملية للدعوة وعاد كل رجل الى عشيرته يحمل رسالة خالدة هي تحقيق الاصلاح ولكن هذه المامورية التي عززها ابن ياسين بدعوة شخصية

(I) يرى ابن خلدون ان اعتزال ابن ياسين في الرابطة كان بعد وفاة يحيى الكدالي .

لم تؤت أكلها فتقرر نشر السلغية بالجهاد وانصاعت القبائل وطبقت بنود الشريعة وتأسس بيت المال من موارد الزكوات والاعشار وتشكلت جيوش مجهزة بالعتاد الواقر غزت القيافي ونشرت الهدى والرشاد .

ومالبت يحيى بن عمر اللمتوني ان انتصب بدافع من ابن ياسين خلفا لابن ابراهيم المتوفى وكان ابن ياسين هو المتصرف الحقيقي فى جميع شؤون الدولة من اقتصاد وسياسة تاركا قيادة الحزب للامير اللمتوني الذى اعزز سلطاته بامتلاك عموم الصحراء واقتطاع اطراف السودان واستنجد درعة وسجلماسة (445 - 447 هـ) بالزعيم المرابطى ضد عسف المغراويين الذين قتل اميرهم مسعود بن وانودين واستوصلت معالم الفساد واللهو واسقطت المكوس والمغارم

وفى اوائل عام 448 هـ تولى الامارة ابوبكر بن عمر فغزا السوس فى جيش كثيف تصب على طلائعه ابن عمه يوسف بن تاشفين فاقتحم ماسة وتارودانت حيث طهر الاقليم من فلول الرافضة البجلية (I) التى لجأت الى هذه الناحية عند ظهور العبيديين وكان ابن ياسين ينصب العمال حيثما حل للسهر على تنفيذ السياسة الاسلامية الجديدة .

وواصل الجيش زحفه الظافر نحو الاطلس فاحتل كثيرا من مراكزه مثل نقيس وأنغات (449 هـ) وكانت هذه تحت لقوط المغراوي الذى التجأ الى اليفرنيين بتادلا ولم يلبث ابن ياسين ان احتل هذا الصقع فقتل لقوطا وزف وزوجه زينب التفراوية الى الامير ثم فتح تامسنا بعد أن خاض حربا عوانا ضد البرغواطيين (2)

(I) نسبة الى على بن عبد الله البجلي .

(2) زعم بعض المؤرخين أن صالح بن طريف البرغواطى يهودى نشأ فى حصن برباط بالاندلس وقرأ فى الشرق على عبيد الله المعتزلى ثم عاد الى تامسنا لنشر دعوته وقدرد ابن خلدون هذه النظرية مؤكدا ان البرغواطيين مصامده وقد التف البربر بتامسنا حول صالح 125 هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك ابن مروان بعد ثورة البربر بايعاز الخوارج وقد شهد صالح مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغرى الصفرى وتوجه الى المشرق عام 174 هـ وخلفه ولده الياس الى عام 224 هـ ثم يونس الذى يقال بانه احرق 380 مدينة فى تامسنا وما والاهافى الحماوك التى واصلها لنشر تنبؤاته ثم حج ومات عام 268 هـ وتولى بعده قزيبه ابوغفير الذى تزوج باربع واربعين امرأة وملك 29 عاما وخلفه ولده ابوالانصار عبد الله عام 341 هـ ثم ابنه عيسى أبو المنصور الذى قتله بلقين بن زيرى (369 هـ)

الذين سبق ان ذاقوا الامرين من قتال بنى زيري والعامريين واليفرنيين الى ان هزمهم ابو الكمال حوالى 420هـ فى تامسنا ولكن فلولهم ظلت قائمة حتى هب لقتالها المرابطون فدارت معارك ضد اميرهم ابى حفص عبد الله البرغواطى واستشهد عبد الله بن ياسين ودفن بكريفة بزعر (حوز الرباط) عام 451 هـ وقد جدد أخيرا المسجد المقام على قبره ولم يقر بعد ذلك قرار للامير أبى بكر حتى محا معالم البرغواطية ونشر الاسلام بين منتحليها ثم عاد الى عاصمته اغمات للاستحمام قبل استئناف الغزو لاحتلال فازاز ومكناسة ولواته (شرقى صفرو) وجميع السهول اليفرنية .

ظهور ابن تاشفين

وقد بلغ الامير ابا بكر اضطراب شؤون الصحراء فاعتزم العودة لقرار نظامها (453هـ) وانخلع من عصمة زوجه الجميلة زينب النفزاوية رفقا بها من زمهير الفيافي فتزوجت بايعازه يوسف بن تاشفين المستخلف بالمغرب الاقصى بينما اتجه هو لاستكمال غزو السودان (الى ان مات بادرار عام 480 هـ) (I) .

ولم يكن المرابطى الاول مستقل بالامر حتى رتب جيوشه فى فرق اربع (2) جعل منها طلائع لتمهيد البلاد وما لبث أن نقل حاضرة ملكه الى مدينة جديدة اشرف على تخطيطها هى مراکش (454هـ) واختيار هذا الموقع ينم عن روح صحراوية وعن حاسة استراتيجية لانه مفترق طرق الاطلس والصحراء وقد حل المرابطون مشكل الماء بالخطارات التى ساعدتهم على غرس النخيل وكانت فى البداية معسكرا بسيطا ولكنها استحالته تدريجيا الى حاضرة بمساجدها وقصرها (دار الحجر) وقد عزز الزعيم الصحراوى هذا الجهاز الحضارى بعمال نصيبهم فى الاقاليم ومظاهر جديدة كالاعلام والطبول العسكرية .

(I) عاد ابوبكر مرة ثانية الى المغرب فاقتبله يوسف بالجيش والهدايا مشعرا اياه باستقلاله فلم يسع الامير الصحراوى الا أن عاد ادراجه بعد توليته ابن عمه نهائيا على المغرب .

(2) جعل على كل منها قائدا من بين القواد الاربعة وهم سير بن ابى بكر اللمتونى ومحمد بن تميم الكدالى وعمر بن سليمان المسوفى ومدرک التلكانى وعدد جنود الفرقة خمسة آلاف واحتفظ هو بقيادة نصف المجموع وهو عشرون الفا وما لبث هذا العدد ان ارتفع الى مائة الف فى ضمنهم الاغزاز المشاركة .

وكان البرغواطيون قد استولوا فاتجه ابن تاشفين نحو قلعة فازاز او قلعة المهدي وهو مهدي بن تولى اليحفشي فاحتلها وكانت مكناسة قد انصاعت فاستنجد به أميرها الكزنائي ضد المعنصر المغراوي بفاس التي حوصرت بدون جدوى غير ان ابن تاشفين استأنف حصارها بعد فتح صفرو فاقتمها عام 455 هـ واتخذها مركزا لغاراته على الشمال فاستولى على غمارة، وكان سكوت البرغواطى قد استقل فيها عن بنى حمود الادارسة غير ان الزناتيين ظلوا شوكة في ظهر المرابطين فاستعاد معنصر (او ابنه تميم) مدينة فاس وهزم الكزنائي وتحالف مع سكوت فلم يكن من المرابطين الا أن رجعوا من غمارة الى حصار فاس وقتلوا تميما فخلفه القاسم (من سلالة ابن العافية) الذي هزم المرابطين فخفف ابن تاشفين من فازاز (I) وعزل المدينة بمواصلة احتلال الاقليم واخضاع بنى مراسن وفندلاوة وورغة الى عام 458 هـ وبعد ان استولى على غمارة من الريف الى طنجة (عدا سبتة) في عراك استمر سنتين (458-460 هـ) عاد الى فاس 462 هـ فقتل بها المغراويين واليفرنينيين والمكناسيين وهدم الاسوار الفاصلة بين العدوتين وأقام سورا واحدا كما اسس المساجد في كل حي وكذا الحمامات والفنادق والارحاء ورتب الاسواق وركز الحامية المرابطية في قلعة جديدة هي قصبة بوجلود (أبي الجنود) .

وهكذا تركز نفوذ المرابطين بالمغرب الاقصى على دعامتين هما تاسيس مراكز واحتلال فاس ومن هاتين القاعدتين سينطلق الزحف بعد اعادة ارضاخ غمارة نحو المغرب الاوسط والاندلس في حركة ظافرة ما لبثت ان وحدت العدوتين من السودان الى قشتالة الى طرابلس .

فتح المغرب الاوسط

وفي عام 470 هـ اعتمز ابن تاشفين الجواز الى الاندلس استجابة لصرخة المعتمد بن عباد غير أنه أبى الامنازلة سكوت لتحرير سبتة وما انتقض من غمارة فالتحم الفريقان في احواز طنجة ودخل القائد صالح بن عمران الى المدينة وقتل سكوت واعتصم ولده يحيى بسبتة .

وفي عام 472 هـ زحف القائد مزدلى بن تيلكان نحو المغرب الاوسط حيث

(I) واصل الجيش المرابطى حصار هذه القلعة تسع سنين الى ان استولى عليها عام 465 هـ

جال في قيافيه متعقبا قبائل زناتة وقتل نجل امير تلمسان المغراوي دون ان يتمكن من احتلال المدينة وفي العام التالي فتح ابن تاشفين اكرميف ومليلية واستكمل احتلال الريف فهدم تكور التي لم يبق لها بعد ذلك عمران وهنا اتجه يوسف شخصيا نحو المغرب الشرقي فاقتحم وجدة واقليم بنى يزناسن وتلمسان مستاصلا شافة المغراويين وقد أحال هذه العاصمة الزناتية الى نصر محصن واخطت باعلاها مدينة تاكرارت (اي المحلة) وهي تلمسان الحالية وسيارت الجيوش المرابطية من نصر الى نصر موالية فتوحها لتنس ووهران ووانشريس الى عاصمة الجزائر وبذلك اقتسم الصنهاجيون افريقيا الشمالية فاحتفظ الحماديون وبنو زيري بالشرق موقتا وناب الغرب المرابطين .

وفي هذه الفترة كان المسيحيون يقتطعون في الاندلس الممالك الاسلامية التي انصرفت وحدتها بقيام ابن عباد في اشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذي التون بطليطلة وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامري بدانية وكان الفتن قد دوخ هذا العام (475 هـ) معظم الاقاليم في تخريب وتقتيل اثار الرعب في النفوس وخدا بعض الامراء الى التنازل لدفع الجزية وسقطت طليطلة في قبضة الافرنج والجلالقة (477 هـ) بعد حصار استمر سبع سنين فكان الاستنجد اجماعيا من طزف الامراء والعلماء والشعب بالبطل المرابطي الذي هب لانقاذ الاسلام من هذا الخطر الداهم بعد ان احتل نجله المعز مدينة سبتة بمساعدة اسطول ابن عباد (477 هـ) وقتل يحيى بن سنكوت البرغواطي فانفسح المجال لجهاد المسيحية بالاندلس .

الفصل الثالث عشر

الاندلس والحضارة البربرية

خف ابن عماد لمقابلة (1) ابن تاشفين بالمغرب بعد ان استكمل وحدة العدو الجنوبية واستنصره للمرة الثانية على المسيحيين جاعلا رهن اشارته الجزيرة الخضراء ليتخذها مقرا ترابط فيه جيوشه وكانت سببة قد انصاعتم فعزز الامير المرابطي جهازها وتوافدت عليه فيها كغائب المجاهدين فأجاز بها الى الاندلس (479هـ) اقتبله بعض أمرائها كالمعتمد وابن الافطس وكان الادفونش (الفونس السادس) في حصار سرقطة فهاله زحف المرابطين واستنصر القشتاليين والجلالقة لمحاربتهم (2) وكان المعتمد قد تقوى بهذه النجدة فطلول الامير الاسباني (3) الذي تلقى من الزعيم المرابطي توقيعا على ظهر رسالة وجهها اليه «الذي سيكون ستمراه» وانصبت جيوش الاندلس بامرائها وفي طليعتهم

(1) هذه المقابلة تمت حسب ابن خلدون في فاس وحسب غيره في طنجة وهو المرجح .

(2) لاحظ ابن الاثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميري ان ابن تاشفين كان معتزما احتلال الاندلس وان ملوك الطوائف استنصقوا مدافعتيه لاسيما وانهم كانوا يواجهون خطر الغزو المسيحي والرواية المرجحة هي التي أشرنا اليها نقلا عن ابن خلدون .

(3) الذي رفض قبول الجزية وطالب بان تلد زوجته في جامع قرطبة فانصاع المعتمد لابن تاشفين قائلا قولته المشهورة «رعى الجمال خير من رعى الخنازير» (الروض المعطار) .

المعتمد للقاء ابن تاشفين في هدايا وتحف جزيلة فتم الاتفاق على تصميم الهجوم وانبرى القائد اللمتوني داود بن عائشة في عشرة آلاف فارس يتقدمهم المعتمد وابن صمادح (المرية) وابن حبوس (غرناطة) وابن مسلمة (الشعر الاعلى) وابن ذى النون وابن الافطس وغيرهم يتولى الجند على المراحل والمنازل حتى حلوا بعد استراحة في طرطوشة أمام بطليوس بالزلاقة (تعرف اليوم بسكراخة) فكان بين الجيشين المرابطى والاندىلسى ربوة وبينهما وبين العدو نهر بطليوس واستعد الفريقان للقتال فبادر الادفونش باعلان تأخير الملحمة من الخميس الى الاثنين معتزما اخذ المسلمين على غرة يوم الجمعة (منتصف رجب) فلم تنطل الخدعة على ابن عباد الذى غشيه الخصم من عدة جهات فاستحضر القتل وصعد المسلمون في استبسال نادر ماقتىء داود بن عائشة ان كشف غمته في طفرة عارمة عقبها ظهور يوسف في طبوله الصاخبة وجماله التى استنفرت خيول الخصم فوق الادفونش بين الصدمات وادلهم الجو وانتظمت صفوف المسلمين في حملة صادقة منسقة انكفاً من جرائها العدو منهزماً وأميرهم يخضع من طعنات الحراب وقد كاد النزال يسفر عن كارثة لولا انقضاض انجاد صنهاجة الذين اقتحموا محلة الادفونش وقتلوا حاميتها وعمد ابن تاشفين الى خطة العرب فى العراك فوالى الكر فى حرب باردة ما لبث اوارها أن اشتعل عندما تدخلت آلاف الصحراويين بالدرق اللمطية والمزراق والسيوف تدأداً من ضرباتها فرسان الأفرنج فى ساعة كان اذان الجمعة يدوى فى العدوتين داعياً بالنصر للمجاهدين وفرت فلول الاسبان منسابة فى اعقاب اميرها الذى افلت فى جنح الظلام مخلفاً فى محلته الرياش الناعمة والاوانى والاسلحة واعلن النصر وتعانق يوسف وابن عباد متبادلين التهئة والدعاء لحسن البلاء وعزف أمير المسلمين - وهو لقب منحه منذ ذلك اليوم - عن المغانم والاسلاب التى تركها فيثا للامراء وكانت فرجة عارمة فى افريقية والمغرب والاندىلس بهذا الظفر الذى اعاد للاسلام صولته بعد ان اوشك على التفكك فى طريق الانهيار وعاد يوسف الى العدو على اثر وفاة ولى عهده ابى بكر - بعد ان عرج على ظاهر اشبيلية معززا جانب المسلمين بحاميات قوامها ثلاثة آلاف جندي صندا لعدوان محتمل من العصابات المنكسرة (I) وظلت طليطلة فى قبضة القشتاليين بعد ان سلمها اميرها القادر للفونس فاتحا بذلك اولى الثغرات فى صرح الامبراطورية الاسلامية الجديدة غير ان العدو بدأ يجمع

(I) اختلف المؤرخون فى عدد القتلى الاسبان فاوغل البعض حين اوصلهم الى 120.000 مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين ويؤكد ابن خلكان أن سير اللمتونى قام على رأس الحاميات المرابطية بغارات فى اقليم الاندىلس وحده. بينما اخلىد امراء الطوائف الى الراحة والرغد من جديد .

شتماته من جديد لان امراء الاندلس ركنوا الى الراحة والتواكل وغامر بعضهم بحياكة الدسائس مع المسيحيين مما شجع الاذقونش على استئناف هجماته ضد شرقى البلاد وتعزيز حماية بلنسية حيث ظل القادر محميا للفونس بينما وجه الجنرال كارسيا من حصن لبيط بالجنوب تهديداته ضد مرسية وغرناطة وهكذا توالت الحملات على امارة ابن عباد فاستنجد من جديد بابن تاشفين عابرا اليه ثانية (481هـ) (I) من القصر الصغير (قصر المجاز) الى الجزيرة الخضراء من حيث دعا الامراء الى الالتقاء بحصن لبيط فلم يلب سوى المعتمد وابن عبد العزيز صاحب مرسية واستمر الحصار اربعة اشهر انبثق في غضونهما نزاع بين ابن عباد وابن عبد العزيز فتخلع يوسف هذا الاخير واحتل الوضع بقرار انصار الامير المعزول وقواده وقطعهم المؤن عن الجيش المحاصر فلم يسع الزعيم المرابطى امام احتشاد نجدات الاذقونش الا ان ينحاز الى لورقة ثم المرية والعودة الى المغرب وكله حنق على الامراء المتخاذلين فازداد يقينا بالخيانة والتواطؤ الذين بدرت اعراضهما من بعض ملوك الطوائف وقر عزمه بعد استفتاء العلماء فى الشرق والغرب على تطهير الاندلس من الارجاس التى تضافت الجاهير على بغضائها وذلك فى جواز ثالث (عام 483هـ) اكتسح خلاله طليطلة حيث حاصر الاذقونش وشن الغارات بالاطراف دون ان يهب احد من ملوك الطوائف لمساعدته فنما غيظه ونازل عبد الله ابن بلكين أمير غرناطة الذى ظاهر الاسيان على المرابطين فاستامن من بعد شهرين ونقل مع اخيه تميم صاحب مالقة الى مراکش فتزايد هلع الامراء ووطدوا احلافهم مع المسيحية بعد ان توتر الحبل مع ابن عباد فعاد أمير المسلمين أدراجه الى المغرب فى بعبوحة رمضان بعد أن قام سير اللمتوني واليا على الاندلس .

وازاء هذه الفوضى التى اخلت بحمى الاسلام وعرضت المسلمين الى المحق هب سير فى حركة عنيفة ضد بنى عباد فقتل المأمون بن المعتمد امير قرطبة واحتل المدينة (484هـ) واتبعها بفتوحات متلاحقة لبياسة وأبدة وشقورة وقرمونة ثم حاصر اشبيلية فاستغاث المعتمد بالفونس السادس الذى أنجده بقائده القومس (الفارحانيين) وبآلاف الجند واستمر العراك قرب حصن المدور واقتحم المرابطون اشبيلية (رجب 484هـ) ونقلوا المعتمد وعائلته اسارى الى مراکش ثم

(I) ذكر ابن خلدون أن الجواز الثانى تم 486 هـ وان تناقل أمراء الطوائف عن لقائه يرجع الى تكثيره عليهم ضرب المكوس وظلم الرعية ثم تم الجواز الثالث 490 هـ .

انغصت حيث مات بعد بضع سنوات (II شوال 488هـ) ومازال قبره الى الآن باديا للعيان. مع زوجته اعتماد الرميكية وقد واصل سير زحفه فاحتل بطليوس وقتل ابن الافطس (489هـ) واستولى على معظم بلاد الاندلس باعانة الامير يحيى بن ابى بكر بن يوسف (493هـ) وبعد اربع سنوات قام ابن تاشفين بالجسور الرابع (497هـ) الى الاندلس (I) وكان صيته قد ذاع فى العالم الاسلامى حتى هم الغزالي بالوفادة اليه ومع ذلك ظل متشبثا بالخلافة الاسلامية حيث دعا ل احمد المستظهر (2) بالله واوفد اليه عبد الله المعافى وولده القاضى ابا بكر ليعقد له على المغرب والاندلس حيث امتد نفوذه من اقصى المشرق الى اشبونة ومن جزائر بنى مزغانة الى السودان وكان الجنرال المسيحى رودريك المعروف بالسيد قد تنازع مع الادفونش فاحتل قسطنطين من ساحل المتوسط وفتح بلنسية حيث قتل اميرها القادر محيلا جامعا الى كاتدرائية ولكن ابن تاشفين الذى هزم الجيش القشتالى قتل ديبكو نجل السيد وتابع حملاته ضد الاسبان الى ان مات السيد منهوك القوى (عام 1099م) فحاصر المرابطون المدينة التى دافعت عنها جيمنا زوجة السيد ثلاث سنوات الى ان اضطرت الى الاستنجاد بقربها الفونس الذى ساعدها على الفرار بعد ان ترك المدينة مفتوحة امام اميرها مزدلى الذى اسهم بحظ وافر فى تحرير برشلونة وباقى الاندلس .

على بن يوسف : ومات يوسف أوائل 500هـ فقام على بمعه من والده وعمره ثلاث وعشرون سنة وبايعه اخوه تميم وتوافدت القبايل لتنهنته بمراكش من مجمع انحاء الامبراطورية عدا قاسم التى انتقض بها يحيى بن ابى بكر ولكنه اضطر الى الفرار بعد زحف عمه ثم استأمن بتدخل المزدلى والى تلمسان فنقل الى الصحراء ثم الى الجزيرة الخضراء حيث مات وكان الامير الجديد اندلسى التكوين ربي فى سبتة وعاش معظم حياته فى اسبانيا .

وقد ولى تميم امارة الاندلس واستقر فى غرناطة فاستحرت بينه وبين الاسبان عام 502هـ وقعة افليج حيث اصطدم بسانحة نجل الفنش الذى قتل وانتصر المرابطون وكانت ممالك القرب المسيحية قد وهنت وتولى النساء وصايات العرش فى البرتغال وقشتالة بينما تضعضعت قوة امراء دويلات المشرق بانشق نزاعات مع النبلاء وتناحر ادعياء العرش وكان الاسبان ينصبون الافخاخ احيانا

(1) حسب ابن خلدون الذى تختلف روايته عن رواية ابن ابى زرع .
 (2) بعد تقليد الخليفة اياه ضرب السمكة باسمه ونقش على احد الوجهين اسم احمد امير المومنين العباسى .

لكي تأسب المسلمين مثل ما وقع لمحمد بن الحاج الذي خلفه ابن تافلون (I) فامتدت ولايته من مرسية الى بلنسية وطرطوشة ونازل القائد رودمير قرب برشلونة في حرب دامية .

وما لبث على بن يوسف ان جاز الى الاندلس عن طريق سبنة (503) هـ في جيش كثيف احتشد في قرطبة وفتح طلايوت ثم احتل في اقليم قشتالة الجديدة 27 حصنا ثم مجريط ووادي الحجارة وحاصر طليطلة شهرا عاد بعده الى قرطبة وفي العام التالي غزا سير البرتغال فاقتحم شنترين وبطليوس ويابورة واشبونة وبرتغال وبذلك تقلص نفوذ امراء العرب وهددوا في عقر ديارهم ومع ذلك ظل الخطر المسيحي يداهم المملكة المرابطية التي اضطرت الى مواصلة فتوحها وقد بقي احمد بن يوسف المستعين بن هود اميرا على سرقسطة الى ان استشهد عام 503 هـ في اصطدام مع ابن ردمير فخلفه ابنه عبد الملك المعروف بعماد الدولة عام 512 هـ حيث تحالف ابن ردمير مع الاذفونش الذي زحف نحو لاردة فتضافرت جهود امراء الغرب مع تميم وزحزحته عنها ثم استلحقت عمالة سرقسطة فاحتل قلعة ايوب بشرق الاندلس ووجه حملاته المتوالية ضد بلاد الجوف فجاز امير المسلمين للمرة الثانية (513 هـ) وفتح شنتمرية ومهد غرب الاندلس في حركة استكمل بها وحدة المملكة المرابطية تحت امارة تميم الذي ما لبث ان توفي (520 هـ) فخلفه تاشفين بن علي وظلت الجزر الشرقية (الباليار) المحررة تحت غرب الاندلس في حركة استكمل بها وحدة المملكة المرابطية تحت امارة تميم امرة محمد ابن علي المسوقى المعروف بابن غانية ووالى تاشفين فتح الحصون واحتل كركسى واشكونية ثم عاد الى مراكش حيث نصب وليا للعهد ولم تكد تمر اربع سنوات حتى بايعه الناس اميرا لدى وفاة والده (7 رجب 537 هـ) وكان الموحدون قد بدأوا يقضون مضاجع الدولة المرابطية فاصطدم الامير الجديد باكبر خطر داهم العدوتين منذ ثلاثة ارباع قرن على ان هجمات المسيحيين لم تقتر لان « الفونس لوباطايور » طفق يقطع من الاندلس منذ عهد تميم باتساق مع ملك ارگون السدي احتل سرقسطة وزحف عبر البلاد خلال خمسة عشر شهرا فكان ذلك المظهر الاول لتضعض الكيان المرابطي امام الجبهتين بانبيثاق نوع جديد من ملوك الطوائف .

(I) ممدوح ابن خفاجة وصاحب الفيلسوف ابي بكر بن باجة المعروف بابن

الصانغ .

ومع ذلك استطاع المرابطون في عقود من السنين توحيد الاندلس تحت راية الاسلام رغم احتفاظ الامبان بممالك الشمال

الاقتصاد

وقد عرف المغرب في هذا العهد الوفرة والثراء وانتشرت ضيعة فلاحية في البادية بفضل الامن النسبي وكان للتبادل المغربى الاندلسى اثره القوي فى تكييف الاقتصاد وتنمية الموارد وامست الحاضرة الجديدة (مراكش) مركزا تجاريا هاما بين الصحراء والشمال ومهبطا لرواد الثقافة من اعلام الفكر بالاندلس وقد سك الدينار اليوسفى باسم الامير المرابطى والخليفة العباسى وبلغ وزنه 3,960 غرامات فى مقابل اربعة غرامات ذهبيا الى 4,720 غرامات فى عهد عمربن الخطاب وقد الفى المرابطون المغارم والمكوس واقتصروا على الزكوات والاعشار والمغانم والجزية لتحقيق التوازن فى بيت المال

الجيش

وفى هذا العهد ظهر جيش نظامى جديد تعزز بالاغزاز (I) المشاركة علاوة على فرسان القبائل البربرية وقد درب على الحياة العسكرية غير ان اغلبيته كانت من القبائل المستنفرة عند الحاجة وقد استعرض يوسف جيشه العتيد فى حصن لرقة خلال جوازة الاول للاندلس (2) كما استعرض حفيده تاشفين قواته فى تلمسان عام 538 هـ (3)

الفن

وقد ادخل المرابطون عنصرا جديدا فى الفن البربرى فتركز المزيج المغربى الاندلسى واستمرت عملية الانصهار منذ ذلك العهد نحو من ثلاثة قرون واتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التى لم يخل منها ربح ولازقاق فى كبريات الحواضر وعززوا الحصون والقلاع التى استمدت من الهندسة الاطلسية كما اسفر التبادل بين العدوتين عن ازدهار الصناعة التقليدية والاساليب

(1) الانيس المطرب ج 2 ص 4

(2) المعجب ص 77

(3) الحلل الموشية ص 108

المعمارية وقد ورد على المغرب مهندسون وصناع قرطبيون منذ عهد يوسف بن تاشفين ساهموا في طبع العمارات والمساجد بلون جديد وكذلك الحمامات والخانات والسقايات وقد بنى هؤلاء المهندسون قنطرة تنسيقت أيام علي الممتوني ولم يبق مما شاده المرابطون سوى جامعى تلمسان وجزائر بنى مزغانة لاندراس اعلام المساجد الممتونية بمراكش وفاس عدا جامع القرويين الذى اتخذ فى عهد علي بن يوسف سعته وشكله اللذين ما زال يحتفظ بهما الى الآن وقد زيدت بلاطاته وجدد منبره (I) ونقشت سقوفه بتريخيمات رائعة اسفرت عنها الحفريات عام 1952 واكدت ما وصفه به ابن ابي زرع عند حديثه على القبة المرابطية التى غطيت بالجيز ليلة دخول الموحدين الى فاس . اما القصور فقد اشار صاحب الاستبصار الى « دار الامة » التى بناها يوسف كما اشار الادريسي الى « دار الحجر » التى اسسها علي بمراكش والتى سيهدمها عبد المؤمن لاقامة الكتبية الحالية مكانها ومن الحصون المرابطية قلعتا بنى تودة بفاس وامركو لمراقبة بدو الريف وقد استخدم الممتونيون طريقة جديدة فى مد السواقى بواسطة الخطارات الصحراوية .

وخلافا لما زعمه دوزى يمكن انقول مع طيراس بان المرابطين افادوا الحضارة الاندلسية وقد ابرز المؤرخون الاسبان الدور الذى قام به امرء لمتونة فى تشجيع الادب والعلم والفن

الفصل الرابع عشر

الارتقاضة الموحدية

مافتىء الموحدون يحملون شعلة الاسلام فى الاطلس منذ الفتح العربى وقد نلوا اول البرزغواطين المصامدة وكانت لهم فيما قبل زعامة موصولة وقد ولد المهدي تومرت فى مرغة (شمال الاطلس الصغير) عام 485هـ وارتحل الى الاندلس والشرق (بغداد والقاهرة) فى طلب العلم وهو دون العشرين ولقى فى زعم بعض المؤرخين كلا من الغزالي (I) والظراطوشى وأظهر ورعا ونسكا وصرامة فى استنكار الزيف والاستهتار (الخير والخنا) ثم عاد الى المغرب بعد زهاء عشر سنوات وقد نهل من ينابيع الاشعرية فابحر من الاسكندرية الى طرابلس ثم المهديه داعيا الى مذهب التساويل الذى حاد عنه اللمتونيون انتجاعا للسلفية فطورد من الولاة حيثما نزل ثم عرج على بجاية فلقى فى ملالة بالقرب منها عبد المومن بن على النكومى

(I) ممن أثبت لقاء ابن تومرت للغزالي بصفة الجزم ابن أبى زرع (القرطاس ج 2 ص 104) وابن خلكان (ج 2 ص 37) وابن الخطيب فى رقم الحلل (ص 57) وصاحب الحلل الموشية (ص 85) وابن أبى دينار فى المؤنس (ص 107) واليوسى فى محاضراته ونقله عنه القادري فى نشر المثانى (ج I ص 122) وأبو الفداء (ج 2 ص 23) والزركشى فى تاريخ الدولتين (ص 2) وعده مرتضى من تلاميذه وممن شك فى ذلك ابن خلدون فى العبر (ج I ص 298) والمراكشى فى المعجب (ص 99) وجزم بعدم اللقاء ابن الأثير فى الكامل (ج 10 ص 201) ورينيه فى دائرة المعارف .

فى طريقه الى الحج فاستصفاه لآمانة سره واصطخبه مع البشير عبد الله
 الونشريسى الى تلمسان ثم كرسيف ووجدة ففاس حيث تصدى للتدريس
 وواصل رحلته من مراكش الى مكناس فاغلق فى النكير على الامير على بن يوسف
 وتوبخ اخته السافرة وكان حفاظ العلماء عليه يتزايد لنحلته الاشعرية التى
 تصممهم بالجمود على المختصرات المالكية فدفعوا الملك لتنظيم مناظرة انتهت
 بظفره وانقسم المجلس فى شأنه بين مستهون ومستعظم لمقبة دعوى الرجل ولكن
 الملك الصالح صرفه فى امان رغم نصيح القاضى المنجم مالك بن وهيب فخف
 المهندى الى اغمسات لا يلوى على شىء وانضم عمر بن يحيى الهنتاتى لركب
 المهدي الذى اقام فى ايجلى بهرغة الرابطة للعباد وقد تعززت بأفواج الطلبة الذين
 لقنهم ابن تومرت قواعد «المرشدة» فى التوحيد فذاع صيته فى الاطلس الكبير
 وشمالى الاطلس الصغير والتف حوله منذ 515هـ المصامدة الموحدون . وازاء
 هذه التجمعات انبرى عامل المرابطين بالسوس ضد المهديين فاستجاش
 هؤلاء انصارهم ودارت معركة عام 516هـ منى فيها اللمتونيون بأول هزيمة
 فاتسع نفوذ ابن تومرت الذى اقام عام 519هـ بتينمل دارا ومسجدا وتينمل حوض
 خصيب على وادى نفيس طويل دقيق فى شعبة الاطلس الكبير وكانت مناعة
 الجبل خير حى من سطوة اللمتونيين وهنا دعم ابن تومرت كتلته الاطلسية
 على فكرة دينية اذكت اوراها عداوة تقليدية ضد صنهاجة الملمثمين وظل يتنقل
 من شرق الاطلس الى غربه بالغ سواحل المحيط باكادير حيث أقر اتباعه بأماميته
 وامسى بصفته المهدي المنتظر رئيس دويلة حاضرتها المحصنة تينمل وهدفها اقرار
 الاسلام الصحيح على هدى القرآن مع انتقاء الاصلح من اعراف البربر فى الشورى
 والتراتب السياسية وكان مجلس العشرة الذى يشكل مستشارى الامام واركاز
 حربه وكتابه وقضاته يتركب علاوة على ابن تومرت والبشير من بعض قادة
 الاطلس كالعمرين الهنتاتى والصناكى وابن وانودين وابن يغمور وابن تافراكين
 ومحمد بن سليمان وابراهيم بن اسماعيل الخزرجى وعبد الواحد الحضرمى
 والتحق بالعشرة اربعون ممثلا للقبائل الكبرى مثل كدميو ونفيسة وهنتاتة
 وهسكورة لتكوين آيت الخمسين فى شكل مجلس للشيوخ الموحديين كان يعقد
 دوراته عندما يستشار فى المناسبات الهامة وكان الطلبة والحفاظ يدربون الدعاة
 يليهم فى الرتبة اهل الدارواهل الساقية .

وبعد الحباله التى نصبها البشير بتواطؤ مع ابن تومرت لاطهار مخاريق
 مصطنعة قتل فيها كل من خالف الامام - تجهز جيش من عشرة الاف زحف
 على مراكش عام 523هـ فهزم اللمتونيين فى كيد وطاردهم الى مراكش فحاصرها

اربعين يوما ولكن نجدات المرابطين فككت هذا الخناق في معركة عثيفة بالبحيرة قتل فيها البشير وعاد عبد المومن مع الفلول الموحدية دون أن تفت هذه الهزيمة الاولى في نفس المهدي الذي رأى في نجاة عبد المومن املا في الكر الظافر وصمدت الكتلة الموحدية فأمعنت في تحصين حاضرتها حيث استعرض ابن تومرت جيشه للمرة الاخيرة ضاربا المثل في التقشف والتقلل الى آخر رمق من حياته ولم تمر اربعة اشهر على وقعة البحيرة حتى توفي المهدي (بين 13 و 29 رمضان عام 524هـ) بعد ان بشر اتباعه بالنصر وقدم عبد المومن للصلاة عليه .

عبد المومن

وكان الخليفة الجديد معتدل القامة اشهل العينين فقيها محدثا اصوليا سياسيا شجاعا وخطيبا مصقعا امتاز بتبصر واناسة اعانتاه على تحمل أعباء الرسالة الموحدية وانبرى في غزوة استمرت سبع سنين (534-541هـ) لفتح المغرب الاوسط بعد تمهيد المغرب الاقصى وكانت انطلاقاته الاولى من تينمل صوب الشمال الشرقي بالمتحدر الغربي للاطلس سامته في السهل خصمه المرابطي تاشفين بن علي وقد تحاشى الطرفان التصادم في تحفز دفاعي سيار وكان علي ابن يوسف ما زال حيا في الفترة الاولى (توفى عام 537هـ) وطفق عبد المومن يعزز قواته بانضمام سكان الجبل والنواحي (دمنات وبني ملال وفازاز وتافيلالت) والعناصر الفارة من المرابطين مثل هسكورة وصنهاجة الاطلس الاوسط ومسوفة تلمسان ومصامدة غمارة (وادي لووتطوان وباديس عدا سبتة) فاصطدم الجبليون المنحازون مع فلول المرابطين المنظمة والمعززة بالميليشية المسيحية التي كان يقودها الروبرتير القطلاني بجهازه العتيد وفنه العسكري المحكم غير أن وفاة هذا القائد الاسباني (539هـ - 45م) فسحت مجال السهول امام الموحدين الذين انحدروا في خضم صاحب نحو غياثة (تازة) وبطوية وملوية وبلاد زناتة بالمغرب الاوسط وكان الموحدون قد انهزموا من قبل امام بني عبد الواد وبني يلومي والروبيرتير وقتلوا ابن موخوخ الزناتي الذي كان انضم الى عبد المومن وهو في الريف فاردفه بعد احتلال الحسيمة ومليلية وتمسمان وبني يزناسن بابن يغمور وانودين ولكنه اضطر تلبية لاستصراخ ابن هاجوخ الى الزحف نحو تلمسان وكان امير صنهاجة قد هب لانقاذ الامير المرابطي المقيم بالصفصان فقتله الموحدون مع الروبيرتير وارتحل تاشفين اللمتوني الى وهران (539هـ) بعد ان اوفد الى مراکش ولي عهده ابراهيم مع الاديب احمد بن عطية وزحف عبد المومن من تلمسان للقاء خصمه الذي ساندته بوهران اساطيل محمد بن ميمون المستقدمة من المرية في حين تعززت طلائع الموحدين التي كان علي

رأسها أبو حفص الهنتاتي ببني ومانو الزناتيين فدارت معركة اولى ضد زناتة ولتمونة انتهت باذعان كل من امير بني يلومي وشيخ بني عبد الواد فتقوت الكتلة الموحدية في سيرها نحو وهران حيث أهدقت براية اججت حوالها النيران وماكاد يرتخي جناح الظلام حتى تردى تاشفين - وهو في تطوافه خارج الحصن - من الجبل غادة موسم السابع والعشرين من رمضان سنة 539 هـ واستسلمت وهران فلم يفلت من القتل بها سوى رجل واحد (البندق) .

حصار قاس

وبعد اثخان الهنتاتي في برغواطة التحق بعبد المومن وهو في طريقه الى مراكش عن طريق تادلا وتعزرت القافلة العسكرية بهسكورة وصنهاجة وانغمرت في عراق بجيليز دام خمسة أيام اكتسحت بعدها المدينة وتحصن اسحاق بالقصبة مع حاشيته (I) حيث استسلموا بعد مقاومة عنيفة فقتل الامير وكافة الملتزمين وكلت حملات الموحدين بالنصر والسيادة على مجموع المغرب وانتقل جهاز الدونة الجديدة الى مراكش التي اختارها الخليفة ووافقه العلماء بعد تهديم آثار المرابطين بها حيث اقيمت الكتبية فوق انقاض دار الحجر .

تمهيد البلاد : وفي هذه الفترة العصبية ظهر محمد بن هود السبلاوي بماسة وتسمى بالهادي وكان قد لحق بعبد المومن في فتح مراكش فابرز المخاريق واستجاب لدعوته سجلماسة ودرعة ودكالة وجراجة وتامسنا وهوارة ثم الشمال (طنجة وسبتة وبني ورياغل في الريف) والمرينة بالاندلس فهزم قينقا موحديا وبدأ ظل عبد المومن يتقلص فاهتبل الامير لهذا الحدث وجهر أبا حفص الهنتاتي في ذي القعدة عام 542 هـ في جيش كثيف هزم جزولة وقتل ابن هود ووقع بهسكورة وهيلانة ولكن برغواطة صدته فتراجع الى تادلا ثم الى مكناس فحاصرها وكان الصحرأوي قد رجع من الاندلس والتحق الخياط اخو الهادي بالبرغواطيين ثم اهل دكالة بتعزيز رجراجة وحاجة مما اضطر عبد المومن الى القيام برد فعل عنيف فاقتحم سلا ثم مكناس والريف والهبط في نفس الوقت الذي كانت الجيوش الموحدية تخضع دكالة وجراجة وتقتص من برغواطة

(I) كان من بينهم فتاة هي فانو بنت عمر بن بنتيان التي استماتت وراء لثامها في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش طوال نصف يوم اثار استبسالها اعجاب الموحدين

وتطارد الصحراوي الفار الى فيافي الجيوب وتقمع هنا وهناك الفلول المتمردة وقد شعر عبد المومن بان التصفية الاولى لم تؤت اكلها فعمد الى تصفية ثانية اشد من الاولى امتدت جذورها الى مجموع الاقاليم وذهب ضحيتها حسب البيهقي 32٠720 نسمة لاسيما في هسكورة وفازان، وتادلا فكانت هذه الظاهرة اشد وسيلة لنشر الهدوء والسلام .

فتح الاندلس

وما ان انتهى عبد المومن من تمهيد المغرب الاقصى حتى اتجه نحو الاندلس وكان عهد جديد للموك الطوائف قد انبثق باستقلال امارات قديمة وبروز رؤساء جدد وزحزح المرابطون عن قلاع ومدن كاشبيلية وغرناطة ثم الجزر الشرقية حيث صمد بنو غانية بينما ثار في غرب الاندلس أحمد بن قسى ومريدوه من المتصوفة وابن المنذر في شلب وابن الوزير في يابورة والاميرال المرابطى على بن ميمون في قادس اما في الاندلس الوسطى فان القشتاليين وجدوا مساعدا في شخص سيف الدولة من بنى هود وكانت قرطبة خاضعة نظريا ليحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية للحكم المسيحي كما انصاعت كل من بلنسية ومرسية لابن مردنيش فوجد الامراء الاسبان في الشمال المجال خصبا لمحاولة الانتقاض على هذا الهيكل المنهار الذي عززه اسطول صليبي رابط في مصب الطاج ونزل على شنترين واشبونة في حين احتلت الكتائب المسيحية بياسة وابدة وطرطوشة والمرية وماردة وشتتمرية غير ان انبعاث الدولة على يد عبد المومن ما لبث ان تمخض عن انضمام ابن ميمون الى الموحدين حيث خطب في قادس باسمهم وصيغ ابن قسى ثورته بطابع موحدى وقد وجه الامير جيشا بقيادة ابن محمد المسوفى ووالى النجدات لتعزيزه فاقتبله ابو انعمر بن عزرون (عام 539هـ) في شريش التي اعتبر اهلها السابقين الاولين على غرار ما كان في الصدر الاول - ثم تعاقبت الفتوح في شلب وباجة وبطليوس واشبيلية (541هـ) من حيث قدم وفد برياسة القاضي ابي بكر بن العربي الى مراکش لتقديم البيعة باسم قرطبة (543هـ) .

واستقر عبد المومن (545هـ) في سلا لاقتبال وفود الاندلس فبايعه ابن ابي الوزير عن باجة ويابرة ويوسف البطروجي عن لبلة وابن عزرون عن شريش ورندة محمد بن الحجام عن بطليوس وعامل بن مهيب عن طلبيرة ولم يتخلف من الشوار سوى ابن قسى وغب هذه التهاني عاد الامير الى مراکش لانشغاله

بفتوح افريقية بعد ما جهز ابا حفص الهنتاتي صحبة نجله الامير السيد ابي سعيد (546هـ) فحاصر المرية التي حاول ابن مردنيش انجادها تعزيزا للقونين فعجزوا عن منازلة محلة الموحدين المحصنة بسور وفر بينما جلا العدو عن بياسة وابدة وتنازل ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة .

الامبراطورية الافريقية : وفي نفس السنة زحف عبد المومن الى سبتة عن طريق سلا فاستقدم الى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط اعيان لاندلس للاستعلام والاستحثاث الى الوحدة وتظاهر بالرجوع الى مراکش معرجا على الملوية فتلمسان وكانت افريقية نكبت بالسييل العارم الذي انحدر اليها من بني هلال وبني سليم بدافع من العبيديين الذين نقلوا هؤلاء الاعراب حلفاء القرامطة من الشام الى الصعيد المصري حيث عاثوا فسادا ثم عمدوا الى الاقتصاص من بنى زيرى الصنهاجيين الذين استقل معزهم السنى (ابن باديس) عن المستنصر العبيدى منذ عام 443هـ منحازا الى خلفاء بغداد ففسحوا لهم مجال النزوع عن افريقيا لتملكها بدل صنهاجة فانصبوا على امصارها فى خضم جارف اهلك الحرث والنسل واضعف البلاد .

ومن خلال هذه الفياقى المهزولة وصل عبد المومن بعد خزن المؤن من المحاصيل الى عاصمة الجزائر فى مائتى الف جندى ففاجأ أهلها بزحفه الخاطف واتضم اليه الحسن بن على الصنهاجى الذى كان النورمانديون قد طردوه من امارة المهديّة ثم احتل بجاية من حيث فر أميرها يحيى بن العزيز آخر ملوك الحماديين الى بونة ثم قسنطينة وكان نجل الخليفة قد اقتحم فى جيش من الموحدين قلعة بنى حماد فاصطدم الموحدون فى سطيف بالعرب الهلاليين فهزموهم واستسلم يحيى الذى كان قد خلف اخاه على امارة قسنطينة فانتقل الى سلا مكرما ومرت ثمان سنوات وكان عبد المومن يظهر رغبته فى استكمال احتلال افريقية لتخليص البلاد من خطر الغزو النورماندى وقد استصرخت به وفود افريقية حين نكبتها الجنود الصقلية فهب عام 554هـ يغد السير نحو المغرب الادنى فى حركة متشددة تصون المحاصيل ضاربا المثل الصالح فى اقامة شعائر الدين واحتذاء سنن السلف فوصل الى تونس معززا بسبعين قطعة بحرية فانصاع أهلها مستأمنين ثم نازل المهديّة برا وبحرا مصحوبا باميرها المطرود الحسن بن على وكانت حصنا منيعا تجمع فيه اعلام النورمانديين فربط الجيش بزويلة الخالية المجاورة واقام سورا غربى المدينة بينما احاط الاسطول بجهاتها واستمر هذا الحصار

القاسى يستنزف قوى الخصم وأقواته بينما اتجهت الجيوش الموحدية لفتح طرابلس
ومزابض نفوسة وصفاقس وسوسة وقابس والحصون الافريقية مستكملة زحفها
الظافر ولما تنته السنة وهب اسطول صقلية فى هذه الآونة فى مائة وخمسين
سفينة وطراة لانجاد الرعايا النورمانديين المحاصرين فصدده الاسطول الموحدى
فى مطاردة اسفرت عن اسر سبعة مراكب ومع ذلك واصل الافرنج الصمود
فى المدينة بضعة اشهر اخرى استأمنوا خلالها فجلوا عن المهدي بعد احتلالها اثنى
عشر عاما (555هـ) .

وفى هذه السنة - سنة الاخماس - اكتملت وحدة القسم الشرقى
الامبراطورية الموحدية من برقة الى تلمسان حيث اقرت الحاميات ونصب الولاة
والقضاة ورفرفت راية الاسلام من جديد فى هذا الصقع المترامى كما مسحت
الارض الى السوس الاقصى فراسخ وامبالا ففرض الخراج على ثلثيها زرعا وفضة
التزمت القبائل بادائها كما انضم الاعراب الهلاليون الى الدولة لاسيما بعدمركة
القرن التى نكبت فيها فلولهم المتخاذلة عن الجهاد فى الاندلس ونقل نسائهم
وصبيانهم الى مراكش وهكذا انشغل الخليفة طوال خمس عشرة سنة فى توطيد
الشق الافريقى من الامبراطورية فزحف فى نفس العام نحو العدو الشمالية
بعد ان اصدر الامر وهو فى غمرة الجهاد بتحسين جبل الفتح (جبل طارق) ولم
تكدهل سنة 556هـ حتى اجاز عيد المومن من طنجة الى الاندلس فاستقدم الى
الحصن الجديد القواد والاشياخ للتشاور فى تصميم حملة عارمة تنظم ما انتشر
من عقد الاندلس اذ كان محمد بن مردنيش قد عاث بشرق البلاد ومن بينهم والى
جيان محمد بن على الكومى ثم استولى على كل من قرمونة وقرطبة فانبرى الهنتاتى
واسترجع من القشتاليين باجة ويابورة وبطليوس كما استرد الامير ابو يعقوب
قرمونة ولكن بعودة الخليفة الى مراكش استعاد صهر بن مردنيش (ابن هامشكو
او الملك لوبو) غرناطة وتراجع الموحدون الى مالقة فصدر الامر من جديد بالتجمع
العسكرى فى سلا وكان الاسطول قد نما جهازه عام 557هـ باربعمئة قطعة رابطت
فى الشغور الكبرى منها مائة وعشرون فى المعمورة (وهى المهديّة بمصب نهر
سبو) ومائة موزعة على طنجة وسبتة وبادس وموانىء الريف ومائة اخرى فى
مراسى افريقية والجزائر وثمانون بسواحل الاندلس كما تعزز العتاد والسلاح
ودبوان الجيش باربعين الف فارس كومى وانتظم الحشد (558هـ) فتوافد الجنود
من كل الانحاء استعدادا للجواز الثانى الى الاندلس وكان العرب الهلاليون فى
صف واحد مع زناتة والموحدين وباقى البربر فى ثلاثمئة الف فارس انتشروا
بين مصبى سبو وابى رقراق الا ان المنية عاجلت الخليفة بسلا (18 جمادى
الثانية 558هـ) فنقل الى تينمل حيث دفن قرب المهدي .

الفصل الخامس عشر

العصر الذهبي في العروتين

عرفت الدولة الموحدية خلال نصف قرن عنفوان مجدها وتعاقب عليها ملوك برزوا في مدارج الحضارة وركزوا عوامل الاستقرار والانبعاث في الاندلس وافريقيا الشمالية فكانوا بحق زهرة هذا العصر لم تتجدد الى الآن في الامبراطورية العربية الاسلامية معالمها الوضاعة وقد امتاز المغرب في هذه الفترة بسياسته الأصيلة وسيادته الرصينة بافريقية والبحر المتوسط

يوسف بن عبد المومن (558هـ - 580هـ)

وبعد وفاة عبد المومن بايع الموحدون أبا يعقوب يوسف بتأييد أخيه أبي حفص والشيخ عمر الهنتاتي وقد احتفظ ابو حفص بن عبد المومن بمنصبه كوزير واصبح مستشار اخيه وأمين سره وتخلف عن البيعة الاميران ابو محمد عامل بجاية وابو عبد الله عامل قرطبة ويظهر ان ابا يعقوب الذي صادفه الحال باشبيلية عند نعي والده لم يتحل بلقب أمير المومنين الا عند ما اجمع الناس علي مبايعته (563هـ) وفي ضمنهم اخواه بعد استئصال الشائرين مرزدغ الصنهاجي الذي انبثقت دعوته من غمارة الى تازة بتأييد اوربة وصنهاجة (559هـ) وسبع بن منغفاد في نفس الاقليم (561هـ)

وكان الامير الشاب رائق الهندام رقيق الطبع عميق التكوين حلو المنطق

قد استكمل اداته العلمية باشبيلية فبرز في الفلسفة والاداب وازدان بلاطه باقطاب الفكر امثال ابن طفيل وابن رشد وحنكته ممارسة الحكم بالاندلس فجمع بين الصرامة واللين والتسامح والاحسان وقد اختص اسرته بالمناصب السامية فعقد لآخوته ابي زكرياء على بجاية و ابي اسحاق على قرطبة و ابي سعيد على غرناطة و ابي علي على سبتة و غمارة واستوزر نجله المنصور اعدادا لولاية عهده وكانت اشبيلية قد كيفت سريره فجاء اندلسي الطبع بعد ما كان والده افريقي الروح وانتظمت في عهده الزاخر مملكة مترامية عم فيها الرخاء والامن وانبسطت مجال الشراء بالحواضر ونعمت البادية بازدهار تبلور في وفرة الجبالا واتساقها .

ثورة قفصة : وفي هذه الآونة ثار بنو الرند في قفصة (574هـ) فهب الامير وقتل المتمردين واقتحم المدينة ونقل عرب رياح الى مراکش بعد ان مهد القطر التونسي حيث انتفض قراقوش التركي الذي احتل برقة وطرابلس ثم بنو غانية الذين وجدوا في هذه الاقاليم النائية ميدانا خصبا لانيثاق تمرداتهم بمساعدة الاعراب الثوريين .

السياسة الاندلسية : ولم تكن رسالة الخليفة الراحل قد اكتملت في الاندلس الذي اولاه الامير الجديد كل عنايته فقد ظل ابن مردنيش مسيطرا على مرسية وبلنسية وصهره ابراهيم ابن همشك على جيان وبنو غانية في الجزائر الشرقية فهب ابو حفص أخو الامير في فيالق عربية (عام 565هـ) لانقاذ قرطبة من غارات ابن مردنيش المعزز بالمليشيات المسيحية ثم تواردت نجدات بامرة ابي سعيد والى غرناطة فطوق الاميران مرسية بعد ان انضم لهما ابن همشك واقتحما المرية واستسلم ابن الحجاج اخ ابن مردنيش و امير بلنسية وواصل بنو غانية صمودهم في البحر بالاضافة الى مناوراتهم في افريقية أما الدويلات المسيحية فقد امست تشكل خطرا على جيوش ابي يعقوب فاختلت يابورة ووجهت ضرباتها الى باجة وشنترين وارباض اشبيلية وكانت قشتالة تتحصن شرقا خلف سلسلة من الجبال وقد خاض أميرها الفونس الثامن ضد الموحدين معارك عنيفة واضطر الخليفة الى الجواز للانديلس فنزل بقرطبة (567هـ) ثم اشبيلية حيث نعى اليه محمد بن مردنيش وتنازل اولاده عن جميع شرق البلاد واتجه الامير الى وجدة فحاصرها شهورا ونضبت فيها مستودعات الماء وكادت تستسلم لولا وابل هتان انقذها فاضطر الامير الى النزوح ومهادنتها بضع سنوات غير أن الموحدين ما لبثوا ان اقتصوا من العدو في ناحية قلعة رباح واغاروا على طليطلة وهنا اغتثم الامير فترة

استجمام فاتم بناء جامع اشبيلية بمنارته الخالدة واسس القصبه ومد الارصفة على وادى المدينة والقنوات المجلوبة من قلعة جابر غير ان الفونس خرق الهدنة فانبرى أبو حفص لاقتحام القنصرة ، فرجع الخليفة الى مراكش (عام 571هـ) بعد تعديلات بالولايات وكان الطاعون قد جرف بعاصمة الجنوب فاودى بحياة بعض اخوة الخليفة ومات الشيخ ابو حفص الهنتاتى بسلا فى طريق عودته من قرطبة .

ومرت ثمانى سنوات (571 هـ - 579 هـ) مهد الخليفة خلالها افريقية فأعاد الكرة على الاندلس فى جواز ثان عند استفحال غارات الفونس على قرطبة ومالقة ورندة وغرناطة واستجة وحصن شفياسة واتصال المعارك سجلا بين العدو من جهة وبين ابى اسحاق ومحمد بن يوسف بن وانودين من جهة اخرى وكان الامير قد عقد لابنائه على الولايات (ابى زيد على غرناطة وابى عبد الله على مرسية وابى اسحاق على اشبيلية واستنفر جشود البربر والعرب والاغزاز فعبير بهم (580هـ) الى جبل طارق ثم الجزيرة الخضراء ومنها الى اشبيلية حيث انتفضت جيوشه لغزو شنترين بغرب الاندلس فى حصار طويل انتهى بالجللاء للزحف ضد اشبونة وقد اساء الجيش الاندلسى فهم اوامر الخليفة فسارع بالرحيل فى جنح الظلام بدل الفجر ووجد المسيحيون المحاصرون فى شنترين ثغرة للانقضاض على الخليفة الذى وجهت اليه طعنات نجلاء نفدت الى مقاتله وتراجع آنذاك الجيش فانحنى بالسيف على المسيحيين ومات الامير قرب الجزيرة الخضراء (10 ربيع الثانى 580هـ) فنقل الى تنميل حيث دفن بجانب قبر والده

وهكذا ظل العدو الذى استقر بغرب الاندلس يهدد حوض الوادى الكبير رغم جهود الخليفة الشهيد وتزايد الخطر المسيحى بالشمال بقدرما اشتد ضغط بنى غانية وقلول صنهاجة والعرب فى المغرب الشرقى .

يعقوب المنصور : 580 - 595 هـ

تلقى ولى العهد ابو يوسف يعقوب البيعة الاولى باشبيلية حيث خف الى المغرب لنقل جثمان والده واستوزر عبد الواحد بن ابى حفص الهنتاتى وتقبل فى القصر الصغير ولاء ابى زكرياء بن ابى حفص الذى قدم من تلمسان مع اشياخ عرب زغبة الهلاليين الذين تعززت بهم الكتلة الموحدية وفى سلا انصاع للخليفة اخوته واعمامه فغمزهم بالرغد الجزيل كما آكرم الاجناد والموحسين والفقهاء والصلحاء وحرر المساجين ورد المظالم واستحث القواد على عدم الحياد عن

الشريعة وكان الامير الشاب قوى الشكينة فصيح اللسان طموحا درب على شؤون الدولة عندما استتوزره والده ، قد احاط نفسه بحجاب من الموالي وكتاب وقضاة وعظيهم من الاندلس وضرب على ايدي المنتفضين من اسرته وقومه وكانوا قد بدأوا يعكرون صفو الوحدة التي اندست فيها نواجر خارجية .

الاحداث الافريقية

وكانت ثالثة الاثافي في هذه القوى الناجرة هي عصابات قراقون (احد موالي الاكراد بمصر) التي انضمت الى ثوار الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة) والاعراب المسلمين من طرابلس وكان على بن يوسف اللمتوني قد ولي على جزر الباليار هاته محمد بن علي المسوفي (ابن غانية) وتداولها ابناؤه الى ان بايع حفيده محمد بن اسحاق الامير يوسف الموحدى فانكر اخوته انصياعه وامروا على بن اسحاق الذي ماكاد يطرق سمعه نعى ابي يعقوب حتى سرح اثنتين وثلاثين قطعة بحرية فنزل على بجاية فى غفلة من اميرها ابي البربيع المومنى (581هـ) وواصل خلال ثلاث سنوات فتوجه للجزائر ومازونة ومليانة والقلة ثم حاصر القسطنطينية تسانده عرب رياح وجشم واثبح فى حركة ظافرة بالجنوب التونسى حيث اقتحم قفصة منها طرابلس واستقر هو فى بلاد الجريد بينما رابط قراقوش الغزى من قابس الى طرابلس فى ظل الراية العباسية وكان ابن زيد المومنى قد اجلى بنى غانية عن بعض السواحل فطفقوا يصلون فى الصحراء الى ان هب المنصور من مراكش عام 582هـ الى تونس حيث بلغ الامير انهزام الموحدىين بامرة يعقوب حفيد عبد المومن فرحف نحو القيروان ثم الحامة حيث استعرت معركة انهزم فيها المسوفيون فافلت ابن غانية وقراقوش فى فلول من عصاباتهما ثم واصل المنصور زحفه فاقتحم قابس وتوزر وقفصة حيث هدم الاسوار واسترد مليانة والجزائر وبجاية وانضمت الى الخليفة افواج من الاغزاز الاكراد الذين كانوا فى جيش قراقوش فاندرجوا فى سلك الجيش الموحدى وتفككت اوصال العرب المشغبين وزج بهم فى خضم القبائل البربرية بالمغرب الاقصى كرصيد للجهاد فى الاندلس وهكذا نزل بنو هلال وجشم الخلط فى تامسنا بينما فى الغرب استقر بنو رياح .

وملك الموحدون الجزر الشرقية ولكن اخوة على بن غانية نزل قسنى ميورقة بجيش افريقى فاعاد نفوذ الصنهاجيين بينما خلف يحيى اخاه عليا المتوفى

فاستعاد النضال فى افريقية ضد التاجميات الموحدية وكان قراقوش قد استقر من جديد فى قابس وناقرته سليم فقتل بعض اشياخها ودب الخلاف بين الحليفين فانتزع يحيى قابس من يد قراقوش فى حين استقل القائد الموحدى عبد الكريم الرجراجى بالمهدية عن والى تونس ونصب نفسه سلطانا فقتله يحيى الذى استرجع المهديّة وأصبح فى آخر أيام المنصور أميراً للجنوب التونسي يوسع رقعة مملكته فى الغرب .

وهكذا لم يستطع المنصور استئصال جذور الثورة الصنهاجية فى افريقية بالرغم عن كفاءته وكفاحه الموصول طوال سنتين (582 - 584 هـ) وزحفه الجديد (586 - 558 هـ) الى تونس .

المنصور فى الاندلس

وقد اضطر الخليفة الى التارجح بين شقى المملكة للتهدئة ولكن بدون جدوى لان عناصر التشغيب كانت تجلو عن الميدان موقتا لتعود برفر عدة . اذ لم تكده تمرسنة واحدة (585هـ) على الزحف الاول ضد افريقية حتى اجاز المنصور من القصر الصغير الى الجزيرة الخضراء لصد المسيحيين عن البرتغال فشن الغارات على اشبونة وعاد الى العدو بالآلاف الاسرى واثناء الكراخاطف ضد تونس توالت عليه البرد (586 هـ) تنذر باستيلاء القرن على شلب وباجة وياقوزة فاستنفر الخليفة جيوش الاندلس بامرة محمد بن يوسف الذى حاصر شلب فاقتحمها مع المدن المحتلة وبعض الحصون كقصر ابى دانس (587هـ) وعاد المنصور من افريقية الى مراکش بعد ان قضى بفاس عدة شهور فى علة الزمته الفراش فنهض من جديد الى الاندلس فى جوازه الثانى (591 هـ) وكان القشتاليون قد بدأوا يتوغلون فى قلب الاندلس واغاروا على الجزيرة. بينما خرجت فلول من اتباع النونس ملك طليطلة قبيل انتهاء هدنة خمس سنوات تعيث فسادا فى الاقاليم الاسلامية وماكاد الخليفة يظاً أرض الاندلس حتى اتجه صوب جنوب قشتالة فعسكر قرب قلعة رباح واستعرض الجيش ثم نزل حصن الارك فرتب قواته فى وجه العدو فى تاسع شعبان وعلى ميمنته الاندلسيون وبميسرته العرب والبربر وامامه المتطوعون والاعزاز والرماة وهو يتوسط القلب والكل بقيادة ابن ابى حفص الهناتى الذى استشهد فى الحملات الاولى لفرسان الفنس فانبرت الخيالة البربرية واقتحمت الازغار التى تحصنت فيها عشرات الالاف من الاسبان

فانكسرت طليعة العدو وقرعت طبول النصر وظهر الخلل فى صفوف الفونس بعد توالى النجذات الموحدية والتي اطبقت على حصن الارك وطاردت الغلول المتعثرة واسرت الافا من الجنود مالبت المنصور ان حررهم محتفظا بكتل من الاسلاب والعتاد والخيول واستغل المنصور هذا الفتح فتوغلت فيالقه الى مجريط (مدريد) ووادى الحجارة وطمنكة وارياض طليطلة حيث لجأ الفنس المتدحر وبالرغم عن الاثر العميق الذى تركه هذا الانتصار فى نفوس المسيحيين الذين أصبحوا يستخطرون تهديد الموحدين فان ألفنس الثامن انكب مع أسقف طليطلة على اعداد اقتصاص حاسم خلال مدة المهادنة التى استمرت بضع سنوات وكان المنصور قد اضطر الى عقد هذه الهدنة لمجابهة ثورة بنى غانية وهكذا عاد المنصور الى مراكش (594هـ) دون ان يستكمل استغلال سلسلة انتصاراته مكتفيا بتغيير الولاية بالاندلس وتلقب الخليفة بالمنصور ثم ما لبث ان توفى (ربيع الاول عام 595هـ) بعد أن عقد لولده محمد الناصر وراجت اساطير حول عزوفه عن الملك وسياحته بالشرق فذاع صيته فى الشام وتناقل المؤرخون تصريحاته وهو على فراش الموت حول ندمه على نقل العرب الى المغرب وبناء الرباط وتسريح اسارى الارك .

المآثر الموحدية

وهكذا كان القرنان الخامس والسادس ابرز العصور العلمية فى المغرب حيث اصبح بلاط مراكش ملتقى الفلاسفة والاطباء والشعراء وتحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل (I) وحفلت اندية الفكر بالعدوة الجنوبية برجالات أفذاذ مثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبنى زهر علاوة على كبار الصوفية مثل ابي يعزى وابن غالب القضرى والسهيلي وابن حرزهم وابن شعيب السارية وابى شعيب الانصارى كما ازدهر العمران واينع الفن والاقتصاد وتمزز بتنظيمات جديدة .

الفن

وقد استطاع الموحدون بفضل ما أبدعوه من روائع تبوأ المقام السامى فى تاريخ الفن لا سيما فى عهد يوسف الذى عاش باشبيلية وتشبع بالثقافة

(I) عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص 176

الاندلسية وجمع خزانة تضاهاى مكتبة الحكم الثانى ، وقد لاحظ « مارسى » ان
مراجعة قائمة مؤسسات هذا الامير تحدى الى الاعتقاد بان حاضرة الفن الاندلسى
(اشبيلية) كانت اقرب الى قلبه من مراكش ، وقد زينها باروع البناءات والمآثر
العمومية ثم جاء ولده يعقوب فكان ابداع بناء فى تاريخ المغرب الفنى وقد تجلت
هذه البدائع خاصة فى اشبيلية والرباط ومراكش وجوامعها ومناراتها الخالدة
وأصبحت مراكش بقصورها وحدائقها وشوارعها أشبه ببغداد كما ضاهت فاس
دمشق فى روائها وطبيعتها الخلابة ومياهها الدافقة وقد ظل للصناع المجلوبين
من الاندلس اليد الطولى فى هذا العهد الزاهر الذى نشر الموحدون خلاله معالم
الفن الاندلسى فى ربوع افريقية مجددين الاتصال بين الاسلوب المغربى
والاسلوبين المصرى والعراقى السائدين فى بجاية ومهدية وتونس وبذلك امكن
للموحدين تحقيق وحدة الاسلام السياسية من قشتالة الى طرابلس الى السودان
عاملين بذلك على توحيد معطيات الفن الاسلامى فى الغرب .

ومنذ خلافة عبد المومن بن على بنى مسجد تازة ومسجد تينمل وشرع فى
تأسيس جامع الكتبية الذى اقيمت بازائه منارة اخرى فى عهده ايضا ثم تمت
على يد حفيده يعقوب المنصور ومن خواص مسجد تينمل ان منارته بارزة فوق
المحراب ويوجد مسجد موحدى على هذا النمط بسلا واذا وفقنا بين روايتى
القرطاس والاستبصار ، لاحظنا ان المنصور هو الذى شرع فى بناء جامع حسان
واكمل جامع القصبه بمراكش وكذلك منارة اشبيلية المعروفة بالخيرالدة (الخالدة)
وصومعة الكتبية .

وقد اندرست القصور والمدارس التى اقامها الموحدون كما انمحي اثر
المارستان الذى بناه المنصور بمراكش ووصفه بعض المؤرخين بانه لا مثيل له فى
الدنيا وان مستشفيات باريس فى اوائل القرن العشرين لاتوازي هذا المستشفى
الذى احتوى على نقوش بديعة وزخارف رائعة وبرك من الرخام الابيض تترقرق
كما شيد القلاع والاسوار فى مختلف الحواضر ومدت القنوات منذ ظهور الدولة
كقناة غبولة التى تنقل الماء الى الرباط والقناتين اللتين اقامهما المنصور بمراكش
وفاس وقنطرة تنسيقت التى جدها يوسف .

واسست فى قصبه مراكش مقصورة مدارة بحيل هندسية تظهر اذا استقر
المنصور ووزرائه فى المصلى وتختفى اذا انفصلوا (I) .

(I) ذكر المقرئ فى نفع الطيب (ج2ص804) انه زار مراكش عام 1010 هـ
فلاحظ ان حركات المقصورة بطلت وبقيت اثارها .

الاقتصاد

مسح الموحدون لأول مرة الاراضي الافريقية دعما للتنظيم الجبائي حتى بلغ دخل الخراج وقر 150 بغلا في افريقية وحدها عدا ايجاية وتلمسان والمغرب وعمت الرفاهية مجموع البلاد كما يقول طيراس الذي أكد ان مدن المغرب بلغت من الازدهار مبلغا لم تعرفه من قبل اما في الاندلس فان النظام الذي اقرد الموحدون قد جعل حدا - حسب اندري جوليان - للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف واسست ضيع تجريبية بمراكش ومكناسة وفاس وتازة واشتهرت بحيراتها بثرائها في غراسة الزيتون (I) كما ازدهرت الصناعة بالحواضر والبوادي فأصبحت سبتة في طليعة مراكز انتاج الورق الذي لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة (الورق الشطبي) وقد احصيت بفاس وحدها ايام المنصور والناصر 30094 من اطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 12 معملا لتسيبك الحديد والنحاس و II معملا للزجاج و 400 معمل لصنع الكاغد علاوة على المطاحن والمعاصر والمخابز وأفران الجير (2) اما العملة فقد وطد الموحدون قيمتها الذهبية حيث رفعوا وزن الدينار من 3.960 غراما ذهبيا في العهد المرابطي الى 4.729 غراما ذهبيا كما كان في عهد عمر بن الخطاب وبقي الدينار مربعا الى عهد المرينيين حيث استدار مع احتفاظه بوزنه .

الجيش

وكان للموحدين جيش عتيد اقتلع جذور النور مانديين من افريقية بمضل اسطول قوى ساد البحار فكان اول اسطول في المتوسط (حسب اندري جوليان) واسست في هذا العهد كتابة لديوان الجيش النظامي الذي كانت نواته الاولى هي ثلاثة آلاف الطلبة الذين تم تدريبهم بالاضافة الى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرماية والتجديف في بحيرة المسرة (المنارة) وتضخم هذا الجيش بانضمام الاغزاز والاكراد والعرب الى ان بلغ نصيب مليون . ويمكن القول بان الموحدين اقاموا اقوى دولة عرفتها افريقيا الشمالية والاندلس فكان عصرهم فترة ذهبية في تاريخ الاسلام .

(I) المعجب ص 155 .

(2) المؤرخ ميلبي في كتابه حول الموحدون

الفصل السادس عشر

انهيار الامبراطورية الموحدية

بعد وفاة المنصور خلفه ولى عهده محمد الناصر لدين الله وتجددت بيعته (عام 595هـ) وكان رجلا شجاعا قوى النفس ولكن قلة دهائه لم تساعده على تخليص الدولة مما خاق بها من عوامل الانحلال لاسيما في افريقية حيث عجز الولاة الجدد عن اقرار النظام وايقاف زحف يحيى بن اسحاق الذى استولى على ممتلكات قراقوش بطرابلس واحتل المهديّة وبلاد الجريد وتونس والقيروان وسيطر على مجموع اقاليم افريقية بعد اعتقال الوالى الموحدى ابى زيد عم الخليفة وانصاع للخلافة العباسية فلم يجد الامير بدا رغم نصائح كثير من مستشاريه بالمسالمة من استنفار الجيش بايعاز من سنده الوطيد عبد الواحد بن ابى حفص الهنتاتى لتحرير شرق المملكة فتوجه الاسطول عام 600 هـ بقيادة الامير يحيى ابن ابى زكرياء الهزرجى ووازه الناصر برا الى افريقية حيث جلا ابن غانية عن تونس والقيروان الى قفصة بعد ان نقل امواله وذويه الى المهديّة مع قريبه على ابن الغانى وواصل الناصر سيره نحو المهديّة فحاصرها بينما طاردت حشود القائد الهنتاتى يحيى المسوقى المتحصن فى جبل تاجورة (باقليم قابس) مع رهائن العرب فأوقع بفلوله وحرر والى افريقية الموحدى وقتل جيازة اخ ابن غانية وطال حصار المهديّة فاستأن ابن الغانى وفتحت المدينة (602هـ) واستعاد الموحدون مجموع افريقية وانتصب الهنتاتى جد الحفصيين واليا عليها فركنز الخليفة بذلك سلطة الحفصيين فى تونس قبل ان يعود الى حاضرة ملكه (604هـ)

غزو الجزر الشرقية : وانفسح بانهييار بنى الغانية مجال تحرير جزيرة ميورقة التي استعصت على المنصور فتنازلها الاسطول الموحدى بامرة كل من عم الامير ابى العلاء وابى سعيد بن ابى حفص وقتل واليها عبد الله اخو ابن غانية وولى عليها عبد الله الكومى الذى اسندت اليه بعد ذلك اميرالية الاسطول وتوالى على ميورقة ومنورقة بعد ابى زيد عم الخليفة عاملان نيفا وعشرين سنة الى ان احتل ميورقة ملك اراكون عام 627هـ - 1230 م .

وقعة العقاب : 609 هـ - 1212 م .

وعند ما كانت تتوارد أنباء غارات الفونس على ثغور الاندلس ثار ابن الفرس الاندلسى فى جزولة ومحمد بن عبد الله بن العاضد (آخر خلفاء الشيعة بمصر) فى ورغة (حوز فاس) فقتل الدعيان وحشد الامير جيشا كثيفا عبر به من قصر المجاز (القصر الصغير) عام 607 هـ الى طريف حيث تجمعت مآت الآلاف من الجند فاتجهت الى اشبيلية تبث الرعب فى طريقها ومنها الى قشتالة (608هـ) فاستنفذ بعض قواه فى محاصرة حصن سلبطرة بايعاز من وزيره ابن جامع فاهتبل الفونس تضجر الجيش واقتحم قلعة رباح التي كانت امنح الحصون واصطدم بالناصر فى حصن العقاب (15 صفر 609 هـ - 1212 م) وكان الجيش الاندلسى قد حقد على الخليفة الانصياح لوزيره الذى قتل ابن قادس لفراره من فله رباح وعزل قوات العدو الشمالية عن الموحدين فجلا هذا الجيش عن ساحة القتال بعد ان استشهد المتطوعون فى الطليعة وانغمر العرب والبربر فى معترك مختل مالبثوا ان انزاحوا عنه فبقى الناصر فى قبته الحمراء بقمة الهضبة يحميه حشمه من العبيد وضمد الخليفة فى كيكبته المزجاة ولكنه اضطر الى التراجع فى مقدمة العبيد وكتائب الفنس تتعقبهم برماحها ولم يكن هذا النصر الاسبانى نتيجة قوة خارقة فى الجيوش المسيحية التى اذكى حماسها بطنل الصليبية رودريك اسقف طليطلة ومؤسس كتدرايتها الذى نظم المقاومة بقدرما استغل نتائج الحضارة العربية لتعزيز اللسان اللاتينى الذى كانت لغة القرآن والعلم قد استأصلت معالمه وظاف بفرنسا واطاليا واسبانيا لاقرار الهدنة بين الدولات المسيحية بالشمال والحصول على نداء صليبي من البابا اينوسيان الثالث *Innocent III* بل ان هزيمة المسلمين تمخضت عن تخاذلهم بالرغم عن جيوشهم التى بذت بعددها وعددها قوات الخصم وكانت وقعة العقاب ضربنة قاسية انهارت بها مقومات الامبراطورية الموحدية .

وما لبث الامير ان عاد الى مراكز منحل الشكيمة محط المعنوية فعقد ولاية العهد لولده يوسف المنتصر الذي دعت له منابر المغرب والانديلس وقبح الشيخ المنهزم في عقر قصره الى ان مات في السنة التالية (شعبان 610هـ) غما او تسميما في غمرة ملذاته وكان الخليفة الجديد صغير السن لم يزد عمره على ست عشرة سنة فاستبد بالامر الوزراء الذين تواطؤوا ضد أبيه وتقاوس عبد الواحد الحفصي عن البيعة في افريقية (وكان ممن نصح الناصر بعدم الجواز الى الاندلس) ووزعت المملكة بين امراء الاسرة (اسحاق والد عمر المرتضى بفاس واعمام الامير اسحاق بن المنصور في اشبيلية ومحمد في بلنسية وشاطبة وعبد الله في ورسية ودانية) ولم يعرف الاسبان كيف يستغلون هذا النصر لتنظيم حملة منسقة ضد الاندلس الواهنة كما أن قواد الفردوس المتخاذلين لم يستطيعوا تحقيق الانتفاضة اللازمة لتدارك الامر فظل الخلاف ينخر كيان الامبراطورية الموحدية طوال نصف قرن وهي متماسكة وقد اسفر انحلال المقومات العسكرية والروح السياسية عند مشيخة الموحدين عن انبثاق معسكرات في البلاط يحركها وزراء اودعياء الوزارة مما حدا عناصر من الكتلة الموحدية الى الانفصال كهسكورة وصنهاجة وشجع الحفصيين (I) على الاستقلال بتونس وزناتة وبني عبد الواد وبني زيان بالجزائر وبني مرين على الزحف على الشمال بينما تمردت القبائل العربية في سبيل المحيط الاطلنطيقي وبنو معقل في واحات الصحراء وغمرت الفوضى والاضطراب جميع أنحاء المغرب الوديع فخربت المدن وتضعض الاقتصاد ووهنت الفلاحة واستقر الرحالة في ارباض الحواضر يعينون ويفسدون .

وكان الزحف المسيحي قد توقف في الاندلس اثر وفاة الفنس الثامن بعد وقعة العقاب بسنتين وواجهت قشتالة واراكون ازيد من عشر سنين صعبا داخلية انفرد خلالها الليونيون بمحاربة الموحدين فانهزم المسلمون بقصر ابي دانس (614هـ) وتخاذلت جيوش اشبيلية وقرطبة وجيان وغرب الاندلس رغم جهود المنتصر ، غير ان الزمان كان يخدم المسيحية اذ تمزقت وحدة الاندلس المسلمة بقيام امارات مستقلة بقيادة ولاية موحدية او امراء اندلسيين تجددت

(I) توفي عبد الواحد عام 618 هـ فبايع الموحدون بافريقية ولده عبد الرحمن ولكن المنتصر عزله وولى مكانه ادريس حفيد عبد المؤمن ثم ابنته عام 620 هـ ثم عبد الله بن عبد الواحد الحفصي الذي تغلب عليه اخوه يحيى فاستبد بالملك باسم الحفصيين (627 هـ) .

بها دويلات ملوك الطوائف للمرة الثالثة وظهر محمد الاحمر فى اركونة فامتدت مملكته الى جيان وباجة وقادس وغرناطة بمخالفة القشتاليين وتوطد محمد بن هود فى امارة مرسية باسطا نفوذه على قسط مهم من الاندلس ولكنه خضع بعد عشرين سنة لحماية قشتالة ثم سيطر لها بعد عقدين آخرين من الستين ، وبذلك تفتت هذه الدويلات واحدة واحدة تحت ضربات فرديناند الثالث ملك قشتالة وجيم الاول امير اراكون اللذين تكتلا لاقتسام النفوذ فاحتل هذا الاخير الجزر الشرقية وبلنسية وشاطبة واغنى اقاليم اسبانيا فأصبحت اراكون دولة متوسطة بينما اتجه فرديناند عقب تحقيق وحدة قشتالة وليون الى اقتحام ماردة وباجة وابذة وقرطبة وجيان ثم سفليات الوادى الكبير واشبيلية بمعونة محمد الاحمر وهكذا لم تكد تمر ثلاثون سنة حتى كان نصف الاندلس فى قبضة المسيحيين وظلت المملكة النصرية وحدها قائمة فى تبعيتها لقشتالة ولم يكن فى وسع الموحدين نجدة الاندلس المتفككة لما غمرهم من انهيار تدريجى وعاش مسلموا الاندلس تحت رحمة المسيحية التى فرضت عليهم مع اليهود زيا خاصا وحظرت النجهر بشعائر الدين فى حين افادت من معالم حضارتهم العربية التى تبلورت مظاهرها الاسبانية المغربية .

وانبرى بنو مرين منذ سنة 613هـ من صحراء فجيح مكتسحين بسائط المغرب فاوقعوا بعامل فاس فى الريف ثم استولوا على عمالة تازة وتوفى المنتصر فى غضون ذلك (620 هـ) وسط حديقة حيواناته بطعنة من بقرة شرود من ابقار الطعان فاستخلف ابن جامع والموحدون عم الامير الراحل الشيخ عبد الواحد ابن يوسف وكان عالما ورعا قبل الخلافة على كره منه فبايعه الناس عدا شرقى الاندلس حيث انتصب عبد الله المنصور بمرسية وتلقب بالعدل معززا بدهاية الموحدين بن بزجان الاصغر واخوته الثلاثة امراء قرطبة وغرناطة ومالقة فانقض الموحدون بمراكش على عبد الواحد المخلوع (621 هـ) وخنقوه وخلص الامر للعدل باستثناء تمرد البياسى احد حفدة عبد المومن الذى تملك بلقب الظافر فى قرطبة وجيان وحضون الثغر الاوسط وتحالف مع المسيحيين فى مقابل التنازل عن بياسة وقيجاطة لمقاتلة ادريس نجل المنصور الذى انهزم فى اشبيلية امام عشرين الف جندي مسيحي وما لبث العدل ان عزل بتواطؤ غرب الخلط وبربر هسكورة رغم التفاف اهل تينمل وهنتاته حوله فانتصب ادريس باشبيلية اميرا وتلقب بالمامون (624 هـ) وخنق العدل بمراكش على يد من بها من الموحدين بعد

ان رفض التنازل عن العرش وكانت الروح القومية لدى هؤلاء المشيخة قد تهللت وفوضاهم النفسية قد طمت فما لبثوا ان نكثوا العهد وبايعوا الفتى يحيى بن الناصر وهو ابن 16 سنة فانضمت اليه افريقية وسجلماسة بينما التف حول المأمون جزء من الاندلس مع فاس وتلمسان وسبتة وبجاية فحالف ملوك قشتالة مقابل التنازل عن عدة حصون وعبر البحر بخمسة عشر الف فارس مسيحي علاوة على العرب زاحفا نحو مراكش وتوالت في غضون ذلك على الحاضرة غارات الخلط والهسكوريين المواليين للمأمون كما ثار محمد ابن ابي الطواجين الكتامي المنقبي بغمارة (625 هـ) ومحمد بن يوسف بن هود الجذامي بشرقنطة في نفس السنة حيث دعا للمستنصر العباسي وما كادت تصل انباء زحف المأمون حتى فر يحيى الى تينمل (626 هـ) وجدد أشياخ الموحدين البيعة للمأمون الذي دخل مراكش بعد ان قتل جنود يحيى ولعن المهدي على المنبر ودعا بالغي المذموم بدل الامام المعصوم ومحا اسمه من النقود ودورها واستاصل البربرية من الاذان واعدم أشياخ الموحدين الناكثين وسمح للمليشية المسيحية ببناء كنيسة اصيحت نواقيسها تدق بمراكش وطلق يحيى يغير بين الفينة والفينة على العاصمة فهدم الكنيسة وقتل اليهود وابتز اموال القصر في الوقت الذي كان المأمون محاصرا في سبتة اخاه عمران المؤيد الذي فر الى ابن هود فنصبه بالمرية واستعاد سبتة وتوفي المأمون بوادي العبيد وهو في طريقه غما ونكدا في اخر يوم من عام 629 هـ وجعلت الظروف القاسية من هذا العالم الشهم والخطيب الموقر والمحدث الراوية عنصرا اكتمل به انحلال الدولة وانهارها .

فترة الفوضى : ثم بويح ابنه عبد الواحد الملقب بالرشيد اول سنة 630 وعمره لا يتجاوز الاربع عشرة وذلك بتواطؤ سفيان وهسكورة والجيش الافرنجي وأمنه حباب الاسبانية أم الامير التي استنفرت قوادها الفئات فافتتحت مراكش وفر يحيى مع فلوله المنهزمة وتعزز الرشيد بعمه سعد ابن المنصور واستمرت القلاقل في الجنوب فطارد الرشيد يحيى بهزرجة ثم سجلماسة وامن الموحدين المشغبين واعاد المراسيم المهدوية ولكن تنكيله بقيادة الخلط حداهم الى الانتفاض والمناذاة بخلافة يحيى الذي زحف من جديد على مراكش فاستعادها في حين توجه الرشيد عن طريق الاطلس الى سجلماسة فملكها (362 هـ) وكان نصيب المغرب قد بدأ ينهار في الخارج مما شجع اسطولا جنوبا على محاصرة سبتة وفرض غرامة اربعمائة الف في مقابل الافراج عنها وكان العهد قد بعد بين المغرب وهذه الغارات

الافرنجية على ثغوره لان ادعاء الملك كانوا في شغل شاغل بتطاحنهم حيث
 زحف الرشيد مرة ثانية على مراكش في جيش سفيان واقتحم المدينة وفسر
 قادة الخلط الى ابن هود فاستنجد يحيى بنى معقل الذين اجاروه ثم قتلوه قوب
 تازة فخلص الامر للرشيد الذي انتزع فاس من بنى مرين وقد حاول ابن هود
 اقتحام سلا في اسطول وجهه لمانزلتها ولكنه فوجيء بانضمام الاشبيليين واهل
 سبتة الى الرشيد (635 هـ). وكذلك محمد بن يوسف ابن الاحمر الذي التقى حول
 ابي زكرياء الحفصي ثم بدا له فعاد الى الحظيرة الموحدية (636 هـ) غير ان بنى
 مرين توالت انتصاراتهم على جيوش الرشيد الذي توفي غريقا في احد صهاريج
 مراكش (640 هـ) فبويح اخوه ابو الحسن السعيد الملقب بالمعتضد الذي سعى معززا
 بالقبائل العربية لاسترجاع السلطة الموحدية بالمغرب والجزائر ولكن الحفصيين
 كانوا قد استولوا على سبتة وسجلماسة التي هب السعيد لفتحها مع الشمال
 وبينما كان في زحوفه عام 645 هـ نحو تلمسان وافريقية تعقب ابن عبد الحق
 المريني الى تازة حيث تنازل وانضم الى الموحدين لمقاتلة يغمراسن في اعقاب
 السعيد الذي طعن طعنة قاتلة في التحامه ضد بنى عبد الواد (صفر 646 هـ)
 وتراجعت جيوشه مفلولة وكان الامير المريني في بنى يزناس فاغتنم الهزيمة
 وقتل عبد الله بن السعيد ، وبينما عقد الموحدون بمراكش لعمر المرتضى والى
 رباط الفتح معززا بأشياخ العرب استولى المرينيون على تازة ومكناسة ثم فاس
 فاقتطعوا بذلك غرب البلاد عن جنوبها الذي ظل تحت نفوذ المرتضى من ابي
 رقراق الى السوس (647 - 649 هـ) وكان عرش المملكة بالاندلس قد انتقل قبيل
 ذلك بسنتين من اشبيلية الشهيدة الى دولة حاضرة بنى الاحمر وحاول المرتضى
 استرجاع عمالة فاس ولكن جيوشه التي احتوت على عشرات الالاف من الفرسان
 ولت الادبار تاركة الشمال للريثيين وسبتة للعرفيين وطلق بنو مرين يوسعون
 رقعة نفوذهم في السنوات التالية فاحتلوا سجلماسة (655 هـ) ثم اتسابت
 جيوشهم في قامستا الى ام الربيع وبقى المرتضى متأرجحا بين علي بن يدر الثائر
 بسوس وبين المرينيين الذين ما لبث أميرهم يعقوب بن عبد الحق ان هاجم
 حاضرة مراكش عام 662 هـ في عراق هلك فيه ولده عبد الله وأسفرت هزيمة
 الموحديين عن رضوخ المرتضى لاتاوة سنوية ثم انتفض أبو دبوس المومني قائدا
 جيوش المرتضى على سيده ولحق يعقوب بفاس يستنجده فامده بالرجال والعتاد
 وبايعه العرب والهساكرة والازموريون وعرج على مراكش فاقتحمها على غرة من
 أميرها أوائل سنة 665 هـ ومر المرتضى يتنقل من هنتاة الى كدميوة ثم شيشاوة

الى ان قتل أواخر ربيع الثانى من نفس السنة ففقد المغرب فى شخصه ، آخر زهاد
الملوك الموحدين الذين عرفت البلاد فى عهدهم رغد عيش ورخاء بال بالرغم عن
الثورات المتسلسلة .

واستقل أبو دبوس الواثق بالله والمعتمد على الله بالامر فى مملكة مراکش
ونكت مهادنة يعقوب المرينى الذى هب لمناجزته فاستصرخ أبو دبوس بيغمراس
ابن زيان الذى اضطر بغاراته الامير المرينى الى القفز الى الشمال لاستئصاله ثم
العودة فى السنة التالية الى حاضرة الجنوب ولكن أبا دبوس تحرك لمقاتلته وهو
لا يزال فى أم الربيع فكر راجعا الى مراض فوال والموحيدون يلاحقونه وولى
يعقوب المرينى وجهه فجأة شطر أبى دبوس لينزل بجيشه هزيمة منكرة صرع
فيها « آخر خلفاء الموحدين واستسلمت مراکش (668 هـ) وفر فلول الموحدين الى
تينمل حيث بايعوا اسحاق المرتضى السدى اعتقل وقتل بعد سنوات (674 هـ)
فاكتمل انقراض الدولة المومنية التى اقامت حول مراکش امبراطورية شامخة
البنيان وطيدة الاركان شملت الاندلس وافريقية والصحراء الى السودان .

الفصل السابع عشر

المريونيون وتقلص الحدود المغربية

لعبت الطبقة الاولى من زفانة دورا اساسيا هاما فى القرون السالفة فملك المغراويون اقليم فاس وبنويفرون سلا وانبرت عناصر من الطبقة الثانية فاستقر منهم بنوعبد الواد بتلمسان والجزائر وبنومرين بالمغرب الاقصى وكان هؤلاء يعيشون فى فيافى الصحراء بين سجلماسة وفجيج والملوية وربما انتجعت ظواعنهم الكلا فى الزاب بالمغرب الاوسط وشارك بعضهم فى غزوة الارك بجانب المنصور الموحدى غير أن هزيمة العقاب (609 هـ) وتضعف العمران وانتشار الاوبئة وانحلال الحكم فى عهد المنتصر شجع الرحالة المرينيين على التوغل فى البسائط الثرية التى أفنى الحدثان كثيرا من قطانها وفرسانها حتى وصلوا الى الريف وهزموا الموحدين (613 هـ) بامرة عبد الحق وتعززوا باسلاب الخصم وسلاحه فى اقليم تازة ورغم استشهاد عبد الحق فى صراع مع عرب رياح انتصر المرينيون وشردوا فلول العرب والتفوا حول ابي سعيد عثمان الذى والى غاراته على القبائل من الملوية الى فاس والقصر الكبير والهبط فارضا عليها الاتاوات الى ان قتله علق عام 638 هـ فخلفه اخوه محمد مقتفيا اثره فى توظيف المغارم واكتساح البلاد وقد انهزم المرينيون فى مناوشات دارت عام 642 هـ بين جيش ابي معرف بن عبد الحق وقوات الخليفة الموحدى السعيد فقتل الامير المرينى بطعنة احد الاعلاج الذين تعززت بهم الكتائب المرينية وما لبث أبو بكر بن عبد الحق ان انبرى فى سيل عارم من الاجناد المرتبة لامتلاك الحصون داعيا بمكناسة الى ابي زكرياء

البحقسي امير افريقية وشعر السعيد بان الامبراطورية الموحدية بدأت تتقلص فزحف من مراکش في جيوش كثيفة (645هـ) صوب تلمسان وافريقية وانجاز المرينيون الى الريف ثم بايعوا الخليفة في تازة وانتقضوا بعد مقتله في تلمسان عاشرين في بسائط الملوية ففتحوا مدينة فاس (646هـ) ووطدوا شمال المغرب وشرقيه فازدهر الاقتصاد واستتب الامن واندرج المومنيون في جيش المرينيين منع ثلة من الاعلاج تحت ولاية السعود الذي مالبت الفاسيون ان قتلوه وعاد ابوبكر من منازلة فازاز الى حصار فاس التي دعت من جديد للمرتضى ثم قتال حليفه يغمراسن في ايسلي قرب وجدة فانهزم بنوعيد الواد واستامن اهل فاس مقابل مائة الف دينار فاتحين ابوب المدينة للامير الظافر (648هـ) ودخل الرعب القلوب بعد اعدام المشغبين وفي ضمنهم القاضي المغيلي وبعد احتلال ابي بكر لمصب ابي رقراق (649هـ) انتزعها منه المرتضى الذي استنفر عشرات الالاف من العرب والبربر لمصادمة بنى مرين في البهاليل (ناحية فاس) فحسبت انتفاضاتهم بالهزيمة (653هـ) وتعزز سلطان الدولة النامية بالغنائم والاسلاب التي مكنتها من احتلال تادلا ثم مطاردة يغمراسن في سجلماسة ودرعة واخراجه منهما فانبسط النفوذ المريني وعاد الامير الى تفقد هذه الثغور حيث مات بعد رجوعه لفاس (656هـ) فبويح ابنه ابو حفص ولكن مشيخة بنى مرين كانت اميل الى يعقوب بن عبد الحق

يعقوب بن عبد الحق (657 - 685 هـ) - (1269 - 1286 م)

وقد امتاز هذا الامير الشهم بحلمه وجوده وتواضعه وتقواه فكان بحق ابرز امراء بنى مرين ميمون الطالع لم تنكس له راية ولم يهزم له جيش فانتصر مرارا على بنى عبد الواد وحرر سلا من الافرنج المتواطئين مع يعقوب بن اخيه عبد الله (658هـ) حيث انتقل من تازة الى مصب ابي رقراق في ظرف اربع وعشرين ساعة ثم هادن بنى زيان غب احتلال تامسنا وحاضرتها انفا (الدار البيضاء) وقد تار بنو ادريس في هذه الفترة معتصمين بجبال غمسارة ولكن سياسة الحلم والاسترضاء التي نهجها يعقوب ازاء ذويه حذته الى العقد لاجد الامراء المشغبين على اول جيش مريني عبر عام 660هـ الى الاندلس بينما زحف في نفس السنة الى جبل جيليز بعاصمة الجنوب لمقاتلة المرتضى فاصطدم بقائده ابي دبوس واضطر بعد مقتل نجله عبد الله الى التراجع لوادي ام الربيع حيث انهزم ابن وانودين قائد الموحدين ونشب خلاف بين المرتضى وابن عمه ابي دبوس فانضم هذا (عام 661هـ) الى المرينيين الذين جهزوه بالجند والعتاد لفتح مراکش وتخلع

المرتضى ثم قلب أبو دبوس ظهر المجن فاستنجد بيغمراسن ضد ولي نعمته يعقوب الذى قفز من الحمراء الى تلمسان فاقتص من بنى عبد الواد (666هـ) وقتل عمر بن يغمراسن وكر على الجنوب عبر تادلا ووادي العبيد الى ان بلغ الحوز فاندفع أبو دبوس يطارد جيش يعقوب وهو يستجره نايا به عن مراض قواه فانقلب المرينيون على غرة واحتزوا راس الخليفة الناكص (668هـ) ودخلوا مراکش ظافرين فاستوسقت المملكة المرينية بالحاضرتين مع درعة والسوس وكان الامير المريني يظهر الانصياع للمستنصر الحفصي ويكاتبه ويهاديه وبعد الابلال من وعكة شديدة بسلا عقد ولاية العهد لولده عبد الواحد فانجاز بنو عبد الحق الى غمارة نائرين على عمهم فاسترضاهم الخليفة من جديد وامنهم ولكن معظمهم فضل اللجوء الى الاندلس حيث امسوا اشواكا فى حلوق الاسبان

واستعرض يعقوب حشوده العربية (سفيان والخلط وذوى حسان والشبانان ورياح والهبط) فى طريقه الى تلمسان فبادر باستصلاح الواديين والمغراويين الذين ابى اميرهم يغمراسن الا النزال فالتحم الفريقان فى ايسلى وانكسرت طليعة الاعلاج وسار السلطان فى اعقاب الفلول المهزومة فهدم وجدة (670هـ) واكتسح سهول تلمسان ونزل بنو توجين خصوم يغمراسن من وانشريس فنسفوا المحاصيل وحرقوا القرى والضياح وطرد بنو عبد الواد من سجلماسة

فتح طنجة وسبتة

ولم يقر للامير قرار رغم فجيعة فى ولي عهده (671هـ) حتى انتفض لتحرير طنجة وسبتة وكان ابو القاسم العزفي قد استبد بالامر فى سبتة وظلت طنجة تابعة مدة سنة الى العزفيين غير ان واليها يوسف الهمداني المكنى بابن الامير ماقتى ان خطب للحفصيين ثم للعباسيين واستبد اخيرا بالامر ثم صرع فاستولى العزفيون على المدينة وانتهى الصراع باستسلام طنجة بعد الحصار المريني (672هـ) ثم سبتة لاداء خراج سنوى

وجدة البلاد

وهكذا استكملت وحدة البلاد فى حدودها الافريقية ووجد المرينيون فى المغرب الجديد ثروة فى الرجال والسكان واستقر العمران وانتشر الرغد وازدهر الاقتصاد فى الحواضر الا ان القبائل العربية اصبح لها ضلع فى تركيز الحياة

السياسية والاجتماعية والسيطرة على الكتل البربرية ثم التشرّب الى جهاز الدولة بالمصاهرة والاقطاعات التي استدرّوا بها جبايات الحاضرة والبادية وتمخض استيطان البدو والاعراب في السهول والواحات عن اتجاه اجتماعى جديد فى المجتمعات البربرية عدا الاطلس الذى احتفظ باصالته واستقلاله الذاتى بالرغم عن بربرية الدولة فى حين ظهرت الحياة الطاعنة حتى فى المراكز الفلاحية التى كان يغلب عليها الاستقرار وتوطدت اللغة العربية فى اصقاع متناثرة وبذلك تعززت الوحدة السياسية رغم ظهور العناصر العربية الجديدة التى ملأت ازيد من نصف البلاد والتف معظمها حول يعقوب الذى امسى اقوى ملك فى الغرب الاسلامى حيث ارتكز على العرب وزناتة معا فى قيادة جيوشه وتوطيدها

السياسة الاندلسية

وكانت مطامح الفونس العاشر فى غزو الثغور الافريقية لم تبلور بعد لان غاراته لم تكن تعدو جولات لنهب السواحل المغربية مع تضيق الخناق على المملكة النصرىة وحصرها فى اقليم جبلى تحت حماية قشتالة وقد اتخذ محمد الفقيه ابن الاحمر فى هذا الساحل الوعر مدينة غرناطة حاضرة لامارته وشيد بها قصر الحمراء واستعان اول الامر بالامراء المرينيين اللاجئين اليه ولكن تكالب القشتاليين وانبثاق الروح الصليبية حدته استجابة لوصية والده الى ايفاد مشيخة الاندلس للاستنجد بيعقوب وكان الخليفة تواقا الى الجهاد فهادن يغمرا من وهب من فاس (673) مستعينا باسطول العزفى لاجازة ابنه ابى زيان فى طليعة الجيش الى طريف حيث والى غاراته التمهيدية على حصون العدو فى شريش ثم اجاز الامير فى خمسة آلاف من المرينيين (674 هـ) مع حشود عربية وبربرية تجمعت فى رندة وطريف الى الجزيرة الخضراء وخف ابن شقيلولة امير مالقة الى اقتباله فهب الخليفة لمواجهة مراض الخضم فى الوادى الكبير مقدما طلائع جنده بامرة ولده يوسف وكان الجو مكهربا بين ابن الاحمر واصهاره بنى شقيلولة الذين ساعدهم الفونس العاشر على الاستقلال بالامر فى مالقة ووادى آش وقمارش هادفا الى تقليص ظل المملكة النصرىة وفوجىء المسيحيون بهجوم عارم فى استجة قتل فى غضونه زعيم قرطبة نونة *Dun Nuna* (الدون نونيو) الذى طالما نكل بالثغور الاسلامية فبعث رأسه الى ابن الاحمر الذى داهن حفظا للمستقبل باعادته مطيبا الى ذويه وتكديست الغنائم والاسلاب واستطال النهب والتخريب الى

اشبيلية وقرطبة وبعد استجمام الامير خلال الشتاء في مدينة البنية المقامة جنوبى الجزيرة الخضراء عاد الى المغرب بعد ان قتل جنوده الزناتيون اسقف طليطلة واسفرت احدى المعارك عن هلاك ولى عهد قشتالة وتنصيب أخيه سانجا *Sancha*

وبعد جولة تفقدية فى سوس استنفر الخليفة المتطوعين من جميع القبائل واتجه اوائل عام 676هـ من جديد نحو قصر المجاز (القصر الصغير) من حيث ابهر الى طريف واقتبله برندة ابنا شقيلولة فزحف الجميع نحو اشبيلية حيث انهزم جيش الجلالقة فاحتل السلطان بعض الحصون ثم والى غاراته على شريش وقرطبة ولم يكن يهدف الى ازيد من هجمات ابادية اقتصاصا من القشتاليين الذين عاثوا فسادا فى ثغور المسلمين وشارك ابن الاحمر على مضض فى حملة على ناحية قرطبة وجيان فضايق الخناق على أنصار الصليب وانعقد الصلح وكان الخليفة حفيبا بابن الاحمر فصاحبه الى غرناطة ومنها نقل الى الجزيرة وفى غضون ذلك مات عبد الله ابن اشقيلولة فتنازل ابنه محمد عن مائة للمرينيين مخافة وقوعها فى قبضة عمه ابن الاحمر ودخلها الامير المرينى فى موكب حافل ثم عاد الى المغرب فى فاتح 677هـ

ولكن ابن الاحمر ظل مغاضبا للخليفة لمولاته لابنى شقيلولة وخوفامن طمع الدولة المرينية الفتية فى المملكة النصرية فحالف الجلالقة لمهاجمة الجزيرة الخضراء فى اسطول بامرة الدون بيدرو *Don Pedro* ثم اغراء والى مالقيا لتسليمها والتواطؤ مع يغمراسن لمهاجمة يعقوب المرينى من الخلف وتوالت الانبياء على الخليفة وهو بجنوب المغرب يقمع الثائر مسعود السفينانى فكظم غيظه وعقد الوية الجهاد لولى عهده يوسف واستنفر القطع البحرية المرابطة فى سلا وانفا وبادس وسبتة حيث تجمع منها اثنتان وسبعون اقلعت فى ربيع الاول (678هـ) وكان الاسطول القشتالى مركبا من اربعمائة قطعة غير ان رجالها كانوا موتورين لزهادة الاجور وضعت التموين وانحلال بنياتهم من الجوع فتساقطوا تحت ضربات المدرعات المغربية وفر جنود البر وحررت الجزيرة وهاذن يوسف ملك قشتالة وما لبث يعقوب أن عاين فى طنجة مظاهر المؤامرة النصرية ففضل الزحف أولا على تلمسان لقمع يغمراسن بمساعدة بنى توجين قبل العودة الى مراکش حيث بلغه عام 681هـ استنجد الفونس العاشر ضد ولى عهده سانجا الذى استعجل موت والده وحالف بنى نصر للنزول على عرشه

فاهتبل الخليفة هذه الفرصة وخف على عجل للمرة الثالثة الى العدو واقتبله

الفونسي في استنجة واستقرضه مائة ألف دينار مقابل ارتهان تاج الملوك الجلالة وحاضرا معا سانجة في قرطبة ثم وجه السلطان السرايا لنعيث في جيان وطليلة ومجريط وهاجم النصريين في الجنوب فاحتل الحصون الغربية وحاصر مالقة وهناك اضطر ابن الاحمر الى مصالحة الخليفة مستعينا بالامير يوسف وانهقد الصلح وبعد زحف ابادي جديد عاد السلطان الى المغرب (683 هـ)

الجواز الرابع الى الاندلس (684 هـ - 1285 م)

وفي هذه الغضون مات الفونسي العاشر (I) فانتصب ابنه سانجة ملكا على قشتالة وحسن يعقوب نبض الامير الجديد فلاحظ عنادا حذاه الى تجشم اعباء جواز رابع فوصل الى طريف في صفر 684 هـ وكان القشتاليون قد استعانوا بجيش الاراكون للحيلولة دون عبور الخليفة الى العدو ولكن يعقوب تمكن من محاصرة شريش وبث سراياه فاحرزت النصر تلو النصر في اشبيلية وقرمونة وحصون شتى منها حصن مرتقوط وتوالت الجيوش من المغرب بامرة يوسف لتعزيز الموقف وقد حاول الاسطول القشتالي قطع خط الرجعة على المرينييين فاستقدم الخليفة سنا وثلاثين قطعة بحرية كانت تحمي ثغور سبتة وطنجة والرباط وطريف وتوالت عليه وفود سانجة بالجزيرة للمهادنة فقبل ذلك بشروط منها الحصول على الكتب العربية المودعة في الخزائن المسيحية وعقد لابنه ابي زيان منديل بعد أن أوصاه برعاية حدود المملكة النصرية وتوفى بقصره بالجزيرة الخضراء في 22 محرم عام 685 هـ (1286م) فنقل الى شالة حيث دشنت المقبرة المرينية عام 682 هـ بدفن أم العز والدة يوسف وهكذا لم تسفر حركات الجهاد المتوالية ضد قشتالة عن أي تعديل في التخوم القائمة بين الاسلام والمسيحية إذ تمخضت الانتصارات عن اختضاد شوكة قشتالة وتوطيد مملكة غرناطة التي واصلت الاضطلاع برسالة خالدة في الفردوس المفقود

الناصر أبو يعقوب يوسف 685 - 706 هـ 1286 - 1307 م .

كان يوسف أبيض اللون حسن القام مليح الوجه جوادا شهما مهيبا جددت بيعته في الجزيرة فدشن عهده بإجزال العطاء وتسريح السجناء والغاء المكوس

(I) الفونسي العاشر هو الذي يسميه الناصر في الاستقصاء هرايدة بن الاذفونش .

والقبالات والرتب والتنازل عن زكوات الفطر والضرب على ايدي الظلمة وتحرير
الرعية من الضيافة الاجبارية ورعاية امن الطرق وقد تنازل لابن الاحمر عن ثغور
الاندلس عدا الجزيرة ورندة وطريف وجدد السلم مع سانجة

سلسلة الثورات : ولم يكد السلطان يرجع الى فاس حتى انتقض عليه محمد
ابن ادريس بن عبد الحق بورغة فبعث لمحاربته اخاه ابا معرف فانضم الى الثوار
ثم عفا عنه الخليفة واعتقل الاخرين وهم في طريقهم الى تلمسان فسيقوا الى تازة
واعدموا في باب محروق بفاس (باب الشريعة القديمة) وفي غضون السنة التالية
تمرد عرب معقل بصحراء درعة وسوس وكذلك هسكورة فانهزموا تحت ضربات
اثنى عشر الف فارس ونكب اولاد محلي وفي ضمنهم والى مراکش الذي هلك
في السجن وخلفه بالحمراء الامير ابو عامر نجل السلطان بمساعدة احد الموال
وهو محمد بن عطو الجناتي الذي ما فتى ان جر الامير الى الثورة وقاتل والده
ولكنه انهزم وفر بمال الدولة الى تلمسان حيث آواه عثمان بن يغمراسن فأمنه
السلطان بدافع الجنان واعاده الى ولاية مراکش وواجه الامير الزياني طلب تسليم
الجناتي بالرفض فتأزمت العلاقة بين البلدين وكانت هذه الظاهرة المتبلورة في
العفو عن الادعياء نتيجة ضعف عاطفي نخر كيان الدولة تدريجيا بتسلسل
التمردات العائلية

بنو وطاس في تازوفا

بنو وطاس من الفصيلة المرينية دخلوا الى المغرب مع بني عبد الحق واستقروا
بالريف وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير الذين ينتسبون ليوسف بن تاشفين
وقد وجدوا في تازوفا معقلا حصينا وكادوا يفتكون باللاجئين اليهم من بني
مرين عندما كانوا مطاردين من طرف السعيد الموحدى فأقاموا حامية بهذا الحصن
نصب يوسف على رأسها ابن أخيه فطرده عمر بن يحيى بن الوزير (569هـ) وبعد
انهزام وزير السلطان عمر بن السعود هب بنفسه مصحوبا بعامر بن يحيى اخ
عمر الثائر الذي ضاق خناقه ففر الى تلمسان فقلب عامر ظهر المجن وتمنع في
الحصن المتمرد ثم استشفع أمير مالقة فرج بن اسماعيل بن الاحمر الذي وفد على
السلطان في اسطول رابض في مرسى غساسة (قرب مليلة) فعفا عنه الخليفة
ولكنه حاول اللجوء الى تلمسان بدل الاندلس فنكل السلطان بمن ظفر بهم من
ذويه وفتح تازوفا

ابوعامر من جديد

وكان ابناء الامير ابي بكر بن عبد الحق قد اوجسوا خيفة فانجازوا الى تلمسان ولكن السلطان امنهم فاعترضهم ولده ابو عامر فى طريق العودة بالملوية فقتلهم جميعا ثم نجأ الى غمارة فرارا من غضب والده وظل هناك بضع سنوات الى ان مات عام 698هـ فنقل جثمانه الى فاس

بنو الاحمر

وبينما كان يوسف يحارب بنى عبد الواد (689هـ) بتلمسان حيث اباد الخضراء اقتصاصا من عثمان بن يغمراسن - نقض سانجة عقود السلام فايحر يوسف الى العدة بعد ان مهد قائد الحاميات المرينية الطريق بغارات هوجاء ضد قشتالة فالتحم الاسطولان فى بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ونزل الجيش المرينى بعد انهزام القطع القشتالية لمواصلة الغارات على اشبيلية وشريش والعودة الى المغرب (691هـ) وهناك تامر ابن الاحمر مع سانجة على اقتحام المسالج المرينية بطريف ومحاصرتها برا وبحرا فاستسلمت بعد اجهاد وعيضا استشرف لها الامير النصرى عوضا عن الحصون التى تنازل لسانجة مقابلها فحسر الضفقتين وكان يوسف قد لقيه بمراباة غداة تنصيبه على العرش وتنازل له عن معظم الثغور ترضية له وتعزيزا فندم على ما بدر منه ووجه وفدا للاستعطاف بامر فرج بن اسماعيل المذكور الى تازوفا فلم يسع السلطان الا العفو وتوطيدا لدعائم الجهاد فى الاندلس وما لبث ابن الاحمر ان عاد الى طنجة فى عمرة فرحه (962هـ) فوافاه يوسف بها واجزل بره وتنازل له عن الجزيرة ورندة والغربية وبقية الثغور علاوة عن وادى آش التى كانت لبنى شقيلولة الذين قطعهم يوسف بدلها عمالة القصر الكبير (687هـ) واستمرت هذه المصافاة حتى بعد وفاة محمد الفقيه (701هـ) وقيام نجله محمد المخلوع الذى ما فتىء ان حالف سانجة وأوعز (703هـ) الى ابن عمه فرج ابن اسماعيل باحتلال سبتة ونقل ال العزفى الى غرناطة وقد تعزز الامير فرج بعثمان ابن ابي العلاء المرينى الذى رافقه الى المغرب وثار بغمارة واستولى على اصيلا والعرائش والقصر الكبير

بنو عبد الواد

وقد اصبحت مملكة بنى زيان موثلا للامراء المتشققين على الدولة المرينية

وقد نهج يوسف ووالده لحد الان سياسة التصالح ولكن تعنت عثمان الزياتي دفع السلطان الى استئناف العراك ضده عام 698هـ حيث اوفد اخاه ابا بكر فانضم اهل ندرومة الى المرينيين واستصرخوا يوسف ضد ابن يغمراسن فزحف لحصار تلمسان وأدار عليها سورا ثانيا وخذقا سحيقا واحاطها بالمجانيق واستمر التطويق الخائق مائة شهر وفي عام 692هـ اختط يوسف بجانب السور قصرا ومسجدا وانتظم عمران هذه المدينة الجديدة المنصورة في بحبوحة من القصور والبساتين والحمامات والقنادق مع مارستان وجامع ذي منار شاهقة وكانت قوات يوسف تغزو النواحي الشرقية في هذه الغزوات فاقترحت كثير من مدنها مثل وهران ومستغانم وتونس وشرشال وانشريس ومليانة والمدينة والجزائر وتنافس الحفصيون الذين انقسمت مملكتهم بين تونس وبجاية في خطب ود سلطان المغرب الظافر الذي ورد عليه يوسف شريف مكة وبرد ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون احد مماليك الايوبيين بالهدايا والتهانى مع بيعة شرفاء الحرم المكي وقد انتحر عثمان بن يغمراسن غما لما منى به من هزيمة (703هـ) بينما استمر حصار تلمسان الى 706 هـ .

مصير يوسف : كانت اسرة وقاصة من يهود فاس تداخل الخليفة وتنادمه وبلغ من نفوذها ان تولى اربعة منها قهرة القصر وسيطروا على مقاليد الدولة فشعر السلطان بوجهتهم الاستغالية ونكل بمجموعهم عام 701 هـ وقد فسح كذلك في البداية ابواب البلاط للخصيان فاندرجوا بين حرمه ولكنه ارتاب في شأنهم آخر الامر فاعتقلهم وقتله عرفهم عنبر بطعنة نجلاء في 7 ذى القعدة سنة 706 هـ في المنصورة فنقل الى شالة .

أبو ثابت (706 - 708 هـ) - (1307 - 1308 م)

هو عامر بن الامير عبد الله الذي هلك بغمارة خلال انحيازه عن والده يوسف صحبة الناصر عند وفاته فاستغل خوولته في بنى ورتاجن ودعا لنفسه فبايعه أشياخ بنى مرين بينما شايع الوزراء والحشم الامير أبا سالم فاستنجد أبو ثابت ببني عبد الواد لامداده بالسلاح مقابل رفع الحصار عن تلمسان واسترداد الحواضر المحتلة وقتل عمه ابا سالم وعم ابيه ابا بكر ولجأ اقرباؤه مذعورين الى غمارة واتجه هو نحو فاس 707هـ ولم يكد الجيش المريني يبتعد عن المنصورة حتى درس التلمسانيون معالمها ثم واجه الخليفة فورة من الثروات وكان عثمان

ابن أبي العلاء لا يزال قابضا على شمال المغرب فثار أحد أبناء عم السلطان يموكش وقاتل الوالي واستولى على الاقليم ودارت بينه وبين جيوش الخليفة بام الربيع معركة انهزم فيها وعاد ادراجه الى الحمراء فقتل مرتزقة الفرنج وفر الى اغمات ثم هتكوذة حيث سلمه زعيمها مخلوف الى السلطان الذي قتله تحت السياط مع ستمائة من الثوار صلبوا على سور القصبنة جنوبي باب الرب كما اعدم نفس العدد في اغمات وفي هذه الغضون تمردت سكبسيوة وحاحة ثم انصاعت بعد حملات عسكرية وكان العرب يعيشون في سهول الاطلنطيك بثامسنا فاستصحبهم السلطان الى انفا وقتلهم في حين صلب بالرباط فوجاء اخر من الاعراب الموسومين بالحرابة وكذلك عرب رياح بالهبط.

غزو شمال المغرب : وبعد انهزام كتائب سلطانية في الشمال قرر الخليفة الاشراف شخصيا على العمليات في الريف والجبل فاقتحم حصن علودان وانتقل الى طنجة حيث نظم غارة شعواء (708هـ) ضد ابن أبي العلاء الذي التحق بسببته المقتحمة من طرف بني الاحمر وقد اختطت تطوان من جديد كمركز لتنسيق الغارات وكان قد مر على بناء قصبتها في عهد يوسف نحو ربيع قرن (685هـ) وبينما كان ابو ثابت يفاوض ابن الاحمر في تسليم سببته وافته المنية في صفر عام 708 فدفن بطنجة ثم نقل الى شالة .

وهكذا بدأ صرح الدولة ينهار بنشوء الخلافات وانثاق الادعاء وتمرد قبائل الجنوب وعرب الساحل

أبو الربيع : (708 - 710 هـ) - (1308 - 1310 م)

وبعد وفاة ابي ثابت بويح اخوه ابو الربيع وهو لا يكاد يبلغ العشرين من العمر فاعتقل عمه الدعى على بن زريقاء واجزل العطاء واسترضى الجيش بالاموال في تطوان ثم عاد الى فاس يتعقبه ابن ابي العلاء الذي هزم وفر الى الاندلس لقيادة الغزاة وكان الصلح قد أبرم مع ابن الاحمر وبنى عبد الواد وانتفض السبتيون على النصرين وطردهوا جامية بنى الاحمر واقتحم قائد السلطان تاشفين الوطاسي المدينة (709هـ) فلم يسع ابا الجيوش نصرا بن محمد الا الرضوخ نظرا لتكالب القشيبين ضد مملكته متنازلا للمريتين عن الجزيرة ورندة وقد توطينت الرابطة بزفاف الامير الى اخت ابن الاحمر وبامدادات عسكرية تجهيزا للمجاهدين في العدة وصادف الحال ورود بعثة من بنى نصر تظاهروا حردجالها بمعاقرة الخمر جهارا فجلدهم

القاضي أبو الحسن الزرولبي الصغير الذي حاول الوزير عبد الرحمن الوطاسي البطش به فثارت الجماهير وتدخل السلطان لآخامد الفتنة والضرب على ايدي اصحاب الوزير الذي اسرها في نفسه وتآمر مع بني عسكر وهم من شيوخ بني مرين وقائد الميليشية الافرنجية لخلع السلطان وتنصيب عبد الحق بن عثمان وانحاز المتآمرون الى تازة للدعوة للامير الجديد قطارهم السلطان الذي اعتل بعد استرجاع المدينة فتوفي في آخر جمادى الثانية سنة 710هـ ودفن بحصن الجامع الاعظم الذي اسسه يوسف عام 692هـ وجهزه بالثريا النحاسية الرائعة التي مازالت قائمة الى الان وقد ازدهرت الحياة في هذه الفترة فتغالى الناس في مظاهر الترف لا سيما بالحواضر الكبرى مثل فاس حيث تضخمتم اثمان العقارات وتنافس الاثرياء في القصور المزخرفة بالزليجي والرخام والنقوش المختلفة وفي الازياء الحريرية الرائعة والخيول المطهمة وانواع الحلى والمجوهرات والطيوب والعطور غير ان البادية كانت قد افتقرت من جراء المضاربات فسي المحاصيل وارتفاع مستوى المعيشة

أبو سعيد عثمان الأكبر (710 - 731 هـ) - (1310 - 1331 م)

كان هذا السلطان عالما جوادا ورعا امه عربية من الخلط وقد حاول ابو سعيد الاصغر عثمان بن يوسف اعتلاء العرش بعد وفاة ابن اخيه ابي الربيع ولكن الوزراء ومشيخة المرينيين اختاروا ابا سعيد الاكبر عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق الذي يبيع بتازة فوجه ابنه ابا الحسن الى فاس الجديد للاستيلاء على ما في القصر من ذخائر واموال وعتاد ثم اجزل الاعطيات وحرر الاسرى وخفض من المغارم والمكوس واسقط عن اهل فاس ضريبة سنوية

ثورات جديدة

ولم يكف الامر يستقر ببيعة اجماعية من بني مرين والعرب والموالي حتى خف السلطان الى الرباط لتفقد الحال وتعزيز الاسطول ببناء قطع جديدة في دار الصناعة بسلا وبعد اعتقال عدى الهسكوري الثائر في الجنوب زحف السلطان نحو وجدة فاستعصت عليه ثم اتجه في السنة التالية (714هـ) وفي طليعة جيوشه ولداه أبو الحسن وأبو علي للاقتصاص من أبي حمو الذي ما زال يشجع الادعياء بايوائهم فتحصن في عاصمته وكان أبو علي (وأمه فرنجية) أحب الى والده رغم صغر سنه مما حداه الى تخصيصه بميزات الامارة وولاية العهد ولكنه لم يكف يصل الى

فاس حتى سولت له نفسه الانتقاض على والده الذى بقى فى تازة وادعى الملك واصطدم بأبى سعيد فى معركة خرج خلالها السلطان وعاد الى تازة وولده يطارده فحاصر المدينة وتفاوض الطرفان فتنازل الملك الوالد عن العرش محتفظا بناحية تازة ولكن اعتلال السلطان الجديد غب عودته لفاس نفى الناس من حوله فطوق والده المدينة واسترجع الملك مسامحا أبا على الذى انتصب من جديد واليا فى سجلماسة حين أصبح أخوه أبو الحسن مستشارا ووليا للعهد على غرار أخيه وقد اظهر أبو على من ابهة الملك فى الصحراء ما اضفى على مملكته الصغرى طابع الاستقلال والروعة فأقام جهازا مخزنيا بدواوينه وجيشه معززا من طرف عرب معقل فى توسعة شقة مملكته باقتطاع توات وكورارة ثم درعة ومراكش (722هـ) حيث أعلن الحرب على أخيه أبى الحسن الذى هزمه فى أم الربيع ففر الامير الشائر الى سجلماسة ولكن قلب أبيه كان اعلق به من أن يختار غير العفو والرضى فأقره فى امارته .

سبتة : اما سبتة فان أبا سعيد عقد لابي زكرياء العزفى عليها منذ اعتلائه العرش (710هـ) ولكنه ما لبث ان استقل بالامارة وعاد الى نظام الشورى وعين عبد الحق بن عثمان قائدا للحرب ثم انصاع من جديد (716هـ) غير ان وفاة أبى زكرياء (720هـ) واضطراب الحال حدوا أبا سعيد الى احتلال المدينة (728هـ) واقرار مشيختها مع تعيين رجال على دواليبها .

الاندلس : وانهمك الامراء المرينيين فى تمهيد وحدة البلاد واستئصال الادعاء والثوار شغلهم عن الاندلس نحوامن ربع قرن اضطلمت خلالها ثلة من الامراء المهاجرين بوصل حلقات الجهاد ضد الجلالقة الذين حاصروا الجزيرة بينما طوق الراكونيون المرية وزحف الدون بطرة *Don Pedro* نحو غرناطة (718هـ) محاولين جميعا فصل سواحل المملكة الاسلامية عن افريقيا وقد استطاع حماة المهجر من المرينيين بقيادة عثمان ابن أبى العلاء الافراج عن المرية وصيانة الحدود الغربية ولكن الجلالقة الذين احتلوا من جديد الجزيرة وواصلوا زحفهم نحو الشرق على طول الساحل ما لبثوا أن طردوا من مراتبهم الجديدة محتفظين بطريف وجبل الفتح واستصرخ المسلمون بأبى سعيد الذى اشترط تسليم شيخ الغزاة الشائر ابن أبى العلاء فرفضوا وانتصر هذا الامير على جيوش السليبي فاسترجع غرناطة (719هـ)

وهكذا تمكن المرينيون من استكمال وحدة البلاد وايقاف تيار بني عبد
الواد الذين غير اميرهم ابو تاشفين عبد الرحمن بن حمو سياسته بالاتجاه نحو
الشرق لاقتطاع بعض ثغور الحفصيين حيث هزم (729هـ) ابا بكر بن ابي زكرياء
واحتل حاضرة تونس ولوح بتنصيب احد الادعياء الحفصيين اللاجئين اليه فاوفا
الامير الحفصي ولده للاستنجد بابي سعيد واستطاع خلال ذلك استرجاع
عاصمته وانعقد الحلف والمصاهرة بين البلاطين فزفت الاميرة فاطمة بنت الملك
الحفصي الى ابي الحسن (731 هـ)

واعتل ابو سعيد بالنقرس وهو يستقبل العروس بتازا فنقل الى فاس
حيث توفي في 25 ذى القعدة سنة 731 هـ فكانت نتيجة الصراع الذي استمر
ثلاثة ارباع قرن هي توطيد المغرب الاقصى في حدوده الضيقة .

* * *

الفصل الثامن عشر

ازدهار وانحيار

لعل أعظم ملوك بني مرين وأوسعهم نفوذا هو أبو الحسن الذي عقد له والده أبو سعيد ولاية العهد واستند اليه مراسيم الامارة منذ استقل اخوه أبو علي بالحكم واتخذ لنفسه شارة الملك بالصحراء وقد انتقل بعد بيعته بتازة الى فاس حيث اكتملت المصادقة على خلافته فبنى بالاميرة الحفصية وكان حفيا بأخيه فاتجه شخصيا الى سجلماسة لاقراءه في ولايته ثم عرج على تلمسان للاقتصاص من ابي تاشفين بتعاون مع الحفصيين فاستقر بتا سالت قرب سيدي بلعباس واتصل حبل الدسياسة بين الامير الزياني وابي علي فثار هذا بايعاز ووعد من ذلك واحتل درعة ووصلت قواته الى الحوز فاضطر الخليفة الى العودة بعد ان أقر في حصن تاويرت حامية عسكرية لمراقبة حدود المغرب الشرقية واستمر حصاره سجلماسة سنة كاملة حاول بنو عبد الواد خلالها الافراج عن المدينة التي سقطت في قبضة الجيش السلطاني (734 هـ) فاعتقل أبو علي وقتل بفاس وعمره لايتجاوز سبعه او ثلاثين سنة ثم اعاد أبو الحسن الكرة على المغرب الشرقي فاحتل وجدة وحواضر المغرب الاوسط (ندرومة ووهران ومليانة وتنس والجزائر) ثم احيا المنصورة واحكم الخناق على تلمسان ثلاث سنوات فاقتحمها (737 هـ) وكان مغراوة وبنو توجين قد انضموا الى بني مرين وساعدوهم على استكمال وحدة المغرب فانقرضت دولة بني عبد الواد بقتل الامير عبد الرحمن بن ابي الحسن

لابي تاشفين اخر امراء بنى زيان وتوافرت الاسلاب والذخائر وانتهت المأساة بالعفو عن الباقيين من بنى عبد الواد فاندرجوا فى الجيش مع مغراوة وبنى توجين وبنى واسمين وتكتلت زناة كلها تحت لواء ابي الحسن الذى ذاع صيته فى العالم الاسلامى وتواردت عليه برد سلطان مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وتبودلت (738هـ) الخطابات والهدايا الثمينة من الاحجار الكريمة والحلل المذهبة والمرصعات والدرق اللمطية والخيول والصحف واستونفت العلائق بعد وفاة الناصر (741هـ) مع نجله ابي الفداء اسماعيل حيث وصل الوفد المغربى الى مصر بعد اربع سنوات (745هـ) وقد وصلت كذلك تهانى السودان عن طريق سفارة وجهها سلطان مالى منسى موسى الى ابي الحسن فبعث سلطان المغرب وفد الرد على التهنئة مع هدايا فاخرة وهكذا حقق ابي الحسن ماطمح اليه اسلافه فرضخ له ملوك عصره واكمل بعقدهم انصياح ملك غرناطة محمد الرابع (نجل السلطان ابي الوليد بن ابي سعيد فرج بن الاحمر) الذى وقد على ابي الحسن بفاس عام 732 هـ للاستنجد به ضد القشتاليين حيث كانوا قد احتلوا جبل الفتاح (جبل طارق) منذ ربيع قرن (709هـ) فاسترد الامير ابو مالك نجل السلطان المرينى هذا الحصن (733هـ) بخمسة آلاف من الاجناد البواسل

الانكسار بعد الانتصار

غير أن هذه الامبراطورية الجديدة كانت منهاره من أساسها فمنذ 738 هـ تقاعس السلطان عن القدوم الى تلمسان لتهنئة صهره ابي الحسن الذى طال انتظاره فكانت النكسة الاولى التى أكدت هلهلة الصلة بين المملكتين رغم محاولة الخليفة تعزيز الروابط بالمصاهرة مرتين وضعفت الروح العائلية لدى الاسر المالكة اذ ما كاد ابو الحسن يعتل وهو فى ارباض تلمسان حتى سعى كل من ولديه ابي عبد الرحمن و ابي مالك الى التسابق للحكم وقد سبق لابي الحسن ان اشركهما فى القاب الامارة والتناوب على اريكة الخلافة فانبثقت كتلتان وانقسم المخزن شطرين وتجلي ضعف قاعدة الدولة والسلطان لا يزال حيا فلم يسعه الا التماسك للظهور من جديد من أجل استئصال هذه الدسائس وفر ابو عبد الرحمن الذى كان احرص على استعجال الحكم من اخيه فارجه عرب بنى زغبة الهلاليون الى والده فاعتقله بوجدة حتى قتل عام 742 هـ بينما لجأ

وزيره زيان الوطاسي الى الحفصيين وقد ثار جزار من حشم الامير السجيين يدعى ابن هيدور وكان شبيها بسيدته فادعى انه ابن السلطان وءاواه بنو عامر خصوم السويديين واثار الفتن في شمال المغرب وشرقه الى ان اعتقله الحفصيون بطلب من السلطان فقتل في سبتة

وكان أبو الحسن قد نصب ابنه أبا مالك قائدا على الثغور الاندلسية (740هـ) بعد أن هادن الجلالقة واعفى النصربيين من الاتاوة التي كانوا يؤدونها الى قشتالة واغتتم الامير الشاب فرصة مغادرة الفونس الحادي عشر لاسبيلية واستعصاء تموين الجنود القشتاليين فأوغل داخل التراب المسيحي الى مدينة ادناصور ولكن المسيحيين احاطوا به قرب شريش وكان مثقلا بالاسلاب فقتل في ملحمة شريدة ونقل جثمانه الى الجزيرة فاستنصر السلطان الجيوش وهياً الاساطيل لغزو العدو فتواردت على سبتة ست عشرة قطعة بحرية بامرة ابن فرحون قائد اسطول بجاية تعزز بها الجهاز الملاحي المريني فتجمعت مائة سفينة هزمت الاسطول المسيحي وقتلت قائدة الملند واستاقت السفن المسلوقة الى الثغور الاسلامية (شوال 740هـ) ثم اجاز ابو الحسن فعسكر حول طريف وطوق المدينة وانضم اليه الامير ابو الحجاج واستنجد الفونس باساطيل البرتغال وجنوة فحالت في الزقاق دون وصول المؤن الى السلطان ونضب الزاد في الجيش المريني بينما تعزز القشتاليون بفيلق برتغالي ولم يكد يمضى نصف عام على حصار طريف حتى دخلها القشتاليون ليلا واستمر العراك في الصباح وفوجيء المسلمون فتراجعوا امام زحف الحامية التي استولت على دخائر القسباط الملكي واضرمت النيران في المعسكر والتجأ أبو الحسن الى جبل الفتح وعبر الزقاق ليلا بينما قتل من حظاياه الاميرة الحفصية وابنة عمه عائشة وأسر ولده تاشفين (7 جمادى الثانية 741هـ 28 نونبر 1340) وبذلك منى الخليفة المريني باكبر هزيمة في وقعة طريف قطعت الامل في استيناف الجهاد بالاندلس فواجهت المملكة النصرية مصيرها بوسائلها الخاصة وقد حاول ابو الحسن اعادة الكرة بعد أن هاجم القشتاليون بعض الثغور الاسلامية في ناحية غرناطة ولكن اسطوله انهزم في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وحاصر العدو الجزيرة الخضراء فسقطت في قبضته رغم الامدادات المرينية والنصرية وجلا عنها أهلها نازحين الى المغرب (743هـ) وظل حمادة بنى مرين يكافحون في نطاق دولة بنى الاحمر في حصون التخوم الغربية والساحلية كرندة وجبل الفتح الذي سيبقى تحت الحكم الاسلامي ازيد من قرن (1462م)

وانكفا ابو الحسن يعزز امبراطوريته الافريقية فتزوج من جديد 747هـ بعزونة ابنة السلطان الحفصي الذي حثهم على مصاهرة المرينيين وزيره عبد الله ابن تافراجين الموحدى رئيس الفوج المناصر للمرينيين فى المخزن التونسى وتوفى السلطان ابو بكر بعد ان وصلت كريمته الى المغرب فنصب ابن تافراجين ولده عمر بدل ولى العهد ابى العباس الذى قتل فى معارك ضد اخيه واطهر الامير المستبد من التطاول ما احنق ابن تافراجين الذى التحق بأبى الحسن وكان الخليفة المرينى تواقا الى احتلال افريقية فتعلل بفتك عمر بالامير الشرعى الذى سبق أن أقر ولاية عهده فاستنفر كتائبه لغزو المغرب الادنى فهب من تلمسان 748هـ بعد ان عقد لولده ابى عنان على المغرب الاوسط وانصاع له فى زحوفه ولاية بسكرة والزاب جنوبا الى طرابلس وكذلك امراء بجاية وقسنطينة الحفصيون شمالا فاقطعهم عمالتى ندرومة ووجدة ثم طارد الجيش المرينى الامير ابا حفص فاعتقلوه وقتلوه مع حشمه قرب قابس ودخل ابو الحسن دخول الظافر الى تونس (8 جمادى الثانية 748هـ) فضم بذلك مملكة الحفصيين الى دويلة بنى عبد الواد وارتحل فى الغد فى جولة تفقدية بالقيروان واضرحتها وماثرها وبسوسة والمهدية وبقيّة مدن الساحل ثم عاد الى تونس لاستكمال تجهيز الشغور الافريقية فعلا صيته وتلقى تهاني قشتالة والسودان بقسنطينة

ولكن هذا الانتصار كان قصير الامل لان عرب سليم وهلال لم يرضوا بالاعطيات المرينية التى عوضهم بها أبو الحسن عما كان لهم من اقطاعات ومن مظاهر السطوة والاعتزاز وكانت سياسته فى ذلك أشبه بسياسته ازاء البدو الاعراب بالمغرب فتدمروا وتآمروا وولوا الغارات على المزارع والمسالح وفاوضوا الامير عبد الواحد الحفصى لتنصيبه على العرش فتبرأ الى السلطان منهم واعتقل المتآمرون وتكتل اتباعهم حول احمد بن عثمان حفيد ابى دبوس آخر ملوك بنى مرين وكان خياطا فى توزر فنصبوه أميرا وصبح أبو الحسن الثوار فى سهل تونس والقيروان فغروا ثم انقلبوا ضد الخليفة الذى تخاذل عنه اعداؤه القدامى من بنى عبد الواد ومغراوة وبنى توجين فانهزم وفر مع فلول من مناصريه الى القيروان بينما انتهبت الاعراب ذخائره (749هـ - 1348م) وحوصر السلطان وحشمه فى قسبة المدينة وسط المجانيق فناضل نضال الابطال وتمكن من الخلوص الى سوسة باغرائه احدى القبائل ثم الابحار الى تونس فحصن اسوارها وبينما كان ابن ابى دبوس يعتزم ضرب الحصار على تونس تحالف السلطان من جديد مع قبائل سلمية استاقت

له الامير الدعى فزج به فى السجن وكان ابو الحسن قد عقد لشقيق زوجته الفضل على بونة (عنابة) فطمح هذا الى الملك بعد نكبة القيروان وانضمت اليه قسنطينة وبجاية بينما ثار الزناتيون واقاموا فى تلمسان الامير عثمان مجددين بذلك مملكة بنى عبد الواد الزناتية وعميت الاخبار بين المغارب الثلاثة وتناقل الناس موت الحسن فاستولى ولى العهد ابو عنان على مقاليد الملك بينما يبيع منصور ابن اخيه عبد الواحد فتصادم الطرفان بتازة وعاد منصور مع فلولة لاجئا الى فاس الجديد التى احاط بها ابو عنان بمساندة أبناء عثمان بن أبى العلاء الذين سرحوا لهذا الغرض من سجن مكناسة وافتتحت المدينة وتوافد المهنتون بعد مقتل منصور واستتب ملك أبى عنان فى الوقت الذى كان والده يكابد الامرين فى تونس محاصرا نحو من ثمانية عشر شهرا من طرف الفضل الحفصى الذى اقتحم كثيرا من الحواضر فلم يسع ابا الحسن الا ان يبحر رغم هيجان البحر بعد العقد على تونس (750هـ) لابنه أبى الفضل الذى ما لبث ان طرد فالتحق بوالده فى ثغر الجزائر وبعد ان صده امير بجاية عن التمون بالماء فى الساحل حارب للاستقاء ولكن العواصف الهوجاء قذفت به فى شواطئ « القبائل » (زاوة) فهلك معظم ذويه واصحابه فانقذته سفينة سلمت من الزوبعة فعاد الى مرسى الجزائر بعد ان فقد اسطوله البالغ ستمائة قطعة ونحو الاربعمائة من العلماء كانوا برفقته وهناك لحق به ابنه الناصر من بسكرة وسانده انصاره من عرب سويد ورئيسهم ونزمار فزحف نحو تلمسان حيث هزمه بنو زيان وقتل ولده واستلبت ذخائره ففر الى ونشريس مع فلول من قومه ونزل بسجلماسة فى موجة من حماس اهلها قطارده ولده ابو عنان بها فانحاز الى مراكش بعد ان تخاذل عنه العرب السويديون الذين كانت فصائلهم الاخرى قد انضمت الى معسكر فاس حيث عاد ابو عنان بعد اقتحام سجلماسة ورفض جنوده الاستمرار فى الزحف والتف المراكشيون حول ابى الحسن ومكنوه من اموال الدولة وجهازها فتركزت سلطته بتأييد المصامدة والاعراب ولكن تصادم الوالد بولده ما لبث ان استمر فى نفس السنة (صفر 751هـ) حول وادى ام الربيع فانهزم عسكر الملك الشيخ الذى لجأ الى هنتاتة حيث وافاه ابو عنان فتفاوض الطرفان واسترضى أبو عنان والده فعقد له ولاية العهد ولكن ابا الحسن ما لبث ان اعتقل ومات (752هـ) فنقل ولده جثمانه نادما مسترجعا الى مقبرة القصبية (قبور السعديين) ثم شالة وبذلك انقضى عهد رجل جمع الى العفة والتقوى

والحزم حنكة واسعة حدثه الى بذل أكبر مجهود اضطلعت به الدولة المرينية فجدد بذلك عصور الخلفاء الموحدين وكتل قبائل زناتة التي عرفت لأول مرة في تاريخها مظاهر الوحدة والمجد غير ان مقومات الدولة كانت قد تهللت وداخل الطمع المخزن والاسرة المالكة وتنافس العرب والزناتيون في اقتسام النفوذ في المغرب الثلاثة علاوة على تكالب القوات الصليبية في الاندلس ومن أجل ذلك حيت في شخصه افريقيا والشرق الادنى وقشتالة أكبر أمير من بنى مرين

ابوعنان (749 - 759 هـ)

كان أبو عنان عفا شجاعا عالما أخذ يحظ من الشعر يستعمل النطق غير مفهم امه شمس الضحى اعجمية بويح في حياة أبي الحسن (749 هـ) واحس بمركب من جراء موقفه الشائن ازاء والده الذي ولاه الامارة حبا واشارا فلم يرع العهد ولم يكن عمره اذ ذاك ينيف على العشرين فبرهن عن طموح فياض وراي فائل وجموح ثائر في فرض فخفخة منخورة عن طريق الالقاب والنقوش الكتابية على المآثر تخليدا لعهدده ومع ذلك فقد عرف كيف يعزز جانبه بين حشمه وجنده بالعطاء الوافر وقد اقتضى صون سمعة الخلافة الحفاظ بالاقل على المكاسب الحسنية ان لم يتوفر تضخيمها فلذلك لم تكد تمر شهور على وفاة ابي الحسن حتى قرر الزحف نحو تلمسان (753 هـ) لاسترجاع المملكة الزيانية والاقاليم الحفصية فاصطدم في انكاد بابي سعيد امير بنى عبد الواد الذي ادبرت اجناده واسر الامير ثم قتل بافتاء العلماء وسقطت عاصمته في قبضة المرينيين وقد فر في غضون ذلك اخوه ووزيره ابو ثابت مع اسرته لاجئا عند المغراويين بوادي شلف فطاردهم بنو مرين واستلبوا ذخائرهم وسبوا نساءهم واستكملت قبائل زواوة انتهاب عسكر الامير الذي ترصدت له جنود الثغور بتآمر من الوزير القائد فارس بن ميمون فاعتقل صحبة ابن اخيه وسيقا الى امير بجاية محمد بن ابي زكرياء الذي خف بنفسه مع الاسرى لمقابلة السلطان ابي عنان بالمدينة فاعتقلهم السلطان ثم اعدمهم في تلمسان واستتم امتلاك المغرب الاوسط بيعة بسكرة والزاب واقطاع الامير الحفصي مكناسة بدل بجاية فنقم سكانها وقتلوا الوالى الجديد عمر الوطاسى ولكن البجائيين انصاعوا وسلموا فارح رئيس التوار الصنهاجيين ووجه أبو عنان حاجبه فأقر النظام والامن بالمدينة (754 هـ) ونقل المشغيين الى المغرب واذعننت قسنطينة فسلمت تاشفين بن ابي الحسن الى اخيه

ابى عنان الذى سبق له ابعادا لادعاء العرش المحتملين ان وجه أخويه ابا الفضل و ابا سالم الى الاندلس ضمن الغزاة النصرين ثم قرر استقدامهما فرفض ابو الحجاج يوسف ابن الاحمر السماح بذلك موعزا للاميرين باللحاق بملك قشتالة الذى جهزهما باسطول انزلهما بساحل السوس حيث احتفل بهما قائد سكسيوة فلم يسع ابا عنان الا ايفاد جيشه من افريقية لقمع الثوار فى الجنوب المغربى فاخطت قائده معسكرا بسفح الجبل المطوق واستسلم السكسيويون فلجأ ابو الفضل الى صناكة وهب عامل درعة لاعتقاله وتوجيهه الى فاس حيث قتل خنقا فى محبسه (755هـ-1255م) غير ان انشغال ابي عنان بثوار المغرب شجع الافريقيين على الانقراض من جديد فاضطر الملك الى الزحف لاحتلال بجاية (758هـ) وقسنطينة التى نقل اميرها احمد الحفصى الى سبتة وانتهى الجيش والاسطول الى عنابة وتونس فاستسلما ولجأ قائد الجيش الحفصى ابن تافراجين الى المهديدة بينما فر الامير ابو اسحاق بن ابي بكر مع بعض عرب رياح

وبالرغم عن هذا الانتصار الخاطف الذى مهد فى الظاهر المغربيين تحت لواء ابي عنان فان دواعى الانهيار كانت تنخر كيان الدولة المرينية وتجددت تلك الظاهرة المستديمة فى تاريخ المغرب منذ عهد ماسينيصة وهى الصراع الموصول بين القبائل الرحالة والافواج القارة أو القرى والحواضر وكان البسود العرب هم الذين تزعموا هذا العيث فكانوا حربا على ابي الحسن وولده لقطعهما الاتاوة (الخفارات) التى كان الذواودة ورياح يتقاضونها وقد استنفذ ابو عنان مثل ابيه موارده العسكرية فى تعقب المشغبين الذين كانوا يلوذون بالفيافى للكر من جديد متى بعدت جيوش السلطان عن الامصار وهكذا لم يكن احتلال افريقية سوى وهم زائل ارتكز موقتا على استسلام الحواضر او القبائل القارة المهزولة ومثل الجيش المرينى من النقش فى الماء فسرى التذمر فى كتائبه وخشى ابو عنان مغبة ثورة مكبوتة فعاد الى فاس وخلا الجو للثوار فطردوا المرينيين من تونس وشتت ابو عنان قواه فى قتل قائده فارس ومشيخة قومه بدعوى مساندة الثوار

وكانت روح الاعتزاز تحدى ابا عنان الى مواصلة سياسته الافريقية فاستوزر سليمان والى جبل طارق وجهزه عام 759 هـ للزحف من جديد على افريقية ومهد لذلك باثارة دعى حفص ضد ابي اسحق ورياح ضد الذواودة ثم لحق فى تلمسان ولكنه اضطر لمواجهة الواقع فعاد الى فاس مع انصاره من فلول العرب فآلم به مرض الزمه الفراش وكان قد عقد ولاية العهد لولده ابي زيان

ولكن الوزير حسن بن عمر الفودودي الذي كان يستوحش من الامير المتوج دعا لبيعة أبي بكر وقتل أبا زيان وكان الخليفة لا يزال في الاحتضار فاستبد الوزير الشائر بالسلطة واستعجل منيته بالخنق (28 ذى الحجة 759 هـ) وعمره ثلاثون سنة

وبذلك اخفقت المطامح المرينية التي شجعها ضعف الحفصيين وعبد الواديين وقوضتها ثورات الاعراب الجامحة كما فتت في اعضادها هليلة الجهاز العسكري المريني الذي عجلت انقساماته بالانهيار

المنجزات المرينية

الاقتصاد والاجتماع : اذا كان المغرب قد اقر من جراء العواقب الوخيمة التي توالى كنتيجة لوقعة العقاب فان البلاد ظلت مع ذلك جذابة « بخصبها ونقاء هوائها وسعة مسارحها ومراعيها وعدوبة مياهها وكثرة أنهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها » ولم تكن لتقضى عليها أزمة عابرة وان كان المرينيون قد استغلوا هذا الوضع الشاذ للانقراض على الموحدين ومع ذلك فقد وجدوا مغربا وفير السكان غنيا برجاله وموارده تذكىه حركة اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسمها الرقيق ولعل من ابرز مظاهر الازدهار الاقتصادي قوة النقود الاقنائية لان العملة معيار ثراء الدولة وقد لاحظ ابن بطوطة ان القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة اضعافها بمصر وقد اتجهت حركة البناء اتجاها اجتماعيا حيث تزايد عدد المدارس وازدادت الاوقاف الوافرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصر أبي الحسن كان نهاية عهد الازدهار حيث كان على حد تعبير اندرى جوليان أقوى ملك في القرن الرابع عشر وما كاد أبو الحسن يندحر في طريف حتى بدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وازداد العيب تضخما بسبب الزحف العسكري نحو افريقية فتقلص الجهود الاقتصادية والعمرائى بطغيان عوامل الفتنة ومقتضيات التسليح لمواجهة الخطر الدايم وقد عرف المغرب أيام أبي عنان أزمة اقتصادية كادت تودى بحياة الاسرة المالكة وتفاحش الغلاء نظرا لتضاؤل مواد العيش وتضخم العملة فارتفعت قيمة منزل السكنى بفاس الى ألف دينار وهو مبلغ باهظ فى ذلك العصر وحاول السلطان مقاومة الازمة باسعاف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية فى بلد زراعى فوزع عليهم الحقول والاراضى وأزواج البقر لحرثها .

أما النظام الجبائي فقد اتسم بطابع جديد منذ أيام يوسف و أبي سعيد حيث تقلص اطاره بالغاء المكوس والمغارم والاقتصار على الزكوات والاعشار وفرض جزية فردية على الذميين بلغت دينارين وثمان دينار لكل شخص وهو حل وسط بالنسبة للجزية التي فرضت في العصر الاول على أساس ثلاث طبقات في الامة وقد احوال المرينيون العملة الى نقد مستدير بدل الدينار المربع الذي عرف في عهد الموحدين الا ان قيمته لم تنخفض لان الدولة كانت حريصة على التمسك بشرعية الوزن الذهبي للدينار وهو 4,729 غرام حسب المعيار العمري في صدر الاسلام وقد لاحظنا انخفاض هذه القيمة في عهد المرابطين الى 3,960 غرام .

الصناعة والفن

أما الحقل الصناعي فان التطور قد تبلور في الصناعة التقليدية التي بدأت تثرث مقومات الفن الصناعي الاندلسي فانتشرت صناعة الجلود والمعادن والنقوش الجبسية والخشبية والزليجي والفسيفساء فهذا أبو عنان يصنع على يد مؤقته على التلمساني عام 758 هـ منجانة بطيسان من نحاس فوق مدرسته بفاس وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة في طاس وتفتح طاق (I)

وقد خلف بنو مرين الموحدين فوجهوا الفن اتجاها جديدا تبلورت فيه الازدواجية المغربية الاندلسية بصورة اعمق وادق وقد ظهرت في نفس العصر حركة فنية عند بنى عبد الواد في تلمسان والحفصيين في تونس بينما واصل بنو نصر في غرناطة نشاطهم ضمن تقاليد الفن الاندلسي الاصيل الا ان الطابع العام كان واحدا لم تختلف سوى الاطر وبعض التصميمات والمظاهر الزخرفية فبنو الاحمر انصرفوا لزخرفة القصور بينما انكب المرينيون على اقامة المدن المحصنة ونقش المساجد والمدارس وقد انبثقت هذه الانتفاضة المرينية بعد فترة خمود تناهز القرن عقب وقعة العقاب (2) فبدأت تطبع بروثق خلاص المدن الجديدة (كمتصورتى تلمسان وسبتة) وقياب الاضرحة (شالة ومدينة العباد بتلمسان) والحمامات والخانات ولم تكن المدارس معروفة بالمغرب فاتجه الامراء نحو تاسيسها وخاصة بفاس منذ 670 هـ (مدرسة الحلفائيين او الصفارين

(I) زهرة الآس ص 40

(2) مارسي - كتاب الفن ج 2 ص 476

ومدارس العطارين والمدينة البيضاء (I) والصهريةج والوادي ومصباح وقد انشا أبو الحسن مدرسة في كل بلد من بلاد المغربين الاقصى والاوسط وذلك علاوة على المحارس والمناظر الممتدة من أسفى الى جزائر بنى مزغانة حسب مسند ابن مرزوق الذى ابرز فى جامعى تلمسان وهنين روعة المقرصات فى الحفايا والاقواس وقد نشطت حركة البناء فى الحواضر بفضل توافر النجارين والجباسين والزليجين والرخاميين والفنيين والدهان والحدادين والصفارين الذين ساهمت حرفهم فى اقامة قصر نموذجى فى ظرف أسبوع واحد طبقا لتصميم (2) وضع بأمر من أبى الحسن اشتمل على أربع قباب ودويرتين والتمويهات الذهبية والمقصدات وبالاخص رقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والزليجيات ويلاحظ فى المدرسة العنانية بقاس مثلا تشابه واضح فى الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق ومن خواص الفن المرينى استعمال الطابية والاجر والحجر غير المنحوت والنقش الخشبي والترصيع الزليجى للمنارات والبنائيات الخاصة التى تنافس الاثرياء فى تشييدها فى عهد أبى الربيع (حسب ابن خلدون) وابن ابى ذرع)

الجيش

اما القوة العسكرية فانها لم تقل مناعة عنها فى عهد المرينيين وقد شاركت قبائل زناتة والعرب المستقرون فى المغرب فكون هؤلاء كتائب الفرسان بينما احتص الاندلسيون فى حمل الاقواس والمرتزة كنبالين ورماة واستعملت الجيوش المرينية لأول مرة البارود فى محاصرة سجلماسة عام 671هـ (3) وبذلك يمكن القول بن تجربة أبى الحسن وولده أبى عنان لم تخل من روعة وسمو رغم ما احيطت به من مظاهر الارتجال

(I) هى فاس الجديدة التى بناها أبو يوسف المنصور (الذخيرة السننية ص 99)

(2) هذه التصميمات المعمارية عرفت منذ عهد المنصور العباسى (مظاهر الحضارة للمؤلف ج 2 ص 57)

(3) حسب ابن خلدون وصاحب الذخيرة السننية (ص 1580) ويؤكد صاحب الحلل الموشية استعمال ابن عباد للمطاردات والرعادات فى الجواز الثانى لابن تاشفين الى الاندلس ص 481 هـ (ص 55)

الفصل التاسع عشر

العهد الوطاسي عهد زحول وانقلاب

مظاهر الفخفخة :

امتاز عصر الازدهار المريني بمظاهر الفخفخة والعز فاتخذ ابو الحسن القاب الخلافة واعلاما بيضاء زخرفت بايات قرآنية مذهبة وطبولا واريكة العرش فى ردهة بشت فيها الزرابى مع برج الذهب للاستعراض فى الساحة العمومية بفاس الجديد ومدينة متنقلة محاطة بسياج من القطنف (افراك) قد تفتحت فى جوانبها اربعة ابواب وكذلك شارة الملك او العلامة كما تعزز الجيش بمرتزقة من الاغزاز هم من بقايا العهد الموحدى وانتظمت اجور المشيخة المرينية (60 مئقال الى ستة مئاقيل ذهبية فى الشهر) ووحدة الزى عند زناة والعرب والمسيحيين (عمائم منسدلة على الاكتاف ومناطق مبهرجة ورماح) وفى الحقل الدينى تزعم المرينيون حركة السنة رغم تشجيعهم للصوفية وانبثقت طرقية امتدت فروعها فى الشرق نتيجة للروابط المستوسقة مع الكنانة والشام والحرمين فتتلمذ البوصيرى لابي محمد صالح كما نشر الشاذلى الغمارى فى المشاركة طريفة شيخه مولاي عبد السلام بن مشيش وقد اعتنى المرينيون بالصوفية فجعلوا منهم روادا فى طلائع الجهاد بالاندلس وأسسوا مدارس للطلبة والنسك تركيزا لهذا الجهاز المزدوج من علماء السنة والطرقية

غير ان هذا الاطار الفخم مالم يثبت أن تهلهل بانبشاق معسكرات داخل البلاط واستبداد الوزراء والحجاب وتسابق الادعاء واضطراب السلطة وتدخل المرتزقة والمليشيات المسيحية وامراء بنى نصر وبنى عبد الواد بل وحتى ملك الجلالقة فى ازمان العرش الذى توالى على اريكته زهاء العشرين ملكا بعد ابي الحسن قتل او خلع اغلبهم

وظهرت فى الجنوب والصحراء امارات اقطاعية ما فتئت ان استقلت عن فاس بثورة المصامدة والعرب المعاقلة والاطلسيين وكانت هنتاتة تلوح بشبح المعتمد نجل ابي عنان كما اثار الهلاليون فى صحراء المغرب الشعب لتنصيب ابي حمو بتلمسان وفى الوقت الذى تمرد منصور بن سليمان على السلطان الشاب ابي بكر السعيد واثالت جيوشه من تلمسان لمحاصرة فاس (760هـ) برز ابو سالم بغمارة فتمكن من اعتقال منصور وقتله ثم من السعيد الذى خلع ثم اعدم غرقا فى جملة الادعاء من سلالة ابي الحسن فى طريق نفيهم الى الاندلس فتخلص الامير الجديد من بعض مزاحمية المشغبين

ابو سالم (760 - 762 هـ) 1359 - 1361 م

وابراهيم المستعين بالله امير المسلمين نجل ابي الحسن امه مستولدة رومية حملته سفن ملك قشتالة الى غمارة عند ما تلكا بنو الاحمر فى مساعدته وقد صادفت ثورته هيجان المدينة البيضاء فهب الناس لمبايعته واستوزر مسعود ابن ماساي بينما استصفي لبلاطه كلا من الخطيب محمد بن مرزوق وابن خلدون صاحب التوقيع وكتابة السر كما استقدم ابن الخطيب مع امير غرناطة محمد ابن يوسف المخلوع (761هـ) وكان الوزير الفودودى قد نصب وليا بمراكش وتأملت بها رياسته فتكر له السلطان وطارده بتادلا ثم اعتقل بالجبل وقتل بفاس

احتلال تلمسان : وبعد استتباب الامر لابي سالم حن الى تجديد مآثر والده العسكرية بالزحف على تلمسان التى كان سلطانها ابو حمو ابن يوسف الزياني قد استولى على درعة بمساندة عرب معقل وفر ابو حمو الى صحراء اكرسيف وملوية يعيث ويخرب فاقتحمها ابو سالم وعقد عليها لابي زيان حفيد ابن تاشفين من بنى عبد الواد ولم يكذ يرجع الى فاس حتى عاد ابو حمو الى ملكه واضطر الخليفة لمهادنته ومنيت هذه المحاولة الزجرية بالفشل الذريع وكانت عنوانا عن تضعف قوة الدولة المرينية التى ظلت ماسكة بالشكليات تمويها وايهاما

تعيش على الماضى فكان ابو سالم من ضحايا هذه الهلهة حيث فتك به الوزير
عمر الفودودى بتواطؤ مع قائد المليشمية غرسية بن انطول (2I ذى القعدة
762هـ ونصبا تاشفين ابن ابى الحسن

تعاقب الامراء على العرائش : وكان ابو عمر هذا شجاعا فتر عقله فى الاعتقال
بعد وقعة طريف فبويع ونكل وزيره الفودودى بانطول وجنده لتآمرهم مع بعض
الوزراء المعتقلين وكانت ملحمة عنيفة مات فى غمرتها معظم الاجناد المسيحيين
وفكر الوزير الثائر فى اقتسام المغرب مع الزعيم الهنتاتى الذى كفل ابا الفضل
ابن أبى سالم استعدادا للطوارىء فخلع السلطان المعتوه (763هـ) ونصب المتوكل
ابا زيان بن يعقوب ابن ابى الحسن على جزء من المغرب مقابل امارة ابا الفضل
على ناحية مراكش وبذلك انفصمت عرى الوحدة المغربية بظهور مملكتى مراكش
وفاس تحت سلطة الاميرين الشكلىة ولكن المهزلة انتهت بقتل ابى زيان فى فاتح
سنة 768هـ والبيعة لابي فارس عبد العزيز بن ابى الحسن الذى تخلص من
استبداد الفودودى وحاشيته بالاسر والاعدام وانضم اليه زعيم هنتاتة بعد ان
اصبح امير مراكش يتربص الدوائر بخصومه فحالف ابا فارس على محاربتة وقتله
(769هـ) غير أن رأى الخليفة الحكيم كان قد قر على استئصال المشغبين فاتجه لمحاصرة
الهنتاتى فى معتصمه بالاطلس الكبير طوال سنة استولى غيها على ذخائر الثائر
ومعاقله (771هـ) ثم قتله ودشن عهده الجديد بمؤازرة دولة بنى نصر لاسترجاع
الجزيرة الخضراء (التى خربت حوالى 780هـ) ثم احتلال تلمسان عام 772هـ فى
انطلاقة اولى عقبها اقتحام امصار المغرب الاوسط ولكن ابا حمو الزيانى لم يلبث
ان استرجع مملكته بعد ان فوجىء أبو فارس بمرض أودى بحياته وهو فى
حضرة بنى عبد الواد فتوفى وعمره لايتجاوز زهاء ربع قرن (774هـ) فخلفه ابنه
الصبى السعيد أبو زيان محمد بتأييد الوزير أبى بكر بن غازى الذى استبد
بمراسيم الملك فحاصره بفاس ذو الدولتين المستنصر أحمد بن أبى سالم
بمساعدة امير غرناطة فخلع الاول وبويع الثانى بعد عشرين شهرا اوائل سنة
776هـ وأصبحت للمملكة النصرىة دالة على سلطنة المغرب بينما استقلت عمالة
مراكش الى ازموور بامرة ابن عم السلطان عبد الرحمن بن ابى يفلوسن فانشط
المغرب من جديد الى دولتين نحو من عشر سنوات (784هـ) انتهت بمقتل أمير
مراكش واستعادة الوحدة واعاد التاريخ نفسه فزحف المستنصر نحو تلمسان
لاحتلالها (785هـ) واستغل أبو فارس موسى بن أبى عنان فراغ الجو بفاس فهب من

الاندلس بايعاز بنى الاحمر فافتتح سبتة وسلمها لامارة غرناطة مع المستنصر المعتقل وبايعه الناس (776هـ) واستبد بشؤون الدولة وزيره مسعود بن مساي ولكنه ما لبث ان مات مسموما وعمره نيف وثلاثون سنة بعد ان ملك زهاء ثلاثين شهرا فخلفه المنتصر حفيد ابي سالم (788هـ) وعمره لا يتجاوز خمسة اعوام فخلع بعد اربعين يوما وانتصب على العرش الواثق محمد بن ابي الفضل الذي كان مستودعا للحاجة عند بنى الاحمر الذين ما فتئوا ان يطلقوا العنان لدعى آخر من الامراء بعد ان طالبهم وزير السلطان بسبتة وهكذا مكنوا ابا العباس بن ابي سالم ذا الدولتين من اعتلاء العرش من جديد (789هـ) بعد خلع الواثق وقتله مع وزيره مسعود وواتت الفرصة للانقضاء على تلمسان مرة أخرى عند ما نشب بين ابي حمو وابنه ابي تاشفين ما نشب بين ابي الحسن وأبي عنان فتار الابن على الوالد وقتله واستولى على الحضرة الزيانية (971هـ) مكافئا حسن صنيع سلطان المغرب بالدعوة له على منابر المغرب وأداء الجبايات ولكن المنية عاجلته (796هـ) وهو في تازة بعد ان تلقى هدايا ملك مصر الظاهر برقوق وشارف زحفا جديدا على تلمسان الثائرة ولم يكد عمر السلطان الراحل يبلغ الاربعين حتى توفى فبويع بتلمسان ابنه أبو فارس الذي ضم الى الفروسية ما امتاز به والده من شاعرية وقد خلفه أخوه عبد الله عام 799هـ بتواطؤ الوزراء الذين انبسطت سيادتهم على المملكة وانهار نفوذ ملوك بنى مرين فصاروا يتعاقبون على العرش شبه تماثيل زائفة وقد مات عبد الله على رأس الثمانمائة وعمره ست عشرة سنة فبايع الحجاب اخاه ابا سعيد عثمان الثالث وكان عهد الحجابة قد أصبح بداية عصر جديد في المغرب فتغيرت كثير من الاتجاهات والعوائد والاموضاع الاجتماعية بسبب طغيان القبائل العربية التي امست تتحكم في مصير الدولة في المغرب الثلاثة مما احق امثال ابن خلدون على عصابات المهرجة وتساوقت شتى العناصر في هذه الوجهة الاستثنائية فشاعت الاوبئة وخربت الامصار واندرست كثير من معالم الحضارة واطل الاستعمار الاوربي الناشئ مكشرا عن انيابه في الشرق الاقصى وافريقيا وسواحل المغرب فاحتل البرتغاليون سبتة (818هـ) وبقي أبو سعيد على العرش خمس سنوات الى ان توفى عام 823هـ فخلفه ابنه عبد الحق الذي كابد الأمرين من زحف البرتغاليين على طنجة عام 841هـ واحتلالهم لها عام 869هـ والاستيلاء على القصر الصغير (قصر المجاز او قصر مسمودة) عام 863هـ كما تولى في عهده ثلاثة وزراء وطاسيين هم ابو زكرياء المقتول عام 852هـ وعلى بن يوسف المتوفى

عام 863هـ ويحيى بن ابي زكرياء المذكور الذي انهارت في عهده معالم الدولة المرينية فلم يسع السلطان عبد الحق الا ان استأصل شأفة الوطاسيين (عدا محمد الشيخ) واستوزر اليهودى هرون فثار اهل فاس وبايعوا الشريف الحفيد ونكلوا باليهود وذبحوا عبد الحق (869هـ) فكان آخر ملوك بنى مرين

بداية العصور الحديثة وثورة الشعب ضد الاستعمار الناشئ

وهكذا بدأت مظاهر ازمة عصبية تلوح في افق قاتم بسبب تطاحن بنى وطاس وبنى مرين ثم السعديين وزحف الصليب على ثغور الاندلس وسواحل المغرب ضمن حركة استعمارية عارمة في نطاق ما يسمى *Do reconquieta* وبرزت مراكز الهند الاقتصادية وانتقلت اوروبا من العصور الوسطى الى فترة ما قبل النهضة وامحت معالم الفردوس المفقود وزحف الاسلام من الشرق على اوروبا تحت راية العثمانيين واصبح المغرب نظرا لوضعه الجغرافي موزعا بين مطامع الاتراك في حدوده الشرقية والاسبان شمالا والعالم الجديد غربا وكانت سواحله بالبحر الابيض المتوسط مسرحا لعراك عنيف بين الهلال والصليب تبلور في سقوط الاستانة (858 هـ 1453 م)

وأبرز سمة طبعت الفورة الشعبية في هذا العصر الذهبي هي ثورة العلماء والصوفية ضد تدخل الصليب في شؤون الاسلام واحتلال المسيحية لثغور المسلمين وبدأت نقطة هذا الانطلاق في حركة الجهاد المنبثقة في ربض سبتة التي كانت أول معقل مغربي اقتحمته الكاثوليكية ولمس المسلمون خطرا داهما لم تنزجر قبائل العرب من جرائه عن عيئها ولا الملوك الحفصيون والزيبانيون والوطاسيون عن تناحرهم

وهكذا لم يكد اهل فاس يبايعون الحفيد نقيب الاشراف الادارسة بفاس حتى هب لناوآته محمد الشيخ الوطاسي الذي طفق يقطع أمصار المغرب حتى اقتحم مدينة فاس (876هـ) في الوقت الذي احتل البرتغاليون حضرة ملكه اضيلا وكان رجال التصوف يؤسسون المعامل لدعم حركة الجهاد فاختط المجاهد ابو جمعة العلمي ثم ابن عمه علي بن موسى بن راشد في نفس السنة مدينة شفشاون في نقطة استراتيجية سيرتكرز عليها ال الخطابي في حرب الريف 1920 - 1926 ثم شيد المهاجرون الاندلسيون المنحدرون الى المغرب قبيل استيلاء الاسبان على غرناطة عام 897هـ مدينة تطوان بمساعدة بنى راشد فاصبحت

قاعدة للهجمات التي والاهما المجاهدون بقيادة على المنظرى ضد الوجود الاجنبى فى المغرب وكان البرتغاليون قد اكتسحوا معظم ثغور الشمال وبدأوا يزحفون نحو المراكز الساحلية بالجنوب (انفا عام 874 والبريجة عام 907 واكادير عام 910 فمات فى غضون ذلك محمد الوطاسى (910 هـ) وخلفه ولده محمد البرتغالى الذى يخوض غمرة الجهاد فى الشمال بينما انبثق السعديون لمواجهة الاحتلال الاجنبى فى الجنوب وقد قاوم الشعب فى هذه الغضون مقاومة عنيفة رغم قلة الحاميات النظامية فكبدت الجماهير العدو خسارات فادحة فى اسفى وازمور طوال سنوات عديدة وزحف الجيش البرتغالى (912 - 914 هـ) نحو اصيلا المحتلة منذ عام 876 هـ للاقتصاص من الذين اذاقوه مرارة الاسر سنوات فالتحم الفريقان داخل المدينة ولكن النصر حالف الاسطول البرتغالى والاسبانى الذى عزز مراكزه فى المتوسط والاطلنطقى بتأسيس بادس واحتلال وهران (914 هـ) ثم المعمورة المهديّة (920 هـ) فى نفس الفترة (922 - 923 هـ - 1515 1517 م) بدأ العملاق التركى يغزو الجناح الشرقى من البحر المتوسط فكانت بداية عصر التججر والانحطاط فى العالم العربى اذ انقلبت العصور الوسطى (395 هـ - 453 م) التى ازدهرت فى فترة منها معالم الحضارة الاسلامية الى عهد صراع بين مدينة اسلامية متحضرة وحضارة اوربية نامية وساق هذا الصراع فى الصعيد العالمى صراع اقليمى بين السعديين والوطاسيين

وهكذا تمخضت القسمة الصليبية عن وقوع المغرب فى منظرمة نفوذ البرتغاليين كرد فعل لاحتلال المغاربة للاندلس طوال ثلاثمائة سنة وحمالات القراصنة الذين اتخذوا من بعض المراسى المغربية ملجأ لاساطيلهم وقد كانت الرغبة فى فصل النصريين عن العدو الجنوبية تمهيدا لنفيهم من بواعت هذا الاحتلال الذى فتح أيضا منافذ اقتصادية للبرتغاليين باستغلال قموح واصواف وخبول مناطق الجنوب الثرية وكانت قلعة سانطا كروزا باكادير قاعدة برتغالية فى المحيط الاطلنطيقى وقد استغرق البرتغاليون نحوًا من ثلاثة ارباع قرن فى احتلال مراسى الشمال الى نهر سبو وما يقاربها فى ضم مراسى الجنوب من مصب ام الربيع الى السوس وبذلك قبضوا على زمام معظم المرافىء المغربية (عدا سلا وبادس) التى استحالّت الى حصون تحت ضغط الغارات الوطنية واقيمت اسقفيات كاثوليكية فى سبتة وطنجة واسفى ولكن هذا الهيكل مالبت ان تضعف بسبب الانتفاضات الشعبية التى ساندت تطوان والشاون والعراش والقصر

الكبير غير ان تخاذل بعض القبائل فى الجنوب فسمح المجال مؤقتا لحماية برتغالية فعلية ونفذ اقتصادى خطير من السوس الى درعة ومن اسفى الى الرحامنة وأرباض مراكش مما عزز ثورة السعديين منذ عام 195 هـ بانضمام امراء هنتاتة واحتلال مراكش (930هـ) حيث حاول أبو عبد الله البرتغالى مواصلة تطويق ابي العباس الاعرج فى المدينة ولكنه فوجيء بثورة فى الشمال فعاد الى فاس وتوفى بها حوالى 932 هـ وولى بعده أخوه أبو حسون الذى ما لبث أن خلفه احمد بن أخيه محمد البرتغالى وتولى الملك ببيعة أهل فاس (932هـ) وقد عمل ابو العباس على مهادنة كل من البرتغاليين فى الهبط والسعديين فى الجنوب بعد وقعة انماى قرب مراكش (935هـ) ولكن الجماهير ظلت فى عراقك عنيف مع المسيحيين تبلور فى وقائع منها الغزوة التى اججها قرب اصيلا القائد عبد الواحد العروسى (940هـ) وكذلك فى الجنوب حيث انبرى الاعرج السعدى من جديد لمجابهة احمد الوطاسى فى ابن عقبة بسوادى العبيد بعد أن عقد الوطاسيون الصلح مع البرتغاليين لثلاث سنوات فى أسفى والجديدة وأزمور وقد تمخضت انتفاضة الجماهير فى اعقاب السعديين عن انهزام ابي العباس الوطاسى (943هـ) وتوالت الاحداث فانتزع محمد الشيخ الملك من أخيه الاعرج وزحف نحو الشمال فاحتل مكناسة (955هـ) ثم فاس فى السنة التالية واعتقل الامير الوطاسى مع فلول من قومه نقلوا الى الجنوب بينما فر ابو حسون الى الجزائر لاجئا عند الاتراك الذين كان نفوذهم قد بدأ يمتد على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط فساعده على استرجاع فاس ولكن محمد السعدى ماقتى ان استنفر الحشود العارمة فى نفس السنة فهاجم المدينة وقتل ابا حسون (961هـ) فكان موته نهاية سلسلة من المآسى انقضت بها الدولة المرينية كما انهارت خلالها معالم الفردوس المفقود .

وكان تهالك الادعياء على العروش هو العامل الحاسم فى تقويضها بالعدوتين فهذه مملكة غرناطة قد اعتلى عرشها السلطان أبو الحسن على بن سعد فدفع القممتاليون أخاه محمد الزغل لمناواته وحظى بالبيعة فى مالقة فانقسمت الدولة شطرين (880هـ) ولم يكده يستتب الامر لابي الحسن حتى ثار ولده وانتهت المأساة بأسر هذا الدعى فى معسكرات الاسبان وتنازل أبو الحسن لآخيه الزغل وما لبث العدوان زوج بنجل أبى الحسن فى غمرة الفتن ففت فى عضد الجهاز الإسلامى بالاندلس وانفتحت أمام الكاثوليكية ثغرة فى هذا الكيان الحصين وسقطت مالقة (892هـ)

1487 م) ثم وادى أش وانصاع الزغل للحكم الاسباني وظلت غرناطة وحدها قائمة بعد سقوط قانس والمرية يواجه اميرها الشاب ابو عبد الله بن ابي الحسن حصارا شديد الوطأة اقام العدو خلاله معسكرا فى شكل مدينة جديدة (سانطافى) وما لبث الحصار ان انفرج تحت تأثير المجاعة باستسلام المدينة وأهلها (897هـ - 1492م) وكانت قشتالة قد اتحدت مع الاراكون بسبب زواج ايزابيلا وفرديناند وانقطعت امدادات المغرب باحتلال مراسى الزقاق وتطويق السواحل وانتقال الهجوم البرتغالى الى عقر الديار المغربية فاسترجعت الكاثوليكية بذلك آخر معقل عربى فى الاندلس وانعقد اول اجتماع مسيحي بين ملوك الكاثوليكية فى قصر الحمراء غداة الاحتلال ورغم الشروط السبعة والستين التى حاول الغرناطيون بها ضمانه حريتهم الدينية واموالهم بدأت سلسلة قاسية من التعسفات دفعت الامير المخلوع الى الهجرة لفاس وتنصير المسلمين بعد بضع سنوات (904هـ) بالحيله والمكر تارة وبالضغط والارهاب تارة اخرى واستؤصل المتمسكون بالاسلام فى بليفيق واندرش وغيرهما من القرى وبدأت افواج المهاجرين تنزح فارة بدينها من التحقيق والتقتيل مخلفة ذخائرها وعقاراتها - الى المغرب وتونس والاسطانة ومصر والشام واشرف الكاردينال سيسنيروس بتأييد البلاط المسيحي فى متم القرن الخامس عشر الميلادى على عمليات التحقيق والتمسيح الاجبارى واحراق المخطوطات العربية وفى خضم الصراع البوطاسى السعدى اسفرت ثورات المسلمين العارمة بامصار مملكة غرناطة الشهيدة عن تشتيتهم وادماجهم فى شمال البلاد وغربها عام 1570م ولكن تعلق الكثير منهم بالاسلام حدا فيليب الثالث الى نفيهم نهائيا (1609 - 1612 م) ففسح المغرب صدره للمهاجرين وورث حضارة الاندلس اليبانة

الفصل العشرون

السعديون ومعركة وادي المفازن

كان لسقوط الاندلس وغزو البرتغاليين والاسبان لسواحل افريقيا الشمالية رد فعل قوى فى نفوس الجماهير التى انتفضت فى الحواضر والبوادى للجهاد فى معركة صليبية عنيفة اتخذت المغرب مسرحا لها وقد اذكى هذا الاعتداء الروح العسكرية وبغض الاجنبى المغير وتبطنت هذه الوجهة الساذجة باتجاه صوفى جديد نما وترعرع ضمن وحدة شعبية شاملة قاد فورتها العلماء والصوفية والاشراف وقد اصبح اقطاب التصوف فى هذه الفترة جهابذة العلوم والفنون وستتبلور الزعامة العلمية خلال القرن الحادى عشر فى ثلاثة من قادة الصوفية (I) وانضاف الى ازدهار الثقافة الاسلامية اشعاع روحى جعل من الامة الواعية كتلة مترابطة فى وجه العدو

السعديون يحررون ثغور الجنوب

وفى هذا الخضم العارم انبرى السعديون لقيادة الثورة تحت شارة الانتساب لآل البيت وكان البرتغاليون قد نفذوا الى السوس حيث انتشرت

(I) هم حسب صاحب نشر المثنى السادة محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن أبى بكر المجاطى رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسى صاحب زاوية المخفية (راجع كتابنا معطيات الحضارة ج ٠ I ص 156)

الفوضى لانشغال الوطاسيين بالجهاد فى الشمال فبايع الناس محمد القائم بنيدسى قرب تارودانت (916هـ) وتأجج العراك ضد المسيحيين فى حاحة والشياظمة وعبدة حيث اصطدم السعديون بيحيى بن تافوت حليف البرتغاليين بأسفى فانكسروا أول الامر ولكن تدخل أحمد الاعرج انقذ الموقف فلجأ البرتغاليون الى ججورهم بالمساء واستتب نفوذ الامير عقب وفاة والده (923هـ) فشمّل مراكش اثر درعة والسوس بعد القضاء على الناصر بن شنتوف عامل المدينة وكان الاعرج قد تولى ولاية العهد (918هـ) وظل السعديون يواصلون الجهاد الى ان زحف على مراكش فانهزم فى التحام شديد بتادلا (942هـ) واتسعت شبكة المملكة السعدية فى الجنوب ، ولكن التاريخ أبى الا أن يعيد نفسه ، فاختلف الاخوان الاعرج ومحمد الشيخ المهدي الوزير المستخلف بالسوس فاستقل هذا بالملك (946هـ) وزج بأخيه فى غياهب السجن ، واكمل تحرير الثغور الجنوبية باحتلال فونتي (947هـ) واختطاط مرساها (أكادير) ثم الدخول الى آسفى وازمور (498هـ) اللتين نزح عنهما البرتغاليون ، وكذلك اخضاع مراكش الحيرى التى ظلت متأرجحة بين السعديين والوطاسيين

وفى هذه الفترة وقعت مهادنة بين الوطاسيين والسعديين (942 - 955هـ) استغلها هؤلاء لتعزيز تحالفهم مع صنهاجة الدلايين بالاطلس الاوسط وامراء هنتاة بالاطلس الكبير ، وبعض صوفية الريف الذين خذلهم الوطاسيون فى حركة الجهاد ضد البرتغاليين وقد ظهر السعديون بمظهر ابطال الجهاد الاشاوس وذاع صيتهم فى طول البلاد وعرضها فاحبهم الناس

احتلال فاس

وما لبثوا أن حاصروا مدينة فاس (955هـ) ودمسوا من قتل الشيخ عبد الواحد الونشريسى الذى كان يحض الناس على التمسك ببيعة الوطاسيين ، فخلا الجو واقتحمت المدينة ونقل الوطاسيون مصفدين فى الاغسلال الى حاضرة مراكش بينما فر أبو حسون الى الجزائر حيث استمرت المؤامرات أكثر من ثلاث سنوات خلال الحملة الثانية فطمع الامير السعدى الى تنحية حسن بن خير الدين عن تلمسان لاستعادة ما كان للمغرب من سلطة بافريقية والمغرب الاوسط ولكن الحملتين باءتا بالفشل حيث زحف السعديون فى الاولى نحو عاصمة بنى عبد الواد واقتحموها بعد حصار طويل (957هـ) ووصلوا الى وادى شلف فقتل الحران ثم جلا الاتراك عنها فحاول السعديون عبثا استرجاعها واضطروا الى الهجوم فى

صفر من نفس السنة على فاس لاقرار أبي حسون الوطاسي الذي ما لبث ان قتل بعد ان كر عليه محمد الشيخ من مراكش (شوال 961هـ) فاسترجع فاس وقتل من دعاة الحكم المنهار الفقيهيين عبد الوهاب الزقاق و ابا علي حرزوز المكناسي مع اولاد ابي حسون وقلول الوطاسيين مشيرا بذلك حفيظة العلماء وقد خف تحمس الشعب لاسيما في الصحراء والاطلس للدولة الناشئة عندما فرض محمد الشيخ ضريبة النائية (الكانون) وأصبحت فاس غير مأمونة فنقل السعديون عاصمتهم الى مراكش وعززوا جيشهم بالأتراك الذين قدموا مع أبي حسون بقيادة الكاهية صالح باي (وهم اليكشارية أي الجيش الجديد)

التحالف مع الاسبان

وكان الشغل الشاغل لمحمد الشيخ هو مطامع الأتراك بالمغرب حيث اوفد السلطان سليمان للدعوة له على المنابر وسك النقود باسمه احتداء بأبي حسون فشعر بالخطر الداهم ولم يكدر رسول اليا ب العالی يعود الى القسطنطينة حتى صدر الامر بدس بعض سعالكة الأتراك لاغتيال الامير الذي كان في نفس الوقت يسعى في التحالف مع الاسبان لطرد العثمانيين من افريقيا الشمالية

اغتيال محمد الشيخ : واندرج الدخلاء العثمانيون في الحرس السلطاني معتنمين الفرصة حتى واتتهم خلال احدى الغزوات بالاطلس فقتلوا السلطان في اكلكال (قرب تارودانت) ونقلوا رأسه في مخللة (964هـ) ولكن أحبط بهم في الطريق فانتشروا وعاد بعضهم للتحصن في تارودانت واحتال عبد الله الغالب بعد فشل الحصار في التظاهر بالجملاء فكر ضد الأتراك ومحققهم خارج الاسوار ونجا بعضهم بالراس الذي نقل الى الجزائر عن طريق سجالماسة وتلمسان وعلق باحد ابواب القسطنطينية ودفن محمد الشيخ في قبور السعديين بمراكش في الوقت الذي قتل قائدها أبا العباس الاعرج وأولاده فخلا العرش للمولى عبد الله وبذلك مات اول امير سعدي زعزع الاستعمار البرتغالي ووقف حجر عثرة في سبيل التدخل التركي ووضع دعامة دولة فنية سوف لا تلبث ان تندرج في طليعة الدول التي يحسب لها حسابها في اوربا وكان من ابرز ما اصطدم به هذا الامير العالم الجريء المشكل المالي فقرر نهج خطة استثنائية بفرض ضريبة النائية على جميع طبقات الامة حتى الذين كانوا يعفون منها لحد الان مثل الاشراف وازباب الزوايا وكانت تدفع عينا (الشعير والقمح والسمن والشياه) وقد وظف السعديون

بافتاء بعض العلماء خراجا على الاطلس بدعوى انه فتح عنوة على غرار ما زعمه الموحدون والمرينيون وقد فتح السلطان بذلك جبهة شعبية ضد الدولة اضطرت له لخوض معركة عارمة ضد ارباب الزوايا واهل درعة والاطلسيين الذين نكل بهم فمات بين احضانهم بطعنات الاتراك وكانت هذه هي الانتفاضة الطرقية الاولى ضد الحكم القائم ما فتئت المناورات الخارجية ان اذكتها عندما اضطر محمد الشيخ الى محالفة الصليبيين ضد الاتراك المسلمين

عبد الله الغالب (965 - 981 هـ) - (1557 - 1574 م)

بويح بالاجماع بفاس ثم مراکش عند مقتل ابيه الندى عقد له ولاية العهد في حياته ولم يكده يستتب له الامر حتى فر اخواه عبد الملك واحمد من سجلماسة الى تلمسان صحبة اخيهما عبد المؤمن ثم الى القسطنطينية للاستصراخ بالسلطان سليم بن سليمان العثماني وزحف في هذه الاونة الى فاس الباشا التركي حسن ابن خير الدين فالتحم مع الجيش السعدي بوادي سبو ثم انهزم متراجعا

وكان الاتراك مشتغلين في هذه الفترة باحتلال البلقان وأوربا الوسطى فكان للقراصنة الفضل الاول في طرد الاسبان من ثغور الجزائر وتونس واخضاع الايالتين للحكم العثماني ضد بني عبد الواد والحفصيين وكان القراصنة قد استقلوا ببعض المراسي واسسوا جمهوريات حرة وتزعموا حركة الجهاد في البحر المتوسط ومن هؤلاء الاخوان عروج وخير الدين اللذان استقروا بجزيرة جربة وحرروا عاصمة الجزائر وتلمسان (I) ولكن الاسبان استرجعوا هذه المدينة وقتلوا

(I) يظهر من مقارنة النصوص التاريخية ان الزحف على تلمسان وقع مرتين : عندما كان الاسبان في وهران يحمون آخر ملك من بني عبد الواد وفي هذه الحملة مات الحران وهناك حملة اخرى تمت بتحالف السعديين مع الاسبان عندما كان حسن بن خير الدين في تلمسان ولكنها فشلت لان المفاوضات السرية المغربية الاسبانية افتضحت فاحتل صالح الرايس بجاية وحاول الاتراك طرد الاسبان من وهران

وتقول بعض المصادر بأن احمد الاعرج لم يعتقل بمراكش بل انحاز الى تافيلالت ومنها تحالف مع احمد الوطاسي ضد اخيه ثم مع ابي حسون بعد عودته من الجزائر وقبل انهزام ابي حسون ثم قتل هذا الاخير بتادلا (1554 هـ) ولاحظ صاحب النزهة ان صالحا جاء في الوقد المكلف بالاغتيال والظاهر انه ورد قبل ذلك واستغل وجوده بالمغرب لهذه الغاية وتمسول



عروج فعمد خير الدين تعزيزا لقوته الى ضم ايلاته للاتراك بالدعوة للمسلطان سليم الذى جهزه بالجيش والمدفعية فاحتل عنابة وقسنطينة واصبحت جزائر بنى مزغانة عاصمة الجزائر التركية ثم احتل عاصمة الخضراء (تونس) (940هـ) التى استردها الحفصيون ثم احتلها الاتراك (977هـ) وأصبح خير الدين قبطان باشا أى أميرالا للأسطول التركى وخضعت البلاد للحكم العثمانى عام 981هـ والبيلىكى بأمره امثال حسن اغا وحسن باشا والباشا صالح وعلى العليج الذين صاروا يتدخلون فى شؤون العرش المغربى وتقول مصادر اجنبية بأن أبا حسون اتجه من فاس الى اسبانيا لطلب النجدة من ماكسيميليان نظرا لتغييب والده شارل الخامس ثم عاد الى اسبانيا مع ملكها المقبل فيليب الثانى ولكنه لم يحصل على أية اعانة اسبانية فالتجأ الى البرتغال التى امدته بست سفن ليرابط بها فى الحصن البرتغالى بحجرة بادس وعندما كان أبو حسون متوجها نحو سواحل الريف اسره قراصنة صالح الرايس فنقل الى الجزائر

وقد حاول السلطان تغطية سياسته الخارجية المتنافية مع مبادئ التحرير والجهاد التى دعمت قيام الدولة السعدية بالزحف ضد البرتغاليين فى البريجة (الجديدة او منزغان) فى نفس السنة (969هـ) بقيادة ولده محمد المسلوخ قتيل (وادي المخازن) فمنى الحصار بالفشل كما أسس جامع المواسين (970هـ) ومارستان وجدد بناء مدرسة بن يوسف المرينية بمراكش وتملق الى الصوفية فتتلمذ للشيخ احمد بن موسى السملالى وابى عمرو القسطللى ولكنه ظل مع ذلك يخشى مقبة نفوذ الطريقة فنفى الشيخ عبد الله بن حسين الى تامصلوحت وقتل الظاهرى محمد الاندلسى ونكل بالمبتدعة من طائفة شراقة التى انتسبت الى احمد بن يوسف المليانى

رواية اخرى بان القتلة فروا اولاً الى اكادير حيث وعدوا بنجدة من السفن التركية الى بادس التى كانت قد سقطت فى قبضة الاتراك ويظهر ان العثمانيين عدلوا عن الزحف من جديد ضد المغرب لان الاسبان هددوهم فى تلمسان فاستفاد السعديون من التنافس التركى الاسبانى فى المغرب الاوسط وشعر الاتراك بان تخليص وهران من السيطرة الاسبانية يستلزم احتلال شمال افريقيا فاعتزموا القيام بحملة جديدة اضطروا لتأجيلها فبادر الخليفة السعدى تعزيزا لتحالفه مع اسبانيا بالتنازل لها عن حجر باديس وبالضرب على يدقراصنة مارتيل الذين كانوا يضايقون الاسبان واحتلال شفشاون (969هـ) واستئصال امارة بنى راشد التى ساندت المجاهدين فى ناحية الهبط وتطوان

ومات السلطان بدهاء الربو (الضيقة) وهو في غمرة هذا الصراع (981هـ)
فدفن بمقبرة الاشراف السعديين

محمد المتوكل : (981 - 983 هـ) (1574 - 1576 م)

وكان مولاي محمد ولي العهد نائباً آنذاك بفاس فجددت له البيعة بمراكش
ثم فاس ولقب بالمتوكل وهو معروف بالسلوخ وقد جمع بين قوة العارضة
العلمية وقوة الشكيمة والدهاء وقد واجه من اعتلائه العرش مشكلة
خطيرة هي وجود عمه عبد الملك وأحمد في القسطنطينية لاجئين عند
السلطان سليم يستحثانه لامدادهما بالجيش والعتاد لاعتلاء اريكة
المغرب الاقصى وتقاعس الباب العالي عن النجدة أول الامر فانغمر
الاخوان في الجيش العثماني الموجه لفتح مرسى لاكوليت (بعاصمة تونس)
وتمكننا من المسارعة بنقل بشارة النصر الى الخليفة الجديد مراد قبل وصول
البريد الرسمي على ظهر قارب قرصاني واستغلا هذه الدالة بمساعدة والده
عبد الملك سحابة للاستشفاع في دفن راس والدهما الشهيد الذي كان لايزال
معلقا والحصول على مدد عسكري من الجزائر وصادف الحال وجود عناصر مثل
العلج على تواقه للتدخل في المغرب فانتظمت الحملة واستسلف عبد الملك المال
والعتاد وزحف نحو المغرب الاقصى في حشود تركية وكانت تونس قد حررت
من طرف العثمانيين فتضايق الخناق بوهران على الاسبان الذين صاروا يفكرون
في مهادنة الاتراك ولكن تصلب الباشا الذي طالب مدفوعا من طرف فرنسا بجلاء
اسبانيا على افريقيا اسفر عن فشل المفاوضات واصبح محمد المتوكل معزولا
لايجد في حلفاء ابيه الاسبان استعدادا لايقاف الحملة التي وصلت الى ناحية
فاس دون عناء فانضم اجناد الاندلس الى عبد المالك وأشيع فرار القائد ابن
شقران مع جنده الى الجيش الفاتح ففت ذلك في عهد المتوكل الذي سارع الى
النزوح عن فاس بما خف من الدخائر ولقى قائده ابن شقران وجيشه
فشعر بالكيادة ولكن سبق السيف العذل ودخل أبو مروان الى فاس
(سابع ذي الحجة 983هـ - 31 مارس 1576م)

مولاي عبد الملك (983 - 986 هـ) (1576 - 1578 م)

وقد امتاز مولاي عبد الملك باصالة في الراي نتجت عن تقلباته في الخارج

الغضون كان المتوكل قد وصل الى اشبونة فتطارح على ملكها الشهاب الدون سبستيان الذي كانت نفسه الطموح تحدته بغزو المغرب في حملات صليبية جديدة وحسب الامير المغرور الفرصة سانحة فاهتبلها رغم نصيح رجال الدولة بالعدول عن هذه المغامرة الزائفة وقد سبق له أن زار سبتة في السنة التي اعتلى المتوكل أريكة العرش بدعوى الصيد في الارياض كما خاض معركة في حوز طنجة ضد كتيبة من فرسان السلطان ائذاك واشترط سبستيان مقابل الاعانة امتلاك أصيلا وتبعية المملكة المغربية للبرتغال وتنافس أبو مروان لاحتياط مسعى ابن أخيه فاقترح على ما قيل التنازل عن ثغر مغربي تختاره اشبونة مع مقاطعة تبلغ مساحتها ثلاث عشرة مرحلة حول الجديدة وسبتة وغيرهما غير ان الحشود (1) البرتغالية كانت قد تجمعت في طنجة وأصيلا (ربيع الثاني عام 986 هـ) وبرز المتوكل هذه الحملة الصليبية على المغرب وفتح أبواب أصيلا للمسيحيين - وكانوا قد جلوا عنها أيام محمد الشيخ - بتقاعس المسلمين عن نصرته فأجابه العلماء والاجناد برسالة حملوه فيها تبعة الفرار من المسؤولية والنزول على العرش الذي عهد محمد الشيخ به للاكبر فالاكبر تبعا لتقاليد الملك العضود في صدر الاسلام وسار الاجناد البرتغاليون في حركة بطيئة بعرباتهم ومعداتهم الثقيلة فوصلوا الى أرباض القصر الكبير في ظرف زهاء عشرة أيام واستنفسر ابو مروان في هذه الاثناء جيش فاس بقيادة اخيه لمواجهة هذا الزحف الاجنبي الذي نصح المتوكل تعزيزه باحتلال تطوان والعرائش للاستعانة سلفا بقبايلهما ولكن أبا مروان استعجل سبستيان بالتحدي (2) فعبر وادي المخازن وعسكر قبائله وبادر أبو مروان غم وصوله بنفس قنطرته فانحبس البرتغاليون بين نهرين وتعذر عليهم كل تراجع الى الخلف لانعدام المشارع في الوادي وانتظم الرجال المسيحيون ضمن مربع قبعت في قلبه قوافل عربات المؤن والذخيرة ووقف الرماة في الطليعة والفرسان ميمنة وميسرة وواجههم المسلمون في نفس

(1) بلغ عدد الجنود البرتغالية 125.000 حسب نزهة الحادي والمنتقى المقصور و 60.000 حسب الذخيرة السنوية ونحو 200 مدفع اما المراجع الاجنبية فانها تتحدث عن 14.000 راجل و 2000 فارس و 36 مدفعا مقابل 50.000 راجل في الجيش المغربي و 22.000 فارس معظمهم أعراب من الخلط وغيرهم و 1.500 من الرماة و 20 مدفعا .

(2) تقول النزهة بأن ابا مروان كتب رسالة الى الامير البرتغالي يستفز نخوته للمجيء الى وادي المخازن وكانت مكيدة من الخليفة السعدي

النسق في شكل هلال مسرح الاجنحة للانقضاض من الجوانب عند الاقتضاء
وبدأت المعركة في الهجيرة (تمت جادى الاولى عام 986هـ - 4 غشت 1578م) وأشعة
الشمس تبهر عيون العدو ولهبها يلفح وجههم وأسنة الرماح وقذائف الانقاض
تهدهم من أمام والمياه الزاخرة من خلف وسارع جيش أبى العباس الى الهجوم
فانقضت ميمنته على مؤخرة العدو بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة فتهالك المسيحيون
صرعى من جراء هذه الصدمة العازمة وانحازت الفلول الفارة ففرقت فى اليم وفى
ضمنها سبستيان والمتوكل ولفظ أبو مروان نفسه الاخير بعد استعصاء مرضه
فسلخت جثة المتوكل وحشيت تبنا وطيف بها فى المدن وسلمت اشلاء الامير
البرتغالى من طرف الامير أبى العباس الى ذويه ونقل رفات أبى مروان الشهيد
الى مقبرة الاسرة بمراكش وبويع أحمد خليفة فخف للقبض على زمام الامر بعد
استتباب النصر وعلان موت السلطان بينما تسارعت الفلول المهزومة لاجثة
لاصيلا حيث بقى الاسطول رابضا .

وإذا كانت هذه المعركة الفاصلة فترة عارضة فى تاريخ الصراع بين
المسيحيين والاسلام - كما يقول طيراس - فانها كانت انتفاضة شعبية ضد
الصليبية المعتدية انزلت الضربة الاخيرة بالطموح البرتغالى وفككت أوصال دولة
البرتغال لان الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثانى ملك
اسبانيا التى اندمجت فيها البرتغال أزيد من سنتين سنة ولكن الاساطير اثبتت
لتحيط هذا الجانب أو ذاك بهالة من القداسة ربما كان الكثير منها بعيدا كل
البعد عن الواقع الذى لم يكن أكثر من معركة قضت على الوجود البرتغالى بالمغرب
كما قضت وقعة طريف البسيطة العادية على الوجود المرينى فى الاندلس ولكن
صدمتها كانت من مظاهر عناية الله بالدولة الناشئة التى خطبت ودها الدول
العظمى لان هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالشىء الهين
ولا بالشىء الذى يمر دون أن يشير اعجاب العالم مهما تكن حقيقة الاوضاع
والملايسات وأشع هذا الانتصار ففتح عهدا جديدا فى علائق النصرانية والاسلام .

الفصل الواحد والعشرون

العصر الذهبي وفترة الانحلال

بويغ أبو العباس أحمد المنصور غداة انتصاره في معركة وادي المخازن من طرف الجند الذين أغدق عليهم هداياهم وتنازل لهم عن خمس المغنم مقابل الأعطيات العادية ثم تجددت البيعة بفاس (جمادى الثانية 986هـ) وكان المنصور عالما شاعرا رقيق الحاشية له ولوع بالمعارف الطريفة قد أكسبه مقامه في الاستئانة اطلاعا على شؤون أوربا ودول البحر المتوسط فأظهر مهارة ودهاء في توجيه سياسة المغرب الخارجية وقد بادر باستغلال النصر فأبرق إلى السلطان مراد ببشارة انهزام قوات الصليب وتوالت عليه وفود التهنئة من تركيا والجزائر وقشتالة وفرنسا وحتى البرتغال بالهدايا والتحف الثمينة استعرضت في حفل شعبي بفاس .

وكان شغوقا بمظاهر الحضارة الأندلسية المغربية وبالطابع القومي في الفكر والتقاليد وكان المرض العصيب الذي ألم به في السنة التالية (987هـ) قد ضاعف من اتزانه وانكبابه الجدي على دعم مقومات الدولة التي حاول ان يضيف عليها طابعا افريقيا بتوسيع رقعتها في أقصى قيافي الجنوب ولعل اندحار البرتغال هو الذي حدها إلى أن يخلفه في اكتساح الصحراء والسودان .

سياسة المنصور الداخلية والخارجية :

واستشعر المنصور من مقامه في دار الخلافة العثمانية بما للمناهر والشكليات من أثر عميق فوسم بلاطه بمعالم الفخفة وشيد قصر البديع وشكل جيشا جديدا عزز فيه العنصرين العربي والبربري بالمرتزة الاتراك والاندلسيين وأحاط مراسيم الملك بهالة من القداسة تبلورت في الألقاب الرنانة والحفلات الدينية الرائعة وإبراز الشرف السلالي في الجمع والاعياد والمواسم الطارئة .

وبدأ المنصور بتنصيب ولي عهده محمد المأمون (987هـ) وهو بفاس وتجددت الحفلات بعد سنتين فخرج الخليفة الى الأرباض لاقتبال ولده وتجلت التراتيب الطريفة في الجهاز العسكري بتنافس فاس ومراكش وأشاد الشعراء بالأمير الشاب الجالس على السرادق بحضرة أهل الحل والعقد من العلماء وإقامة الأجناد .

الثورات :

وفي هذه الآونة ثار داود بن عبد المومن أخى المنصور مع ثلة من البربر فانصر عليه ابن بجة قائد الجيش السلطاني في سكيوية ثم هوزالة ففر الى الصحراء لاجئا الى معاقل الوديا الذين واصلوا تشعيبهم منذ المرينيين وكذلك الخلط الذين عاثوا فسادا في أزغار بعد ان أدرج المنصور معظمهم في ديوان الجيش جزاء استماتتهم يوم المخازن وكان والده قد نقلهم الى مراكش اثر انضمامهم لابي حسون وقد واجه المنصور (993هـ) في غمارة وألهبط ثورة الحاج قرقوش الذي ادعى امارة المومنين فقتل وبعد عشر سنوات زحف الناصر ابن عبد الله الغالب من مهجرة بقشتالة - حيث نزع غداة وفاة المعتصم - فالتفت حوله كثير من القبائل التي أقضت مضاجعها صرامة المنصور غير ان معركة عنيفة دارت في الحاجب (1004هـ) أسفرت عن انهزام الناصر ومطاردة المأمون له فقتل وحمل رأسه الى مراكش وترددت أصدا هذا النصر في الرسائل المبردة الى علماء مصر وسلطان الحجاز تنديدا بمناورات قشتالة الصليبية في اثاره الادعاء ضد دار الاسلام .

وكانت الاحن قد نشبت بين الاخوة بعد تجديد البيعة للمأمون (992هـ) فاضطر المنصور لتنصيبهم أمراء في الأقاليم عاقدا لابي فارس على السوس ولابي الحسن

على مكناسة ولزيدان على تادلا (ثم عكس في هذين) وخبثت طوية المامون فاستبد بفاس وآثار بتعسفاته مكامن الشعب فحنق الوالد وقرر نقله الى اقليم سجلماسة ودرعة ولكن الابن الثائر تقاعس وسم وزيره ناويا الفرار بجنده لتلمسان استصرخا للاتراك فخرج المنصور من مراکش في حشد غامر (1501هـ) وفر الشيخ المامون مع عصابته التركية وقلول أولاد طلحة والخلط لزواوية أبي الشتاء بورغة فتعقبه الباشا جودر فاعتقل في سجن مكناسة وهكذا كان تقسيم الدولة بداية الانحلال .

السياسة الخارجية

ولم يغيب عن ذهن المنصور في هذا الخضم من المناورات الداخلية ما كان يهدد كيان المملكة من الخارج لولا النزاعات الأوروبية التي وجد فيها الخليفة حاجزا موقتا وكان الصراع قائما آنذاك بين بلاد النمسا وانجلترا وفرنسا وهولندا مما قلص سياسة التوسع الأفريقي الإسبانية ومعلوم ان شارل الخامس ملك اسبانيا كان امبراطورا للنمسا والمانيا وحارب ملك فرنسا فرانسوا الاول طوال ثلاثين سنة وكذلك الاتراك وخلفه ولده فيليب الثاني الذي ملك الى جانب اسبانيا هولندا ثم البرتغال بعد مرور ثلاث سنوات على وادي المخازن (1580) وعاش بعد ذلك زهاء العشرين سنة (الى 1598م) لم تمكنه الظروف خلالها من استفزاز المغرب الذي كانت ذكرى انتصاره الباهر ما زالت عالقة بالاذهان كما انغمرت تركيا في الحروب الأوروبية فلم تعد تهدد المغرب وكان بندخ المغرب وقصوره الفخمة وعملته القوية تحدد الدول الى خطب وده تقدير لسكره وابريزه وبعد أن كان فيليب الثاني يطمح الى احتلال العرائش اضطر الى التنازل عن اضميلا (1592م) لحمل السلطان على عدم تأييد السدون انطونيو النظام في عرش البرتغال ا

وكان المنصور قد اقتبل بيروود وقد مراد العثماني الذي ورد على مراکش للتهنئة بالنصر فحنق الباب العالي وانصت للطامعين في غزو المغرب أمثال الباشا على علوج الذي تمكن من اقناع السلطان بتوجيه حملة ضد مراکش وطرق الخبر سمع المنصور فاستعد للنزال بينما وجه الى القسطنطينية سفارة فيها الاحمدان ابن ودة والهوزالي لقيت اسطول علوج في طريقه الى المغرب فتم التهادن وتبادل الوفادات والهدايا وعززت اسبانيا حلفها للمغرب خوفا من وجود علوج

بالتعرب من مركزها بوهران ولكن علوج أقصى الى الشرق الادنى ومات بعد خمس عشرة سنة فتقاربت اسبانيا وتركيا بالاعتراف بالوضع القائم غربى البحر المتوسط وكان فى ذلك تعزيز غير مباشر للسعديين .

أما مع انجلترا فان المبادلات التجارية ظلت نشيطة وعرف المغرب كيف يستغل قضية انطونيو الذى كانت انجلترا تحذوه الى مساعده فاحتفظ المغرب بنجل هذا الداعى واضطرت البرتغال للتنازل عن أصيلا لحمل المغرب على عدم الاعانة فحاول الاسطول الانجليزى وحده عبثا امداد الامير لاحتلال البرتغال ومع ذلك بقيت انجلترا تطمح فى اقناع المنصور بالتحالف ضد اسبانيا والاشترك فى غزوا الهند وبدأت الدبلوماسية الفرنسية منذ ذلك العهد توجه قناصلها للمغرب كما توطدت علائق طيبة مع هولندا .

غزو السودان :

تقع على مصب النيجر شمالى السودان أقطار مثل كاغو يملكها آل سكية الصنهاجيون وقد حج محمد سكية أواخر القرن التاسع فحظى من الخليفة العباسى بلقب الامارة بالسودان حيث نشر معالم السنة واحتذى بمراسيم الملك العباسية وتولى على العرش بعد وفاته ولده داود ثم اسحاق وقد سبق للمنصور أن تلقى هدايا ابي العلاء أمير برنو الذى استعان بالسعديين على نشر الدعوة الاسلامية وكان المنصور قد استولى عام 990هـ على بعض منافذ الصحراء كثوات وكورارة فاستغل وجود الوفد السودانى لدعوته الى البيعة واوفد رسولا الى الامير اسحاق للمطالبة بترتيب خراج على معدن الملح بتغازى مثقلا ذهبيا لكل حمل لتحويل الجهاد المشترك فى سبيل نشر الاسلام بالسودان وكان آل سكية يستبدون من هذا المنجم اموالا طائلة طمح المنصور الى استغلالها باسم الخلافة فكان رفض الامير اسحاق مطية لغزو السودان الذى بادر المنصور بامتطاء أوعاره رغم معارضة حاشيته متعللا بوجود الجهاد جنوبا ان تعذر بالاندلس شمالا وتحرك الجيش الغربى بأجهزة جديدة قوامها آلاف الجمال (I) والافراس وعدد من المدافع المحمولة على العجلات بقيادة الباشا جوذرفوصلت القافلة العسكرية عن طريق درعة الى تنبكتو ومنها الى كاغو بعد ستة أشهر (16 ذى الحجة 998هـ) جمادى الاولى

(I) تقول المصادر العربية بأن هذا الجيش بلغ 22000 من رماة وفرسان ورجالة مقابل 104000 مقاتل سودانى مجهزين بالرمح والسيوف .

999هـ) فانبرى الجيش السودانى والتحم الفريقان فى تونديبى فانهزم الزوج لضعف عتادهم فاحتل جوذر مدينة كاغو واقترح اسحاق الصلح مقابل اتاوة سنوية وهدايا نفيسة من الذهب الرقيق (I) فقبل مبدئيا بشرط موافقة المنصور فانجاز الجيش الى تنبكتو بعد أن ارهقته وخامة الجو فغضب الخليفة وبعث جيشا جديدا بامرة محمود باشا أخى جوذر فاستحث القائد الجديد ركائبه ووصل أوائل السنة التالية (1000هـ) بقواربه المفككة لشحن الجند بمياه النيجر وساقه أغلب الجند برا فالتحم الفريقان وطورد اسحاق وأخوه فقتلا وعاث الجند المغربى سببا وفتكا فى طريقه نحو الجنوب حيث عسر الوصول الى مناجم الذهب وارتاب المنصور فى آل اقيت وهم من ذوى السودد والوجاهة بتنيكتو فنقاهم الى مراكش (1002هـ) وفى ضمنهم احمد بابا الذى لم يرجع الى بلاده الا بعد وفاة المنصور وظلت السودان خاضعة للقائد محمود ثم لسلسلة من الباشوات المستقلين والكاهيات الذين حكموا البلاد ودعى لهم على المنابر الى آخر عهد الحسن الاول والاحتلال الفرنسى (1893م) •

وتوفى المنصور بفاس بالوباء (2) الذى عم المغرب وذلك اثر اعباء القمع لثورة ولده المامون (II ربيع النبوى 1012هـ) •

وقد اتخذت الحضارة المغربية فى هذه الفترة مظهرا جديدا تبلورت فيه الأزداوجية العربية التركية فى الجيش ومراسيم الملك وأبهة العرش والتراتبى الدينية كالاحتفال بالمولد النبوى وبموسم الشموع غداة العيد وسرد البخارى فى رمضان ولجمع المسمعين من حواضر المغرب لانشاد اشعار الصوفية وقصائد المديح السلطانى فى قصر البديع المنعم بنمارق الذهب وحائطيات الديناج وتوافر الوصفان والعلوج الراقلين فى الاقبية المخصوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة (3) وسط مياخر العود والعنبر وصحائف الفضة والذهب الاندلسية والتركية والهندية •

-
- (I) يقال بأن الامير سكية اقترح بذل 100.000 قطعة من نقود الذهب و 10.000 من الرقيق مع احتكار وسق الملح الى السودان •
- (2) فند اليفرنى ما أشيع من أن المولى زيدان هو الذى سم والده باشارة أمه الشيبانية •
- (3) راجع النفحة المسكية فى السفارة التركية للتامجروة •

فترة الانهيار

ولكن هذا الجهاز الضخم ما لبث ان انهيار بعد ان تطاحن ابناء المنصور لاعتلاء أريكة العرش وتجدد انقسام الدولة الى مملكتي فاس ومراكش وانبرى أمراء الطوائف لتجزئة المغرب الى اقطاعات بدأت الازمة العارمة بتناحر الاخوة الثلاثة مولاي زيدان الميايع بفاس وأبي فارس الذي انصاعت له مراكش وانضم اليه شقيقه المامون المحرر من طرف القائد أحمد بن المنصور العليج وحادر العلماء بين المعسكرين فوجه أبو فارس ولده عبد الملك مع أخيه المامون لمحاربة زيدان والتقى الجمعان بوادي أم الربيع ففر زيدان مطاردا من أخيه المامون الذي ما فتىء أن دعا لنفسه فالتفت حوله أهل فاس وجهز ابنه عبد الله لقتال أبي فارس فدخل مراكش ونكل بأهلها في غمرة من الفساد الصارخ (1015هـ) وفي هذه الاونة وصل زيدان الى تلمسان مستعديا الاتراك فمأطلوا وحدها اليأس الى العودة للمغرب لاحتلال سجلماسة ودرعة والنسوس ثم مراكش بعد ان فرمها عبد الله ابن المامون فتحالف الشقيقتان ابو فارس والمامون وزحف عبد الله نحو مراكش في جيوش أهل فاس الموتورين واحتل المدينة من جديد بعد ان انهزم جيش مراكش بقيادة مصطفى باشا ففر زيدان ولجأت جماعة من المراكشيين الى جبل كيليز حيث بايعت الامير أبا حسون بن زيدان ابن الاعرج (I) ففر عبد الله وعاد زيدان فاسترجع مراكش بعد هزيمة ابي حسون وفي هذه السنة (1016هـ) هاجر كثير من الغرناطينين فارين بدينهم من التحقيق والتمسيح والتعسف الى تطوان وقصبة رباط الفتح في الوقت الذي لجأ المامون الى العرائش ثم اسبانيا بعد دخول زيدان لفاس (1017هـ) وفرار أبي فارس وعبد الله الى بنى يزناسين بالمغرب الشرقي .

مملكة فاس

وقد حصل المامون على تأييد ملك اسبانيا فيليب الثاني مقابل تنازله عن العرائش التي أجبر أهلها على النزوح عنها (1019هـ) واحتل مدينة فاس فضج العلماء والصوفية ضد هذه الصفقة الخائنة ، ولكنه أقنع بعض العلماء

(I) حسب زهرة الشماريخ .

باضطراره لذلك لاحتفاظ اسبانيا بأولاده زهائن واستصدر منهم فتوى تبرر عمله ورغم اعتزازه بعرب تلمسان وتطاحن اللمطين والاندلسيين بفاس فان روح الجهاد ظلت متأججة حيث ثار الشعب بقيادة سليمان الزرهوني ضد عيث شراقة وانتهاكهم الاعراض واستعرت المناوشات وعمد المامون الى اخماد الثورة بالقوة فاتجه نحو الشمال حيث كان المجاهدون يخوضون معركة عارمة ضد الصليبية الزاحفة بقيادة مقدم تطوان أحمد النقسيس ومقدم الفحص أبي الليف فقتل المامون (1022هـ - 1013م) وخلفه ولده الذي كان قد استبد بفاس واهلك الحرث والنسل وحاول استغلال خلاف العدوتين نحواً من خمس سنوات ولكن اخاه محمد زغودة بويغ في الشمال بضريح مولاي عبد السلام بن هشيش بدعوة من الشريف سيدي علي بن ريسون فطرد عبد الله من فاس (1028هـ) ثم رجع اليها وانتشرت الفوضى بتعاقب الادعاء على العرش وتقتيل العلماء ونهب الدور الى ان مات الامير عبد الله بعد أن ملك عشر سنوات (1032هـ) فكان الادمان على الخمر والدعارة السافرة من عوامل التعجيل بوفاته وبوفاة والده قبله وقد خلفه اخوه عبد الملك الذي توفي عام 1036هـ وظلت الفوضى ضاربة اظنابها بفاس رغم محاولة مملكة مراكش السيطرة عليها الى ان ملكها أهل الدلاء كان زيدان منهمكا في تركيز سلطته بمملكة مراكش فسالم البرتغاليين في الجديدة متجها لآخامد ثورات القواد والادعاء وقد استنجد بالباب العالي (I) واستعان بالقراصين الاسبان عند استعصاء وضعه السياسي لتحرير ذخائره وخزانة كتبه الى اكادير ولكن المنية عاجلته (1037هـ) فخلفه ولده أبو مروان عبد الملك وهزم اخويه الوليد وأحمد فتارجح هذا الاخير بين العرش والسجن بفاس الى ان قتل (عام 1051هـ) بينما قتل الاعلاج ابامروان السكير الخليع بمراكش قبله بأزيد من عشر سنوات (1040هـ) فخلا الجو للوليد الذي ظل يتقلب في سلطنة مراكش الضيقة منكلا بمنافسيه من الاسرة المالكة رغم ماوسم به من ديانة فأودى الاعلاج بحياته (1045هـ) وبويغ أخوه محمد الشيخ ولكن الثورات توالى فالتحم الامير مع هشتوكة والشياطمة علاوة على الدلايين والعلويين الى ان مات (عام 1064هـ) فبايعت مراكش ولده مولاي العباس أحمد الذي استبد عليه

(I) ذكر اليفرني أن زيدان أهدى الى القسطنطينية عشرة قناطير من الذهب فأعانوه بـ 12000 جندي غرقوا في البحر .

أحواله من الشبانان فقتلوه (1069هـ) (I) وبايعوا أميرهم عبد الكريم (كروم الحاج) فانقضت دولة السعديين .

وقد واجه زيدان نفسه قبل ثلاثين سنة حملة اتسمت بطابع الجهاد واضطلع بها الصوفية وكان الانحلال العام يبرر هذه الثورة التي انبثقت باسم الدين لتهالك أبناء المنصور على اللهو والمجون .

أبو محلى والحاحي : فظهر أبو محلى فى سجدماسة ودرعة وهزم جيوش زيدان واحتل مراكش فاستنجد الامير بأبى زكرياء يحيى الحاحى الفقيه الشاعر وهو شيخ زاوية بالاطلس الكبير فالتحم الطرفان فى كيليز (1022 هـ) ومات أبو محلى فأسحا الميدان لعودة زيدان الى العاصمة وكان الاسطول الاسباني قد أضاف الى المعرائش العمورة (المهديّة) فى نفس الفترة (1023 هـ) (2) .

العياشي : وهنا انبرى العياشى تلميذ سيدى عبد الله بن حسون (من بنى مالك) ففر من أزموور حيث كادت تحيط به عصابة زيدان بعد اثخاته ضد الجديدة ثم حارب اسبان العمورة فدس زيدان من يقتله من أشياخ الاندلس وتوالت الدسائس فانتقض اندلسيو سلا على زيدان وقتلوا قائده عجيبنا وادلهم الجو فى خضم من الفوضى والنهب فاستنجد شعب أبى رقراق بالعياشى وانضمت اليه قبائل الاقاليم الممتدة من تامسنا الى فاس وتازة معرزة بالفقهاء والعلماء كسيدي العربى الفاسى وابن أبى بكر الدلائى ومحمد بن ناصر الدرعى فاضطر فى بادىء الامر الى قمع المشغبين من عرب الحياينة وشراكة من الغرب وأسر جند اسباني طوح بهم الموج الى الساحل ثم استأصل بجيش فاس معظم حماة حلق الوادى وكاد العياشى يحرر المهديّة لولا توارد الامدادات وتقاعس الجند الاندلسى على اعداد الجهاز الحربى لتسلق الاسوار وبدأ الشقاق يدب الى نفوس المجاهد واعوانه من الاندلسيين الذين اتهموا برقة الدين وتواطؤهم مع المسيحيين فأفتى العلماء بجواز قتالهم ولم يتقنصر جهاد العياشى على المهديّة بل والى غاراته على المعرائش وتوغل فى مملكة مراكش خلف أم الربيع للانقضاض على حمادة الجديدة انذين استهانوا بالمسلمين وخاصة أزموور فاستأصل عام 1049هـ (1039م) جند اليرتغال

(I) حسب النزهة أو 1065 حسب نشر المثانى الذى ذكر أيضا أن قتل

محمد الشيخ تم عام 1063 هـ .

(2) حسب زهرة الشماريخ ونشر المثانى .

ونقل اسراهم الى سلا ثم حارب العدو فى طنجة (١٠٥٥هـ - ١٠٦٤م) واستتب نفوذه فى الغرب باقرار النظام والضرب على يد المشغبين وخاصة بفاس ومطاردة المغير الاجنبى ولكن خصومه الاندلسيين كانوا قد لجأوا الى الدلايين وتآزمت العلاقات فزحف البربر ضد جنود العياشى من العرب واستعر العراك فانهزم المجاهد وقتل على يد عصابة من الخلط (١٠٥١) وخلفه ولده عبد الله الذى حاول نهج خطة والده فى الكفاح ولكن الدلايين وقفوا حاجزا منيعا فى وجهه .

الدلايون :

هم من برابرة مجاط الصنهاجيين وقد أسس جدهم أبو بكر تلميذ ابى عمرو القسطلى زاوية بالدلاء شرقى الخنيفرة بآيت اسحاق فأصبحت مركز اشعاع علمى وملجأ يأوى اليه الاعلام وخلفه تجله العالم محمد التى التف حوله برابرة الاطلس الاوسط وعند وفاته (١٠٤٦هـ) أصبح ولده محمد الحاج زعيما سياسيا مالبت ان زحف نحو الغرب فاحتل مكناسة (١٠٥٥هـ) ثم فاس بعد مقتل العياشى وانضمام سهول الملوية وقد عجز محمد الشيخ عن ايقاف هذا التيار الجارف فسالم الدلايين لمواجهة خطر جديد انبثق هذه المرة من صحراء سحلماسة .

السهاليون :

ابو الحسن او ابو حسون هو على بن محمد بن محمد نجل الصوفى احمد ابن موسى السمالى وقد انبرى فى السوس فى غمرة الحركة الصوفية التى ثارت ضد زيدان فاستولى على تارودانت ولكن صوفيا آخر هو يحيى العاحى انتزعها منه بعد عراك قاتل بها (١٠٣٥هـ) وامتد نفوذ أبى حسون بودميعة بعد موت زيدان الى درعة وسحلماسة حيث استمر حكمه الى قيام العلويين .

الزيدانيون واوروبا : وبينما كان الزيدانيون فى الاحتضار محاطين بامارات طارقة مستقلة اقرت وجودها بتزعم حركة الجهاد كانت أفواج المهاجرين تتوارد بعد ان طردت اسبانيا نصف مليون من المسلمين واليهود وكان فوج مرسية هو آخر من شملته قرارات النفى العام أواخر أيام المولى زيدان (١٠٦٩ - ١٠٦٤م) وكان التعلق بالاسلام ولغة القرآن والثقافة العربية السمة البارزة عند رجال المهجر

الذين استقروا بتطوان والشاون ومصب ابي رقرق فأصبحوا حربا على قوات الصليب وقراصنة البحار وأقاموا جمهوريات كانت لها سياستها الخارجية المستقلة ضمن كيان المغرب المنهار وقد استوطن قسبة الودايا أول الامر اندلسيون انحدروا تلقائيا من مدينة هورناشو الواقعة قرب ماردة ثم التحقت بهم بعد سنة فلول من مدن الاندلس السفلى فاستقروا برباط الفتح أو سلا الحديثة) داخل سور يقطع السور الموحدى عموديا من الجنوب الى الوادى بإبراجه وابوابه (شالة - البويبة - التبن) وأشرفت القسبة على المجموع فى جهاز أوربى يدير دفته رئيس ديوان ومقدمان والتأموا مع زيدان والعياشى كجنود مجاهدين وقراصنة اشاوش ينوب الملك السعدى من اسلابهم العشر ولكنهم مالبثوا ان تحرروا من قيود السلطان الذى استنفرهم لمحاربة ابي حسون واختلفوا مع المجاهد العياشى وتارجحوا بين التكتل والنزاع مع سلا أو بعضهم بعضا داخل الرباط ولم تكن تدخلات فرنسا وانجلترا واسبانيا لتزيد الشقة الا اتساعا فاتهم العياشى الكل بالتواطؤ مع المسيحيين فأخذن الاندلسيون فى سلا وانحاز أهل هورناشو للزعيم الصوفى الذى حاصر رباط الفتح بينما انصاعت هذه فترة من الزمن لمحمد الشيخ الاصغر وتمخض التطاحن عن سقوط المدينتين فى قبضة العياشى الى أن احتلها الدلاييون بدافع من الاندلسيين الذين طبعوا هذه الحواضر بميسم من المدينة الاندلسية الناصعة تجارة وفلاحة وثقافة وفنا .

اسبانيا والبرتغال : وقد هاجم الاسبان مصب ابي رقرق قبل وفاة زيدان

بأربع سنوات بعد ان اصبحت المرسى مأوى للقراصنة الاجانب وخاصة منهم الانجليز بزعيمهم هنرى مانوارين *Mainwaring* واحتلوا المهديّة فاحتدم الصراع مع العياشى فى حين داخل والى العرائش اندلسى الرباط وسالم زيدان عامل الجديدة البرتغالى الذى اقترح ايواه بعد انتصار ابي محلى ولكن هذه الاحلاف المغربية الاسبانية لم توت أكلها لان الضغط الشعبى لم يترك للسعديين مجالا للتحالف مع المسيحيين

انجلترا : أما الانجليز فلم يكن يهمهم سوى حماية صفقاتهم التجارية من

القرصنة وكانت لحكومة لندن وشركة بربريا *Barbary Company* علاقة ببلاط مراكش فكانت أسفى مرسى للمبادلات بينما فضل كثير من

التجار الانجليز تهريب الاسلحة للمجاهدين لاسيما منهم ابوحسون في اكاڊير وماخنة فمئيت الشركة البريطانية بالافلاس ومع ذلك اضطرت انجلترا لمفاوضة العياشي وكذلك الانجليز بالريباط وتطوان بواسطة جوهن هاريسون *John Harrison* غير ان العلاقات كانت تفسد أحيانا من جراء غارات القراصنة التي امتدت الى المحيط الاطلسي ووردود فعل القراصنة الانجليز أما في تطوان فان الانجليز والانديسيين كانوا يواجهون خصما مشتركا هو اسبانيا فاصتقر بالمدينة قنصل انجليزي واصبحت مارتيل قاعدة للسفن الانجليزية اثناء حصار قانس (1656م)

فرنسا : وكانت العلاقات مستوسقة بالاخص مع مرسيليا ولم يكن القناصل الفرنسيون يستوطنون المغرب بل يكتفون باقتطاع حقوق في مرسيليا على البضائع المصدرة للمغرب أما الدوائر الرسمية في الجانبين فلم تكن تهتم بأكثر من افتكاك الاسرى التي كانت عمليتها تعرقل بسبب تنازع الحكم بين مراكش وجمهورية أبي رقراق ولكن الروابط تأزمت بعد قضية اختطاف ذخائر الخزنة الزيدانية من طرف البحار الفرنسي كاسطيلان وقد لعب الاطباء والرحالون الفرنسيون دورا مهما في البلاط امثال بيرار *Bérard* وارنولد *Arnauld* وهوبير *Hubert* وموكي *Moquet*

هولندا : وكانت التجارة الهولندية بالمغرب انشط واكوى اذ كانت العداوة متبادلة ضد الاسبان وكان التجار الهولنديون يمدون الملوك والقراصنة بالعتاد وقطع السفن واصبحت لهذه التجارة الاسبقية بمقتضى معاهدة 1610 وقد كان آل بالاش *Pellacha* اليهود هم صلة الوصل بين مراكش وهولندا التي تعاملت أيضا مع كل من الانديسيين والدلايين .

المآثر السعدية

الاقتصاد :

كان للفوضى والاختلال الناتجين عن تسرب البرتغال الى السواحل المغربية اثر في تضعف الاقتصاد وانهيار الفلاحة غير ان انتصار المغرب في معركة وادي المخازن وفتح السودان ما لبثا أن جلبا لصندوق الدولة مبالغ ذهبية وافرة عززت موارد المخترقات الصناعية ومزارع قصب السكر واصبح للدنيا تقاق

في السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبي الى 3,548 غرام وقد تهاقت المضاربون من الانجليز على هذه العملة القوية فروجوا منتجاتهم بدل الذهب الخالص والسكر والجلود وملح البارود والزيوت وكذلك الهولنديون الذين كانوا يقتنون من المغرب الاصباغ والنحاس علاوة على السكر والجلود وبلغ ثراء المنصور الذهبي مبلغا حدها الى ان يقترح على هولندا قرضا قدره مليون ونصف مليون دينار (I) (هو 18 مليون فرنك بصرف ذلك العصر) وقد وجه المولى زيدان الى اوربا عملاء داعين لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه (النحاس والرصاص والقصدير والحديد والكبريت) حاميا في نفس الوقت الصناعة الوطنية من المزاخمة الأجنبية حيث حظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية وازدهرت كذلك المبادلات الداخلية بين الشمال الذي كان ينتج الكتان والزيوت والخزف ومواد الخياطة والحبوب الذي غمر السوق بمواده الخام وقد شوهدت قوافل الجمال (ما بين 1000 و 1500 جمل) تعبر يوميا وادي أبي رقرق تحمل قموح الغرب الى الجنوب (2) وقد وصف الحسن بن محمد الوزاني مظاهر الاقتصاد المغربي في هذا العصر (3) فأكد أن الصناعة ازدهرت في خمس مناطق (فاس والريف والهبط وهسكورة وتادلا والسوس والصحراء) حيث توافر الصوف والحرائر والاسلحة والسكاكين والسيوف ومنتجات الخشب والخزف والصابون والقنب والكتان والقطن والجلود والاحذية والاوراق النحاسية والتوابل وكانت فاس المركز الاول للصناعة التقليدية المغربية الاندلسية (520 معملا للنسيج و 360 مطحنة النخ)

وقد فرض السعديون علاوة على الاعشار والزكوات جزية جماعية حيث كان يهود فاس مثلا يؤدون اربعمائة دوكا شهريا (الدوكا كانت تساوي بصرف القرن الماضي سبعة فرنكات ونيفا) كما وظفوا ضرائب على الفنادق والمساجين والكانون والخراج البدوي وهو الزويجة وكانت عبارة عن مساحة من الارض يمكن قلبها بزوج من البقر مدة يوم واحد أي معدل ثمانية هكتارات أما

(1) وثائق دو كاستر ج ٠ I ص 528. كما اسلف الدون انطونيو المرشح

لعرش البرتغال 400.000 جنيه مقابل استرهان نجله كريستوف .

(2) كاي في تاريخ الرباط ص 54 .

(3) المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر - طبعة 1906 .

المدن فكانت تؤدي ضرائب غير مباشرة تعرف بالمستفاد وقد جدد المنصور بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الذي دخل الى المغرب عام الفيل (1007هـ) فبلغ نظام الخراج وفرض تعاريف جمركية على السكر والفضة والذهب كما احتكر معدل المداخل السنوية 300.000 دوكة (1)

الجيش : اقتبس السعديون من العثمانيين نظامهم العسكري وأزياءهم وكثيرا من مصطلحاتهم وأسند المنصور الى ضباط اترك تدريب العلوج والاندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان وأسندت قيادة قبائل الجيش (الكيش) الى باشوات وقد بلغ عدد جنود فاس في عهد المنصور 22.000 من بينهم 4.000 مخازنية (كلهم باكسية الملف والحريير والكتان) وقرسان مراكش اثني عشر ألفا (2) والسلطان مولاي عبد الله هو الذي ادرج الاندلسيين في ديوان الجيش في حين أدخل المعتصم أهل فاس

أثرت الدولة بمادده عليها احتلال السودان وافتكاك الاسرى البرتغاليين فاتجهت نحو بناء مؤسسات معمارية كقصر البديع للحصول على ماثرة وشفوف على المرابطين والموحدين وقد استغرق العمل فيه ما بين 986هـ و 1002هـ وجلب السلطان الصناع الافرنج والرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة الشكل في كل جهة منها قبة رائعة تحف بها مصانع وقصور ودور وفيها الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود والزليج المتنوع التلوين مع بديع النقش وقد هدم المولى اسماعيل هذا القصر عام 1119هـ « ولم يبق بلد - كما يقول اليفرنى - من بلاد المغرب الاودخله شيء من انقاض البديع »

ومن المؤسسات الدينية مسجد باب دكالة الذي بنته مسعودة الوزكيتية والدة المنصور ويتناسق في هذا المسجد الاسلوب المريني (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدى مثل هندام القباب وبعد ذلك بخمس سنوات أسس جامع المواسين بمرفقه من قاعة الوضوء والحمام والمدرسة والكتاب (المسيد) والسقاية ومورد الماء المخصص للحيوانات وتتم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة في الحقل المعماري .

(1) راجع كتاب « مظاهر الحضارة المغربية » ج 1 ص 78

(2) تاريخ الدولة السعدية (ص 38 - 48 - 53 - 74)

أما في جامع القرويين فإن السعديين بنوا قبوتين في الصحن تعلو سقف
كلاهما خصه مرمرية بما يوجد في ساحة الأسود بالاندلس

وقد أسهم السعديون في بناء مدارس صفري مضافة إلى المساجد أو
الزوايا حيث توجد مثلا في مراكش أعظم مدرسة بالمغرب يرجع فتحها
بناؤها إلى الأمير مولاي عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التي بناها أبو الحسن
المريني .

واقامت قبور السعديين على غرار اضرحة المرينيين بصاحبة قرب مسجد
القصبة بمراكش لدفن أمراء الأسرة المالكة

ويلاحظ بخصوص المؤسسات العسكرية أن الانقلاب الذي طرأ على
الاساليب الحربية تحت تأثير بوادر النهضة الأوروبية وانبثاق عهد الآلة حثا
الدولة المغربية إلى تعديل مناهج وطرق التعمير فالأسوار المحيطة بالمدينة الكبرى
تعززت بأبراج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية مثل « بانستيون » (أي حوض
تأزة الحامي لمر تأزة الواصل بين الشرق والغرب طول اضلاعها ستة وعشرون
مترا وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة غرفة للرمية كما تحتوي على مستودعات
للعتاد وقد أقام المنصور بفاس برجين آخرين يشرفان على المدينة وما زال البرج
الجنوبي على حالته بينما أدخلت تعديلات على البرج الشمالي خلال القرون
الآخيرة وتجدر الإشارة هنا إلى أن السعديين أضافوا أجهزة قوية جديدة إلى
المعاقل والحصون البرتغالية في المدن المحررة (اسفي وازمور والجديدة)
كما بنوا قناطر ذات طابعين استراتيجي ونفعي - ومعابر لنقل المياه وسقايات
عمومية .

وقد لاحظ طيراس (I) أنه بالرغم من الجهود التي بذلها كبار الأمراء السعديين
فإنهم لم يسهموا في انبعاث الحضارة الإسلامية بالمغرب « لان الدنية والفن كانا
متجهين نحو الماضي فلم تستطع بعض التأثيرات الأجنبية تعديل الاصول القديمة
ولا تركيز بذور خلق جديد » فالفن المغربي اذن هو حسب طيراس « فن خال من
كل عنصر غرض تكتنفه رواسب الماضي » غير أن صلات عابرة وغير مباشرة
بالفنون الإسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعديين من علاقة

بالإتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى في الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب وكذلك في بعض أزياء الرجال لاسيما منها العسكرية .
ومهما يكن فإن الفن المغربي الذي استنفذ قواه أصبح يزرع تحت عناصر قوية في النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها وازدادت فخفخة ورواء (I)
وهكذا تجلى العهد السنغدي كفترة عابرة عرف المغرب أثناءها وتحت راية المنصور نوعا من الازدهار والاستقرار ولكنه ما لبث أن عاودته الفوضى العارمة التي حزت كيانه في عهد الوطاسيين وانضمت الى الاعراب عناصر جديدة كالأتراك والزنوج أصبحت عامل تشغيب علاوة على رجال المهجر من الاندلسيين الذين كونوا اسطولا قرصنيا وأقاموا جمهوريات حرة مضاعفين مظاهر الخلل والانحلال التي هب الصوفية لاستئصالها فأحالوا المغرب الى امارات أشبه بما عرفته الاندلس تحت حكم ملوك الطوائف ولكن المغرب استطاع أن يعيش رغم هذه التواخر - على انقراض ماضيه المجيد وأن يضمن سيادته وكيانه في بنبوحة الفوضى .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع	الفصل
7	المغرب الجغرافسى	الفصل الأول
22	السلالة البربرية والمغرب العربى	الفصل الثانى
35	القرطاجنيون بين افريقية واوربا	الفصل الثالث
41	الحضارة القرطاجنية	الفصل الرابع
47	الممالك البربرية قبل الحكم الرومانى	الفصل الخامس
54	الرومان فى المغرب	الفصل السادس
61	المظاهر الكبرى فى الحضارة القديمة	الفصل السابع
75	الفتح الاسلامى	الفصل الثامن
81	البربر والخوارج	الفصل التاسع
87	الأدارةسة	الفصل العاشر
94	المغرب بين الفاطميين والامويين	الفصل الحادى عشر
99	المرابطون	الفصل الثانى عشر
105	الأندلس والحضارة البربرية	الفصل الثالث عشر
112	الانتفاضة الموحدية	الفصل الرابع عشر
119	العصر الذهبى فى العدوتين	الفصل الخامس عشر
127	انهيار الامبراطورية الموحدية	الفصل السادس عشر
134	المريسيون وتقنص الحدود المغربية	الفصل السابع عشر
147	ازدهار وانهيار	الفصل الثامن عشر
157	العهد الوطاسى عهد تحول وانقلاب	الفصل التاسع عشر
165	السعديون ومعركة وادى المخازن	الفصل العشرون
174	العصر الذهبى وفترة الانحلال	الفصل الواحد والعشرون